البشر.. وحتى الشجر.!.

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy **E-mail :**

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنان : سامي حمزة

❑❑

ســـامي حمـــزة

البشر.. وحتى الشجر.!.

* روايـــــة *

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

دمشق – 2001

:-

مذ *شغلتني إرهاصاتُ هذي الرواية، قبلَ ربعِ قرنٍ، كَبُرَ يقيني بأنَّ "فلسطين" ما هي إلا واحدةٌ من (فلسطينات) سابقةٍ ولاحقة.*

ثم إني كتبتُها وعينٌ على الأدب، والعينُ الثانية بمكانة عدسةِ الكاميرا.

وتلك هي حيواتُ بشرٍ، كما خلَّفها (الحقد والحب) في صراعهما الرهيب.!.

ولعلي فيما رويتُ، عانيتُ معاناةَ "مخرجٍ" في إدارة فيلم طو..يل... طويل.

ورافقتهم بقلمٍ مزوَّدٍ بعدساتٍ مقعَّرةٍ ومحدَّبةٍ؛ مقرِّبةٍ ومجسِّمة، تستنبطُ أغوارَ النفوس، واضعةً خلجاتِها على أنفِ القلمِ، ومكابدات أرواحٍ غشتْها الخطوبُ والشياطين، ولمّا تزل متشبثةً بأرماقها.. كما الشجر؛ وسطَ جحيم الصمتِ المريب.!.

ولحظةَ انتهيتُ من رسم كلماتها الأخيرة، وجدتُ نفسي ذاهلاً.. واجماً، وقد بتُّ وقلمي على قارعةِ النص، عندئذٍ بكيت.!.

سامي

***

إهـــــداء

إليك..

يا من تقف مع الحق
في محنته.
وتظلّ معه وإن ضيّق
عليكما الباطل بقوته.

***

1

-: **نَزَّتْ** نظرته امتناناً لأصدقائه غير المعلنين، فقد صدقوا بما وعــدوه، وها هو ذا قد عاد لتوّه، يستر نصفه الأسفل بــ"بنطال جينز"، وأخذ يتحدّث عن مليكه الجديد، معجباً أيّما إعجاب بــ"مامون*"، يتراءى له خارقاً معجزاً، ذكيــاً ألمعياً، ماهراً باهراً، يفعل الأعاجيب ولا يجارى، مثل الأكاذيب الكبيرة. ومــا الهنود والزنوج إلا حثالة رثّة، أشباه ما في شرقنا التّعيس.!.

كان يلمح استنكارنا ما يدعيه، وهذه اللّهجة الغريبة، ولكأنه أخفاها طويلاً تحت لسانه.!!.

وما فتئ يحدّثنا مشدوهاً بما رأى، يحدّجنا بعينيه القنفذيتين، يلتمــع فيهمــا خبثٌ عتيقٌ، يمازج مكراً حقنوه به من الوريد إلى الوريد، فأتلفوا فــي رأســه التلافيف، وأجادوا غسل الدّماغ، فبات آلياً بلا روح، ينفّذُ لاهجاً بقــدرة وحيــد القرن وقوته، ونظرته زائغة مبهورة بما أرَوْهُ، حالماً بــالوعود، تتــورّم أنــاه باضطرادٍ، تتخافت في سريرته بقايا نزعته الشرقية، مشكلةً رونق مسخٍ وليــدٍ، يتهافت في قمع بوقٍ لمّاعٍ، جعله يعلن أنه لن يكتب إلا في الخرافــاتٍ وبلغــةٍ مبهمةٍ، وقد فرغ للتوٍّ من تشويه طيف الألوان، وتركها حــديث العشــيات فــي المواخير، وما كانوا يريدون منه أكثر من هذا، وإنها نقطــة المــاء المســتمرة السقوط على نقرةٍ في جمجمة محكوم.!!.

وإنه حالة جليّة لأنموذج انتحار أديب، يذكّرك كيف أنه خرج مــن ثوبــه مراتٍ، مثل أفعوانٍ يخرج من جلده كلّ حين. ألا ما أشبهه بــ"عصــمان" أحــد شخوص هذي الرواية، ينتظم في طابور تخريب.!. وكي لا تذهبَنَّ بعيداً، مخمناً

---

* *مامون: رب الجشع الممكنن. وهو (رب المال).*

بالرؤى وهاجساً، وكي لا يجنح بك الظن والخيال، بما قد تكون عليه خاتمة الحكاية، فتضيف إليها ما ليس فيها، هي ذي أسطرها الأخيرة إليكها..

فمثلما عاثوا فساداً، هنالك.. وهنا.. وهناك، في أرض الناس، وما زالوا إلى يوم الناس هذا، فقد خرّبوا الضمائر المستنبتة، فالظنُّ قائمٌ بقوةٍ أنهم سرقوا الرواية، في مكرٍ ودهاءٍ وحيلةٍ، تماماً مثلما ألمّ بآداب وثقافات شعوبٍ في الأصقاع المستهدفة كافةً.. وإلا، ما معنى إخفاء نسخة "مخطوطة" منها، على يد دهقان امتلك "دارنشـــل" يزعم أنها لخدمة الازدهار.!.

لحساب من سرقها.؟.

أيتركها كما هي، قانعاً بوضع اسمه عليها.؟؟.

فيوزعها في عواصم لا تصلنا كتبها.!!. أم يظهرها في التلفاز مشوهة.؟. أم يشتغل على بعض ما جاء فيها.؟. الاحتمال قائمٌ ألا تظهر البتة، مختفيةً في أروقة سفارةٍ؛ ذاهبةً إلى منظّمةٍ سرّيةٍ.!. ويبقى سرّ اختفائها كسرٍّ فنجان قهوةٍ ذهب بـ"الكواكبي" عن هذه الدنيا.!.

أم يفعلون مثل فعلتهم بالكتّاب والأدباء، في حيّ "فردان" ببيروت، أو مثلما فعلوا بكتّاب وكتب مكتبات شارع "المتنبي" ببغداد.!.

وهأنذا آتيك هلوعاً- ليس جبناً- إنما ريبة، إنهم يتهامسون، وإنهم يتوازعون الأدوار، وإنهم يبيّتون ويترقبون ويستعدون، وإنهم يتآلفون، وينفثون سمومهم، وإني آتيك ليس لأسمع منك حكاية، بل لأبثّك حدسي ولواعجي، وأخبرك بما آلت إليه الأمور، وإني أبصرهم ببصيرتي.. إنهم كالخلد.. أراهم بأكوام تراب رطب، يرفعها خلفه من سردابه، وإنْ هي إلاّ علامات على وجه الأرض، تدلّ على مساره، وتدلّ على ما يحدثه في الخفاء من خراب، ولقد ادلهمّت..!. وها هو ذا التل رابضاً ههنا منذ عهد الإغريق، والرابية الكلسية أسفل ظهره العريض، حيث مثواك ومئات الأموات.

إذاً فقد وصلت إليك.!.

بضعة عشر حجراً كالحاً فوق مرقدك، ولا شيء البتة غير ذلك يدلّ عليك.!.

صرت نسياً منسياً، وكنت ممن دبّوا في هذي البطاح، دفعكم إليها الترك ليسدّوا بكم ثغرة الفيافي، فتفنوا فيها دون أن يدري بكم أحد.!. وها قد صرتم رمماً، ولم يبق منكم نفّاخ نار، ضعتم وكلّ ما كتمتموه في الصدور.!.

لا أنسى عينيك الجائلتين في وقبيهما، تينك العينين المغضّـنتي الجفـون، ترفعهما إلى وجهي حين أهرع إليك، تبرقان وتسألاني:

-: علام جئت.؟.

-: جئت أسمع حكاية.

فتأخذني إلى حضنك الدافئ الفسيح، فتحكي لي كأنك تقرأ في كتاب، وكنت أعجب لصوتك الخفوت، يكاد لا يسمعه مَنْ لا يدنو منك كثيراً، وأنت ترسم بـه زوابع التقتيل والإماتة، والذبح وحرق الرجال والنساء والأطفال، في حكايـة لا تنتهي، وأنا أرتعد فأشهق خوفاً وعبرةً، فأسألك:

-: هي حكاية ليس إلا، أليس كذلك.؟.

وفي أعماقي رجاءٌ أن تكون خرافةً، فذلك يخفّـفُ عنّـي الأرق، وكنـتَ تصمتُ، فأختلس النّظر إليك، فأرى دمعاً مغرورقاً في عينيك، وبعد حين صرت تلحظ- كأنّك درّبتني- كبتَ شهقتي وارتعادي، فعكفتَ على أن تختمَ الحكايـاتِ بقولكَ:

-: ذلك جرى سنة كذا...

إذاً لم تكنْ تتخيّل، ولا تمزح لتسلّيني. أدركتُ ذلك بعد لأيٍ، حين صـرتُ أسمعُ غيركَ يحكي للصغار عن "حرامي" يأتي من ثغرة في جدار، وعن الجنِّ، ومآثر السلطان، فلماذا لم تحك لي واحدة منهن.؟. ومـا الـذي كنـت تقصـده بحكاياتك الهائلة تلك.؟. أما كنتُ بنظرك ولداً لطيفاً رقيق الأعطاف؛ ليناً هـيّن المراس.؟. أم تراك استشرفت قادمات الليالي، فخاشنتني لأخشوشن فـي وجـه مدلهمّاتها السود.؟.

وما كان أبي ليخالفك، أو يردَّ لك طلباً، فعمل بمشـورتك وأعفـاني مـن الحرث والرعي، لأتعلّم بالقلم، وكنت تمنحني مكافـأة كلمـا مضـيت بتهجئـة الحروف.!.

أربعون عاماً انقضت مذ رقدتَ ههنا، وكأني بعينيك تسألاني:

-: علام أتيت بعد تلك السنين كلها.؟.

حائرٌ تماماً فيما كتبت، ولا أدري ما الذي يرضيك أن أذيعه من حكايتـك الطويلة، وما الذي أتركه طيَّ الكتمان.؟. لن تجيبني، وهذا مؤسفٌ، لكنّنـي لـم أتوان عن جمع مزيد من مثيلات ما سمعته منك، وهي بجملتها أتت مصدّقة لما رويت، وماثلتها بعجيبها، وعجائب لم يألفها من فاته أن يسمعها من أحدكم، أنتم

طيور السمندل؛ وقود تلك الأهوال، وأجنحة أبابيلها في آن معاً.

كأني بك أردتني أن أعي أُسّ ما أودى بكم إلى مصيرٍ كالجحيم، وكنت لك بديل الولد والحفيد، ترمّلتَ وما خلّفتَ، فتبنيتَ خديج أرمينيةً، شبَّت بكنفك، وكنا أثيريْك، فهل كنت تتوخى أن أكون امتدادك في سيرتك.؟.

وأنت لم تترك شروى نقير، لكنك أورثتني ذاكرتك، فامتزجت بنفسي وروحي، فضاق بها صدري النزق، وبرغم ذلك كتمتها لأكثر من ثلاثين عاماً، فكانت هويساً يؤرقني في صفو الليالي، ثم كتبتها لأنفِث عن قلبي، ثم لعلها تكون عبرة ومحرّضاً، ويظل ما حاق بكم ماثلاً، فلا يمرُّ والظالمون يرفلون بأثواب البراءة؛ ونظافة الأيدي من دماءٍ جعلوها خضابَ زينةٍ، وآية مرحمةٍ، حفظوكم بها من العقب الحديدية والأقوياء، كأنهم أنقذوكم من الإفناء العرقيِّ والمعتقد، فأودعوكم جوف الفناء البطيء، على تخومٍ "الجفتلك" والأملاك الأميرية السلطانية، وتناسوكم ما دمتم في حاجتهم، فقضيتم أعماركم عطاشاً، لم ترتو عروقكم، وظلَّت قطرة الماء أغلى من دمع مآقي اللائبين؛ الحالمين بارتواء.!.

وكنتم لا تمرضون، فإن مرض أحدكم يموت.!. تتغضن وجوهكم وتتجعَّد باكراً، فيظهر الكبر على قسماتكم، وبرغم ذلك كنتم تعمّرون، وتأكدتُ من جبروتكم، حين كنا خمسة فتيانٍ، سكنا داراً في "السفيرة"، إبّان دراستنا في المرحلة الإعدادية، وقت لم تكنَ في قريتنا غير المدرسة الابتدائية، وتقاسمنا غرفتي الدار، "عبدو وتحسين" في الغرفة الصغيرة "القبة"، و"عدنان وزهير وأنا" في الغرفة الكبيرة، ومعنا تلك العجوز الضئيلة القدِّ، الشاسعة الصدر، الشفيفة الروح، ترعانا بقدر استطاعتها، كرمى لحفيدها زميلنا، وكانت لنا جدّةً حنوناً وأمّاً رؤوماً، تُعِدُّ طعامنا، وتساهرنا ما دمنا ندرس، وهي تتلو القرآن، ولا تأوي إلى فراشها إلا عقب أن ننام، ولم ألحظها تشرب، أو تطلب من أحدنا كوب ماء، ولما أزف موعد العودة إلى أهالينا، اقتربتُ منها شاكراً، فمسحت على رأسي مبتسمةً، ولم أبرح مكاني فسألتني:

-: أتريد شيئاً.؟.

-: لديَّ سؤال.

-: قل.

-: طوال تسعة أشهرٍ؛ لم أركِ تشربين ماءً.!!.

-: نبيه.!!. إني يا بني أشرب الماء مرة كل عدة أشهر، وأكتفي بكوب شاي مع "قمر الدين" في بعض المساءات الرمضانية. عوّدتُ نفسي على ذلك، مذ كنا في طريق المسير الطويل؛ لستُ وحدي... كثرٌ نحن الذين فعلنا ذلك مكرهين.

وما كنت لأصدّق لو لم أسألها عن هذا وغيره، وأكَّد لي ابنها أنها ما آكلت زوجها، طوال خمسين عاماً، قضتها واقفة على خدمته، ما دام جالساً إلى طعام.!.. صبر عجيب.!!.

ومن يصدّق أنكم كنتم تشربون الشاي بالملح، ما دام السكَّر مفقوداً، وقلّما كنتم تحصلون عليه، كأنكم قاومتم العطش بالملح، كما يقاوم السمّ بالترياق. ومرَّت عليكم سبعٌ عجافٌ، ينبتُ الزرعُ، وتخضوضرُ به الأرض، فيأتي الجراد ويذرها قاعاً صفصفاً، ولجأتم إلى والي حلب دون جدوى، وفي العام الثامن غطى الزرع بعض وجه الأرض، ونفوسكم قانطة تنتظرون الجراد، كأنه بات قدراً.!. ولم يخلف الجراد موعده، فذهبتم هائمين على وجوهكم، إلا رجلاً، خرج بولده وابنته الوحيدين، وأطلقهما في حقله، مقسماً أن يقتلهما إن تركا جرادةً في الحقل.!. وأعدَّ الرجل بندقيته، وشحذ سيفه، وجلس ينظر إليهما يهشان الآفة دون طائل، وهو يقرِّع نفسه على رعونته في قراره، وبدا له أن يقتل نفسه؛ فيخلص من عذابه ولا يحنث في يمينه. وكاد يفقد عقله، وهو لأيام خلت، لم يجد لولديه لقمةً، وقد باع ما تحته وفوقه، وأوصله اليأس إلى حالةٍ لا يعرف مرارتها غيره، وإذ الشمس تحتجب، فظنَّها غيمةً، فاستبشر هنيَّةً، ثم استدرك تشاؤمه مردداً:

-: وما الفائدة.!؟.

تحسس سيفه في غمده، وتقدم منهما وإصبعه على الزناد، لكنه ذُهل لمرأى طيور اللقلق تحطُّ من حوله آلافاً مؤلفةً، تلتقط الجراد، فلا تبقي منه شيئاً ولا تذر، كأنها تفتدي ولديه، فضمَّهما إلى صدره جاحظ العنين، رانياً إلى السماء مردداً:

-: {ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون}.

وتذكرتكم الدولة العليّة، فأرسلت إليكم الجندرمة ومحصّل أموال الولاية، فلم يبق لكم سوى الخُمس وأنقصه قليلاً، وتذكرتكم الأستانة وأوار الحرب الكونية الأولى مشتعلٌ، وأخذ جلاوزتها رهطاً منكم وأنت فيهم، وساقوكم إلى اليمن والترعة، وإسحق صاحب ضيعة "القرباطية" يدلّهم عليكم حيثما اختبأتم، وسحبوا

الفتى مراداً، فترك ماشيته في شعب الجبل، وأوعز إلى كلبه الأسود أن يسوقها إلى داره، وقد فعل، وقدّام الدار نبح وهرَّ هريراً متواصلاً، فقالت حبيبة الفتى:

-: شرٌّ أهرَّ ذا ناب.!!. سترك يا رب.

وفي الموعد ذاته ولثلاثة أعوام، كان يأتي فينبح ويهرُّ، فتبكي المرأة ابنها المغيّب فتطعمه وتسقيه، وزوجها يخلصه من دويبات القِردان ويفليه منها قُرادة قرادة، والرجل يطمئن زوجته بقوله:

-: ما دام الكلب يأتي في الموعد، فابنك حيٌّ يرزق يا امرأة.

وظلت المرأة والفتاة تنتظران الفتى أو كلبه، لكنه في العام التالي لم يأت، فنظرت الفتاة جزعة، إلى أمّه المفطورة الفؤاد، ونظرت هذه إلى زوجها وجلة، فأشاح بوجهه، وولج الإسطبل، فبكى حتى صغار رأسه، وهو يمسّد على جيد مهرة الفتى، وخرج واجماً وأتى إلى هنا، فوضع رجم حجارة كالقبر، ثم عكف يزرع التين والزيتون والعنب، تلك الفاكهة التي أحبها ولده، وظل يسقيها بدلاءٍ يحملها من بئرٍ بعيدةٍ عميقةٍ شحيحةٍ، إلى أن أثمرت لسنوات، ثم عطبت ويبست دفعة واحدة.!!. وبعد سنين طويلة رأيتُ بأم العين بعض جذورها باقية. وعدتَ بعد لأيٍ، فاراً برأسك من جحيم حرب العثامنة الخرافية بخسائرها، فاقداً صوتك إلا من بقية لا تتعدى حدَّ الهمس، وذلك بتأثير البارود؛ وحرائق حربٍ مستعرةٍ؛ ثم البرد والعلل، ورؤية الموت عن كثبٍ بأمِّ العين- كذا مرة- ووصلت ديار أهلك، وعليك مزقٌ من خيشٍ وبقايا رقعٍ من سترة، هيئتك تبعث الوجل، ورائحتك تزكم الأنوف، مثل رائحة قطيع تيوس بريّةٍ، قروحك تنزّ، وصديدها جفَّ وتقرفع على جلدك المنكمش، وقدماك متفدِّعتان مثل تُلمٍ في كعوب خوابٍ سومريّةٍ.

وحين كنت أفرك ظهرك في الحمّام قبل الصلاة أيام الجمع، مقابل أن أسمع منك حكاية، كنت أرى ندوباً وآثار جروحٍ، وبقايا أماكن دمامل. مشيت طويلاً، وزحفت، وأيضاً تدحرجت في جبال اليمن وعسير والحجاز ومفازات النقب، وقطعت الفيافي والقفار، أكلت ما لا يُؤكل، وشربت ما لا يُشرب، وعانيت من القمل والجرب، كنت تحكُّ وتهرشُ حتى تقطر أظفارك من دمك، هدَّتك الهيضة وذبحك العطش، وفي صحراء النقب رأيت جماعة تتزاحم على ذبيحة، فغامرت واقتربت حابياً، وفي حَبْوك ذلٌ وانقهار، واختلطت بالجمع مستقوياً ببعض "المجيديات" الفضيّة؛ مما وجدته مع مزق قتلى من كل حدبٍ وصوبٍ، وكدتَ تموت لو لم تتماوت بين الجثث، وتتمرَّغ بالدم وتقطع الأنفاس،

وهم يجولون بينكم بحثاً عن أحياء، وتحمّلت غرزة "السنكة" بين كتفيك، ورفسة "البسطار" بين فخذيك، وهالك أنهم توازعوا لحم حصان أطلق عليه صاحبه- بعد يأس- رصاصة الرحمة، حاولت الحصول على مقدار وجبة أو لقيمات، فالموت جوعاً يسحق أحشاءك، ولا أحد يهب قوتاً يدفع عنه الموت ليتحنن عليك، وانصرفوا إلا واحداً، ظلَّ حذراً منك، يقضم قضيب الحصان وخصيتيه، ساومته فأبى، والدم يتقطر من بين شدقيه، وظلَّ مقرفصاً يقضم وينظر إليك كذئب، ثم ملَّ مما لا طائل منه، فأعطاك ما تبقى مقابل "مجيديين"، فكسب مجيدياً، وتلقفت الغنيمة، ومضغت ولكت ما لا تطحنه أضراس ضبع، حتى أنهكت فكيك، فإذا بشبحٍ شيّأه الجوع، يطلب ما تبقى، وأعطاك حفنة مجيديات، وقد التقيتما بعد ذلك بسنوات، وشهدت ذاك اللقاء، ولم أنسه، فقد ذهبتُ إليه مراراً في ضيعة (الأحمديّة)، من أعمال ناحية "دير حافر" فحدّثني "الحاج نعسان" عما عانيتما في الحرب وفي الطريق، فتطابق كلامكما تماماً، وأنك في الناصرة رأيت "نتيفا" وبعض صحبها، وحين بُهِتَّ وأنت تتأكد، عرفوك فلاحقوك، فتخفيت، وسمعتهم من مخبئك يحث بعضهم بعضاً للقبض عليك، فقد تفضح أمرهم، أو يتبادر إلى ذهنك تفسير بعض ما جرى، حين تسايرتم في طريق تهجيركم وتهريبهم عبر الأناضول، وأنت ابن ضيف الله، وقد كاد أن يكشفهم وقتذاك، وتخلّصت منهم بأعجوبة بلجوئك إلى ضيعة "الريحانية" ثم "الجاحولا". ها إني قد أفرغت شحنة صدري، وسأعود للتو إلى خلف الفرات، ويؤلمني أنهم يهددون بخنقه؛ كما لجموا "قويق"، وإنهم يذكّروني بما فعله بكم "عصمان" ذاك الضابط العجيب.

وما زلت أذكر أنني سألتك:

-: أيموت الحق.؟.

أجبت:

-: روحه في دوام ذكره، وإلا فإنه والميت سواء.!.

ولمّا تزل حكايتك عن حصان طروادة ملء السمع، وأنت تكرر قولك كلما ختمتها:

-: مصائب البشر تبدأ على أيدي الجواسيس.!. وإنني إخال عناكبهم تنسج بيوتاً تصل بين ما آلت إليه أرض الزيتون، وبين إقامة دوله الخزر الحلم.!. وإخال الأديب الناحر نفسه بقلمه، يتحين فرصةً سانحةً، ليضع على قحف رأسه قلنسوة "اليرمولك، أو يعمّد هامته بقبعة "الكيبا" فتكتمل قيافته، ويلج عتبات

الألفية الثالثة، في ركاب أصحاب النفوذ والقوة، منفقاً ثمن فعلته في حياة ماتعة.!!.

وفي أواخر أيامك أظهرت حنيناً عجيباً، خصصت به تلك الضيعة الجميلة من أعمال قضاء صفد، وكنت تتوقف طويلاً.. طويلاً بحديثك عن عائلة آوتك وحمتك، وأوصلتك إلى وادي اليرموك، لتعود إلى أهلك في حلب، وأن إحدى بنات تلك العائلة قد أحبتك. لم تقل لي إن كنت قد بادلتها الحب، لكنني فهمت الكثير مما لم تصرّح به، وقد أكّدتَ غير مرةٍ؛ أنَّ تلك القرية "قدريةً"!!، وأن أحداً من دمك إما أن يسكنها أو يموت فيها أو يعشق منها.!!.

إن كنت تسمعني فإني أبلغك؛ أن ذلك قد حدث، وقد صدقك حدسك، فهل كنت تستشف جريان دماء أسرتك.؟!؟. حديثي حميمي؛ لم يتهيأ لي أن أبوح به لغيرك، فهلاّ سمعتني وعرفت ما حدث لي مع الأميرة الصفدية.؟. إنه غريب عجيب مهيب، ليس يختلف كثيراً عن حكاية المرأة قمر.!.

2

-: **القارئون** والذين يكتبون، هم الأخطر، وإنك تفهمني.

-: بالتأكيد.

-: فأين تريدها.؟.

-: موضع القلب.

اتخذ وضعية الرامي واقفاً وسدّد، دوّى انفجار حشوة الطلقة، فشهق الأول وسقط رأسه على صدره، وعضَّ الثاني على لسانه لافظاً أنفاسه، وانبجس دم الثالث من فمه، وتتالت قطراته، تخثَّرت واحدة، والتصقت بها أخريات، يتدلين من رأس الأنف ومنبت الشاربين، كقطرات ماء ميزاب جمَّدها الصقيع.

وهاج الناس أسفل الهضبة، وعلا احتجاجهم وعويلهم الجماعي، فأومأ الضابط آمراً، فأطلق عسكره عشرات الطلقات؛ فوق الرؤوس، فساد صمت مقهور.

نفث زفرته بعد احتباس، وأمسك بندقيته من منتصفها، وطوّح بها في الهواء، فتلقفها العسكري طاوياً عليها ساعديه، وضمَّها إلى صدره، كبعض واجبه نحو سلاح سيده، وهو يكتم خوفه ولهاثه، باذلاً ما يمكنه لإظهار افتتانه بالضابط الممتلئ غطرسة، مخفياً اشمئزازه بما أوتي من قدرة على إخفاء حقيقة مشاعره؛ التي درّبوه جيداً كي ينساها، فإن لم يتمكن.. فليُجِدْ تناسيها، في لحظاتٍ عصبية كهذه.

أومأ الضابط ألكسندر برأسه إيماءة خفيفة لكنها جازمة، فأسرع العريف نحو الجثث، تفحَّصها ثم استدار مهرولاً وأدى التحية معلناً أنَّ أرواحهم قد فارقت أجسادهم.

انفرجت شفتا الضابط عن أسنان كستها طبقة كالزنجار، وكادت ابتسامته المتوترة تفضح اضطراب دواخله، وهو يجهّز لفافة تبغٍ، ما لبث أن دسَّها بين تينك الشفتين اللتين اكتستا بلونٍ برتقاليٍّ كامد، فأسرع العريف يقدح زناد قداحة الفتيل، وأدناها من لفافة سيده، فاشتعل رأسها وهو يمجّها مجّاتٍ متتالية، ولم يك الضابط عثمان منبسط الأسارير؛ ليس لأن الناس شتموا ألكسندر والقيصر، أو لنيلهم من أبّهة السلطان ودولته العليّة؛ إنما لتلك النتيجة التي حققها مراهنه في دقة التصويب. وبرغم ذلك كتم غيظه، وأمَّنَ على حسن إنجاز الضابط الأبرص، ودفع بإبهامه قطعة ذهبية، مشكّلةً قوساً في الهواء، انتهى باستقرارها في كف ألكسندر، فنظر إليها بشغفٍ، ودسَّها في جيب سترته فوق موضع القلب، بينما عسكره يفكّون الحاجز الخشبي، الضاغط على صدر القتيل الأول، وظهر القتيل الثالث، والحاجزين اللذين يحبسانهم عن يمينهم ويسارهم، بينما الضابط عثمان يجهِّز بندقيته بصمت مطبق، كما كل ما على الرابية، بعيداً عن المنخفض، حيث جموع غير واضحة المعالم؛ بدت كقطيع وعول أرعبه التفاف ذئاب حوله، وأرهقه حصارها، وثمة همهمة سرت وتصاعدت فوق الناس، تظللهم كمزق غيومٍ تائهة؛ ومثل الغبار حين يعلق في الفضاء بين الأرض والسماء، فلا يتحرك وقد سكن من حوله الهواء.!.

وحين أنهى عسكر ألكسندر إبعاد الجثث، تقدم "الأومباشي" محيياً رئيسه؛ منتظراً أوامره، فأوجزها بكلمة:

-: أربعة.

ثم التفت إلى الضابط ألكسندر مردفاً:

-: ما قولك إن أتت رصاصتي في صفن كلٍّ منهم.؟.

لم يصدق الأومباشي ما سمع، فلم يدرِ ما يفعل، همس لنفسه مدهوشاً:

-: أر.. بعة.!!.

كرر ذلك، وفرد من كفه أربع أصابع، ونظر إليها يعدّها، وقد ازداد ارتباكاً؛ لا يدري إلى أية جهة يتجه، غير متأكد إن كان أُصيب بدوار، أم أنَّ ما سمعه ليس حقيقة.!؟.

أما ألكسندر فقد علّق:

-: عقوبة مبتكرة، لن يفكر أحد بعدها بإثارة القلاقل.

قهقه عثمان مغتبطاً، واختزل ضحكته فجأة، آمراً بحزمٍ وصلفٍ:

-: أومباشي... هات الستة.

نظر ألكسندر إلى عثمان نظرة المتيقن من خسارة هــذا المغتــر، فبادلــه عثمان نظرة تقدح تحدّياً، لم يرجف خلالها له جفن، وسأل:

-: حسبت لك ثلاثة عاقّين بذهبية، فبكم تحسب لي ستة أوباش.؟.

ظلَّ ألكسندر صامتاً، ثم لوى شفته ولم يجب، تحسس جيب ســترته فــوق موضع القلب، ونفض رأسه غير مستقر على ردّ، لحظتئذٍ حاول الضابط عثمان استفزازه:

-: لن أتوانى عن تعفير سمعتك بالتراب أمام العسكر؛ إمّا برحت ساكتاً.

مدَّ ألكسندر نظره إلى المدى، وزاغ بصره، فرأى تلك الأجساد تتحوّل إلى ما يشبه جذوع الشجر- وقد ساهم باقتلاعها- تتزنر بجذورها، فتتكســر عليهــا "بلطته"، وتتشظى متناثرة، ثم تتناسق كرؤوس الرماح منجذبة، كأنّ مغناطيســاً باغتها، وألصقها بجبينه، فخدشته كوخز الإبر، فنبس:

-: "عصمان"... هذا جنون.!.

كزّ عثمان فكيه ساحقاً كلماته بينهما:

-: ألكسندر تأدّب.. قل بكم تحسب لي قتل ستة برصاصة واحدة.؟.

-: بالذي تطلبه.

-: عشر ذهبيات وامرأة.

-: وإن خسرت.؟.

-: لن أدعك تصيّرني قوّاداً.

ثم سدد وضغط على الزناد، ابتسم ألكسندر بعصبية، وهرول الأومباشــي والعريف نحو الحاجز، وعلا العويل من المنخفض وارتفع. بينما كلا الضابطين يمضغان أعصابهما، حتى تقدم الأومباشي مؤدياً التحية صائحاً:

-: تمام أفندم.

زمجر ألكسندر مستفسراً:

-: ما واقع الحال أيها العريف.؟.

-: سيدي.. كلهم أموات.

قهقه عثمان متشفياً، وعلا صوت ضحكته طاغياً على المكــان، وامتــزج

بذاك الهسيس الآتي من المنخفض، وانصرف العسكر ينقلون الجثث، وأخطأ ألكسندر العدّ؛ مفضلاً لو خسر عشرة من عسكره دون هذي الذهبيات، وظلَّ يردد:

-: غير معقول.. لا أصدق.!.

وانبسطت كف عثمان أمام وجه ألكسندر، والتقت خرزات العيون، بينما الذهبيات تتساقط في كف الرابح، وأثناء ذلك كان العسكر يسلبون حصان أحد القتلى من صديقه الفتى، سحلوه وقد تعلّق برسنه، وأوجعوه ضرباً بأعقاب بنادقهم، حتى كاد أحدهم يطلق عليه النار؛ لولا ارتماء أمّه فوقه، وبقي جاثياً قبالتها يكاد غيظه يفلقه، وأخته تحتضنهما، فهمس وعبرة بكاءٍ تخنقه:

-: قتلوه وسلبوني حصانه، هل تفهمين معنى ذلك يا أمي.؟. أتدركين شناعة ذلك يا أختاه.؟.

طبطبت على كتفه ووقفت آمرة:

-: قم.

مسحت أخته جبينه، وفي صمتها توسّل بليغ، وقالت الأمُّ:

-: إنك آخر رجال العائلة، فلتدرك ذلك جيداً.

ومضت مثل نصف إلهة، فهتف الفتى:

-: لكنه ابنك بالرضاعة.!.

توقفت هنيّة، ثم استدارت مخاطبة ابنتها دون أن تنظر إليه:

-: آية.. تعالي، وليتركنا إلى حزن عظيم وضياع؛ إن كان يحسب أنني أرضعته من قربةِ ماء.

وتابعت سيرها واثقة أنها لن تزيد حرفاً، وتبعتها الفتاة متعثرة رانية إليه، وبقي مشتتاً، ينظر إليهما، ضارباً الأرض بكلتا يديه، متابعاً الحصان، متسائلاً:

-: أمعيب بكاء الرجال.؟.

شبَّ واقفاً بشموخ، وقفز عالياً؛ طاوياً ساقيه على فخذيه، وأسقط جسده على ركبتيه، وراح يغني مرثية، محدثاً بجلِّ أصابع كفه، أخاديد في التراب، بعدد من يذكرهم في مرثاته المغناة.

ودعا الضابط عثمان زميله الضابط كمالاً، وجلسا مع ألكسندر إلى مائدة فاخرة، في خيمة ميدانية، فتقدم كبير الطهاة وخلفه معاونوه، وحيّا الضبّاط برقةٍ

وكياسةٍ:

-: سادتي.. أتمنى لكم طعاماً كما تبتغون. لدي القلب فلمن أقدمه.؟.

-: لسيدك كمال.

-: والكليتان.. سيدي.؟.

-: للضابك ألكسندر.

قال مبتسماً:

-: أما "الظوظ" واللسان فـــ.. لك.. سيدي.

سُرَّ عثمان لنباهة كبير الطهاة، وأكمل معاونوه حوائج المائدة، ثم صـــرفهم بإيماءة، وبقي قائماً على خدمة سادته، منتعشاً لسرورهم، غير غافل عما يتوقع أن يطلبوه، فقد استلذ حذاقته منذ حين، فصارت غاية بحدِّ ذاتها.

وتذوق عثمان بعض الطعام، ثم رفع رأسه نحو كبيـــر الطهـــاة، مقوّســـاً حاجبيه، مبدياً رضاه، فانتشى وزاد نشاطه، واستأنف الضابط تنـــاول طعامـــه، وفي لحظة انتبه إلى أنّ كمالاً قد أسند رأسه على كلتا يديه، نـــاظراً إلـــى كـــل شيء، لكنه بدا كمن لا يبصر شيئاً.!.

-: إن لم يعجبك الطعام، طلبت لك ما تشتهي.

-: دعك من الطعام، وقل لي: كيف قتلت ستةً برصاصة واحـــدة.؟!. ألـــم نتدرب على السلاح ذاته؛ وتخرّجنا في كليّةٍ واحدة.؟!.

قسر نفسه على أن يكون هادئاً وقال:

-: كلْ.. فالطعام لذيذ، ولحم الحصان حلال.

هتف كمال بشيءٍ من التوتر:

-: لن أتناول لقمةً، ما لم أفهم كيف حدث ذلك.؟!.

علّق ألكسندر بصوت خفيض:

-: ما زلت دهشاً، أكاد لا أصدق.!!.

التفت عثمان إلى كمال قائلاً:

-: دعك من هلوسة خاسر الرهان هذا، واعلم أني اتبعت تدريباً مضاعفاً، أجزم أنه أكثر دقّة مما تلقيتماه معاً.

توقف ألكسندر عن مضغ لقمته، وبرد وجه كمال كمن صُبّ عليـــه مـــاء

متلّج، ففكّ عثمان بعض اللغز إذ قال:

-: قد استخدم ألكسندر طلقةً مثل سائر الطلقات، أما طلقتي فخاصة جـــداً، ولعلّها خاصة بالمستقبل المنتظر.

تسرّع كمال سائلاً:

-: ما الذي تعنيه.؟.

فكّ أزرة سترته عن بطنه، وأشعل لفافة، تلذّذ منها بثلاث مجّات متعاقبات، ثم تجشأ معلناً:

-: لم تثبت لي بعد، إلى أيٍّ مدى يمكنني أن أمنحك ثقتي، أكثر مما أمنحها لكبير الطهاة هذا.

قال كمال متغاضياً عن الإهانة:

-: كلامك ألغاز، وأنا لا أحبها، فهلا أوضحت.؟.

ابتسم عثمان بفتور وقال:

-: لا بأس.. سيتركنا ألكسندر عما قريب، عندئذٍ ستكون موضع اختبار.

ضحك ألكسندر باقتضاب، وعلّق محاولاً تخفيف التوتر:

-: يظهر أن في الأمر دعابة ظريفة.

ردّ عثمان وهو يطفئ لفافته، ويستأنف طعامه:

-: كلْ أيها الأبرص، فالأمر أكبر مما تتخيل، ولو ضمنت تواصلاً بيننـــا، لأخضعتك أنت الآخر لامتحانٍ.

-: فمن ينجح تتفضل عليه بسرِّ الطلقة.!.

هزَّ عثمان رأسه بالإيجاب، ودمدم وهو يمضغ لقمته، وقال كمـــال وهـــو يتناول لقمته الأولى:

-: باقٍ معك ولو في جهنم، لأعرف ما تخفي.

ضحك عثمان حتى غصّ- أو أنه تقصد ذلك- وأسرع إليه كبيـــر الطهـــاة بماءٍ، شرب ثم تجشأ، ومسح فمه ومسَّد شاربيه ليقول:

-: لعل رهاننا اليوم- يا عزيزي ألكسندر- كان تدريباً ممتازاً.

ابتسم ألكسندر بمكرٍ معلناً:

-: حربنا التي لم تنقطع ضدهم، كفتنا تدريباً شائقاً وشاقاً.

ثم ضحك وتنهد مطرقاً، كأنه يغرق في ذكريات ما زالت تحزُّ في نفســه، وعلّق كمال:

-: أثخنوكم جراحاً، فخسائركم فادحة.

ردّ ألكسندر بأنفة تخفي حقيقة مشاعره:

-: ليست بالحسبان إذا ما قيست بما غنمناه من أرضهم.

احتجَّ عثمان مراوغاً بخبثٍ:

-: فضلنا عليكم لا يُنكر، والغنيمة لكلينا أيها الأبرص الشريك.

فوجئ ألكسندر فهزَّ رأسه، ثم ضحك مجاملاً بلــؤمٍ، واختصــر ضــحكته ليقول هازئاً:

-: ذكّرتني بواليكم "بطال باشا"، حين نهب منهم ثمانمئة كيس ذهبٍ، ولجأ إلينا، فاعتبرته دولتكم العليّة خائناً، وحين تدخلنا لصالحه، عفوتم عنه.

-: وعيّنته دولتنا العلية والياً على "طرابزون". هل في أقوالكم مثل قولنــا: الدّم لا يُصبح ماءً.؟.

قلب ألكسندر شفته غير متأكد وقال:

-: لكلينا ما يعتقد. أما اتفاقنا على تهجيرهم، فقد كان سرِّياً بمرتبة قانون.

ردّ عثمان:

-: يالها من أرضٍ لا شبيه لها.!!. ألا ما أغــرب أن يكــون لمثــل أولاء الرعاع مثل تلك الأرض؛ وهناك شعب فذ بلا أرض.!!.

-: كان فرماناً رهيباً. "من أراد البقاء في وطنه فهو بحكم أسير حــرب.". أخفناهم، فهم يرون الموت أهون من الأسر، ضغطنا عليهم بكــل الســبل كــي يتركوا أرضهم.

-: يا لكم من أفظاظ.!!. ألا ترى كيف نهجّرهم لنخلّصهم من فظــاظتكم، مسهِّلين لهم النفاذ بجلودهم.؟!.

ضحك ألكسندر، ثم انفجر عثمان ضاحكاً، وأظهر كمــال تبرّمــاً، وقــال ألكسندر:

-: ليتنا ننهي الاستلام والتسليم بأسرع ما يمكن.

-: كأنك مللت صحبتنا.!!.

-: ... إنما بودِّي لو احتفلت برأس السنة- ألف وتسعمئة وسبع، بين أهلي والأصدقاء.

-: لعلك قصدت الصديقات أيها الأبرص، إ.. يه.. أنا أيضاً في حاجةٍ إلى الاسترخاء، وتأمّل ما سيكون.

أنهى قوله وخرج من الخيمة ضجراً، فتبعه ألكسندر وكمال، وقفوا على أنف الرابية؛ عند طرف المنحدر؛ قرب الحاجز المقام على عجل، تنفسوا الهواء المحمّل برطوبة الليل، متأملين المنظر أمامهم وستر الليل مسدول، يلفّ المكان بعتمة لا تبددها سوى أضواء النيران التي أوقدها الحرس هناك.. وهنالك، حول جموع الناس في الوهدة والمنخفض، وثمة موسيقا تصلهم كأنغام جنائزية.

سأل عثمان دون أن يلتفت إلى ألكسندر:

-: ألا قل لي، كم فرداً منهم سأستلم منك.؟.

-: لن تستلم أفراداً بالعدد، إنما على شكل أسر، وانتبه إلى مكرهم، فهم يتخاطبون بأسماء عائلاتهم، وقد لا تعرف أسماءهم الأولى.

-: سنرى كيف نحول دون مكرهم.

سأل كمال:

-: أحقاً قتلتم ثلاثة ملايين منهم.؟.

-: كان يجب القضاء على نصفهم، كي يتوقف نصفهم الآخر عن مقاومتنا.

-: ما زال الكثير منهم رهن مناجل الكوليرا والملاريا والجوع.

-: لا أحد يحمّلنا تبعة ذلك، إنها مناجل الغيب وإرادة الرب.

تمتم عثمان بحقدٍ:

-: أمرهم عجيب.!. يموتون وهم يتمتمون بالشهادتين.!.

همس كمال بصفاء:

-: الله..!.

قال ألكسندر:

-: على الرغم مما حدث، أستطيع الاعتراف بشجاعتهم، فقد دافعوا عن أرضهم حتى استنفدوا قواهم.

-: متهوّرون.

وكانت أنغام الموسيقا، ترافقها أصوات جماعية تتابع المنشد بانسجام:

-: (مع أننا خسرنا الكثير.. فلن نخسر إنسانيتنا أبداً.).

تمتم كمال:

-: منتهى الرقيّ.. لله درّهم.!.

علّق عثمان على تمتمة كمال:

-: لو خلعت بذتك العسكرية، وصرت إمامهم في هرطقاتهم.

-: كأنك لست على دين دولتنا العليّة.!!.

-: بلى.. وكيف لا أكون.!.

استرق كمال إلى عثمان نظرة استهجان وعدم ارتياح، ولاحظ عثمان ذلك، فتحرك متثائباً، محاولاً التخلص من حرجه، ودعاهما إلى أن يناما، فالعمل المقرف ينتظرهم صباحاً. مضى كمال مرتاباً، ومشى عثمان حانقاً، فأوقفه ألكسندر بقوله:

-: إلى أين.؟.

-: سأحاول أن أنام.

-: إن فيك ما لن يدعك تنام. ألا تريد بقية ما لك بذمتي من رهان اليوم.؟.

تلكأ.. وأبعد عن صفنه ما علق به من سراويله، فاقترب ألكسندر منه لائماً:

-: أكنت تريد أن تتركني تحت وطأة المديونية.؟!.

-: أتعني ما تقول.؟.

-: ما تعوّدت النوم مديناً، لكني سأنالها قبلك.

-: موافق.

قالها غاصاً بلهفته، ثم وجد نفسه ضئيلاً؛ تحت نظرات ألكسندر، فحاول إصلاح ما أفسدته رغبته الجامحة نحو أنثى:

-: بل تكون لي أولاً.

ردَّ ألكسندر بلهجة داعر محترف:

-: إني أفيك دينك فحسب، وسأنالها قبل أن تفتر، لا سيما أنهم تحت

تصرفي، وحين يمسون بتصرفك افعل بهم ما بدا لك.

لم ينتظر اعتراض عثمان أو موافقته، فنادى العريف وأخذه هامساً، وعند باب خيمته، راح العريف يهرول، ودخل الضابط فلحق به كبير الطهاة، ووضع أمامه زجاجة؛ سرعان ما جرع منها جرعات متتاليات. نفخ زفيره بقوةٍ محاولاً إطفاء بلعومه، فألقمه كبير الطهاة ملعقة (كافيار) وهو يمسح عرقاً تفصّد من جبينه بتأثير الخمرة، وأشار إلى كبير الطهاة أن يجلس، فأبدى كياسةً، وأشار بيديه وحاجبيه، بأن ذلك لا يجوز، فأمره زاجراً، عندئذٍ جلس على طرف المقعد، ململماً جسده قدر استطاعته على التضاؤل، وابتسامته الودودة تنمّ عن عرفانٍ، لنيله شرف مجالسة سيده، الذي دفع إليه كيس التبغ، فتناوله بخفّة وحذق، وشرع يجهّز اللفافات، ويكوّمها قرب السراج.

وكان العريف ينفّذ التعليمات بدقة، فبدا الأمر روتينياً إلى حدٍّ كبير، فالأضواء قليلة والعتمة أعم، والأصوات تكاد تكون مكتومة، ما خلا أصوات تحركات الحرس وكلاب استنبحها عواء الذئاب، وضباح الثعالب من بعيد، ومجموعة الاختطاف تجوب المكان، منتظمة على هيئة دوريّة، تردع من تسوّل له نفسه مخالفة تعليمات العريف.

واصطحب العميل صديقه الفتى، إلى حيث يسليان نفسيهما، ويزجّيان ما أمكن من هذا الليل الطو.. يل، ثم أقنعه- وقد ابتعدا عن أُمِّه- أن يلبي دعوته لتناول الشراب في حضرة العريف، فذاك شرف لم ينله أحد من أترابه، وقد دسّا في شرابه ما أهجعَهُ، وراحا يحوّمان حول مرقد الفتاة وأمِّها، فلم يلحظا ما يريبهما، فهما تبدوان غارقتين في النوم.

لمحت الأمّ طيفهما غير متأكدة منهما، فداهمها هاجس جعلها تتحسس فخذها، حيث شدَّت إليه السيف قصير النصل، ثم تأكدت من غطاء ابنتها، بل اطمأنت إلى وجودها بجانبها، وأدارت رأسها- دون أن ترفعه- في كلِّ الاتجاهات، فلم ترَ واقفاً أو سائراً إلا الحرس، وذينك اللذين أثارا شكّها، حتى ابتعدا وأخفتهما العتمة. حاولت إصاخة سمعها، علّها تعرف لابنها مكاناً إن سمعت صوته، وأنّى لها ذلك وحظر التجوّل يضرم فيها القلق، ودون ترددٍ خمشت ساعدها، وذرَّت في الخدوش ملحاً، فسكنت وقلبها واجف وهي لا تغفو، وتساءلت:

-: (أتحسُّ الروح بشرٍّ يتربصها.؟.).

ليلة ليلاء تمنت انقضاءها، وإن كان النهار ليس بأقل منها عسراً، لكنه

يعني مئات العيون تحميها من قلقها، وإن لم تدفع عنهـا قـدراً لـيس يكتـرث بميقات؛ ولا يحفل بزمان، وأنّى لها بقناعةٍ أخرى، وهي مَنْ رأت من ويـلات السفر هذا وتلك الحرب، ما أوقد بياض ناصيتها، قبل أن تختم العقد الرابع مـن عمرها، تتفجَّرُ بنضج أنوثتها، وإن لواها الغمّ وشح اللقمة، فأصل جمالها بـاقٍ كشجرةٍ عطشى، وعيناها المحفوفتان برموش سرويّة، تحـدّقان فـي السـماء؛ تعوذان بها، لتخفف من ثقل ليلٍ بطيءٍ جاثم في جنبات روحها؛ لا يتزحزح ولا ينزاح، والخاطفون وصلوا إلى مقربةٍ زاحفين، تسمعهم إن همسوا أو تنفسوا:

-: (عليك مواجهتهم، فهل تقدرين.؟.).

(إنّه الخوف على منصته ينقلب إلى ضدّه، والتهـوّر يتجـاوز الشـجاعة، فالانتحار افتداءً آخر الحلول وأيقنها، وإنهم يقتربون، إنهـم يتأكـدون، وإنهـم يشبقون.).

-: كلتاهما تقصم الظهر، فأيتهما نأخذ.؟.

قال الآخر متهدج الصوت:

-: نأخذهما معاً.

زجره الثالث فاحّاً كأفعوان:

-: بل واحدة أيها الوبش، فالأوامر واضحة.

دنا أحدهم من (آية)، فكادت أمّها تشهق، ودنا الآخر منها فانغرزت شهقتها في حلقها.

-: فلنحمل هذه.

وأشار إلى الناهد. تحركت المرأة فزعة، فصالب أحدهم سيفه مع عنقهـا، همست:

-: ماذا تريدون.؟.

-: الكاعب.

-: احذروا.. إنها مصابة بالتيفوس.. بالـ.. إنها.

-: إذاً أنت.

كمموا فمها وسحبوها مبتعدين، دقَّ أحدهم حجراً بحجـر وانتظـر، أتـاه صوت مماثل، ووقف اثنان لاطيان في حفرة، عرفتهما فقالت:

-: لا ملامة عليك أيها العريف.

والتفتت إلى صديق ابنها ولفظت:

-: ما لهذا أرضعتك أمك.

زجرها العريف رافعاً سوطه، فأمسكته وقالت:

-: لا تكن فظاً، فلقد أتيت معهم طواعية، سلهم لتتأكد، قل ما الذي تبغه.؟؟.

-: سيدي يريد امرأة.

التهب رأسها واضطرب قلبها، أدارت وجهها خفراً، واحتدم المد والجزر بين رأسها والقلب؛ سريعاً مثل الومض، قالت:

-: أطمئن على ابني أولاً.

أمر العريف أحد رجاله أن يعيده إلى مطرحه، فاندفع الرجل إلى مهمته، دنت من صاحب ابنها، وقفت قبالته، بدا وقحاً، بصقت ملء فمها في وجهه، دفعوها ومضوا، والعميل فاغر الفم يدمدم:

-: ما دامت أتت إلى الفحش طواعية، علامَ تترفع الداعرة.؟!. كلانا بيّاع ما لديه؛ ومالفرق.؟!.

استلَّ من عنق حذائه زجاجة مفلطحة، كرع منها، ثم أفرغها في جوفه، فانتفخت أوداجه وجحظت عيناه، وقف وبال في الزجاجة بيلة مديدة حتى طفحت، وضعها جانباً ودمدم:

-: سأنتظرها فأنالها، وأحطم كبرياءها، ثم أسقيها محتوى الزجاجة فأهينها.

زهزق وحكَّ أنفه، عندئذٍ تذكّر أن يمسح البصقة، وخنخن بقوله:

-: فإن وشت بي فضحتها.. ولكن.!!.

ضرب الأرض بقبضتيه وتمتم: تباً للضعف.. تباً لقذارة القوة. ثم أجهش يشتم الدنيا.

{خرج أبوها إلى الحرب ولم يعد، قتلوه لا شك، لا تدري إن دُفِن أم أكلته الجوارح، ولما ساقوا زوجها وخيوله من المرعى، طال غيابه، ثم أعادوه جثة على حصانه، وحين همَّ أخوها أن ينزله، انفجرت بهما عبوة جعلتهما والحصان مزقاً، وتذكرت يوم لبَطَها أحد عسكرهم، فأسقطت جنينها وكادت تموت.}.

مرَّت الصور سريعاً في ذاكرتها، وهي تزحف بينهم مكبّلة، تحسست

فخذها وعدّلت موضع السيف، فللمعدن صوت غير ما لانسحال الجسد على الأرض، ثم صعدت الهضبة بينهم، ودخل العريف خيمة سيده، ودنا كبير الطهاة مبتسماً وهمس:

-: أدعي أني أمهر الطهاة قاطبة، وأطمع بمعرفة رأيك بما على المائدة، موعدنا صباحاً سيدتي الجميلة.

أشار إليها العريف أن تتقدم، وأزاح لها ستارة باب الخيمة.. (هوذا الخوف على منصته انقلب إلى ضده).. اقتحمت الخيمة مرفوعة الرأس، وقفت بين الباب والمائدة، اتساع عينيها لمَّ المكان وما فيه، فرأت كل شيءٍ دون أن تتلفت.

أنزل الضابط الزجاجة عن فمه مبهوتاً، وجهٌ لم يكن لمن عاشرهن مثل جماله!

وهذان الصفّان من سرو البحيرتين، رموشها والعينان، والقدُّ مثل شجرة ورد، والنهدان كالرمّان، والشفتان كستناء مشويّة.!. أهي كذلك، أم أنَّ الخمرة شاركته رسمها.؟. أو لعلّهُ انزياح الحرمان برائحة الندى، على غصنٍ كاد يجف.!.

-: تفضلي بالجلوس.

جلست قطعة واحدة.. (التهوّر يتجاوز الشجاعة، فالانتحار افتداءً آخر الحلول.).

-: كلي أيتها الباهرة.

-: (ولمَ لا آكل.؟. فقد تكون لقمتي الأخيرة.)

جدّد كبير الطهاة مائدة سيده الضابط عثمان، ووقف ينظر إليها ويسترق نظرات إلى وجه سيده، فاركاً كفاً بكفٍ، يتوسّل رضاه، ويتسوّل كلمةً تُرضي ولعه بمديح صنع يديه. سأله الضابط عن المرأة، فاغْتَمَّ ودفع طبقاً أمام سيده، ثم وصفها بأنها فرس، وهي مثل الكمثرى، لولا ضيم حاق بها، فذهب ببعض نضارتها، إلا أنَّها تبقى مقبولة لندرتها في مثل هذا الفصل، وفي مثل هذا المكان.

-: وصدرها.؟.

-: حمامتان ورقاوان يا سيدي.. دجاجتان.!.

صرخة ملأت الليل وهزّت سكونه. انحسر الدَّم من وجه كبير الطهاة،

حتى بدا ببياض قرص من الجبن الطازج.

جمدت عينا عثمان في محجريهما، ونسي للحظات من يكـــون.!. تفترســـه غرائز لا يعلم كنهها، كأنَّه لا يدرك علاقته بما حوله من الموجودات.!.

ابتعدت المرأة عن خيمة الضابط ألكسندر، دانية من حافة المنحدر، واندفع العريف من خيمة سيده كالمجنون، وأعلن أنه مقتول، صرخ بالعسكر والحرس، واستنفر الأومباشي عسكره، والتقى الجمعان كحذوة حصان، طوّقوها فصاحت:

-: قتلته وما دنّسني، وقد نوى.

واخترق الرصاص جسدها، واختتم العريف المشهد بطلقةٍ، ومثلـــه فعـــل الأومباشي، واستقرت رصاصتاهما في رأسها الذي كان جميلاً، وتدحرج الجسد من عل.

وزحفوا نحو الهضبة كطيور البطريق المهتاجة؛ والوعول المنتهشة، حينئذٍ تبخرت النشوة من رأس العميل، فأطلق مفتتاً القارورة ومشى.. أسرع.. ركض منادياً صديقه الفتى، ودفعه وأخته ليمتطيا الجواد، فلا وقت للحزن، وليهربا قبل أن يطولهما سوط العريف ورصاص عسكره.

-: هيا.. وستجد الأم من يقبرها، وإني منتقم لها.. أقسم.

ساط الحصان فعدا بهما خبباً، حتى إذا ابتعدوا وأخفاهما الوادي، تناول من عنق حذائه زجاجة مفلطحة؛ دلقها في جوفه دفعـــة واحـــدة، واعتلـــى رجمـــاً؛ مخاطباً الناس من حوله:

-: واثقٌ أنكم دافنوها، وقد وعدت الفتى أن أنتقم لها، وإني أفـــي بوعـــدي فاشهدوا.

استلَّ سيفه قصير النصل، وغرزه في موضع فؤاده، وسحبه مثـــل لمـــح البرق، ثم جثا ووضعه في سرَّته، وضغط جاثماً عليه، فارتفعت سترته وســـط ظهره مثل خيمةٍ، وانسحلت ركبتاه فاستوى منبطحاً، وارتطم أنفـــه بـــالأرض، وتعفَّر جبينه بالتراب، وبان نصل السيف، وقد اخترقه من البطن إلى الظهر.

3

استفاق عثمان من الوهلة وما زال في دائرة النار، رأى نفسه عقرباً؛ فيه من السمِّ ما يخلّصه من هذا المشوى؛ وذل الاحتراق محاصراً.

-: (ألمثل هذا تُعِدُّ العدة يا.. عثمان.؟!. سهلٌ أخذ الأمور على عواهنها، فتتصرف بما تقتضيه الحال، مثلما يتوقع المأفونون من حولك. لكنها ساعة طالما انتظرتَ مثيلاتها؛ لتسقي فولاذ شكيمتك، وما فتئت تخضعها للمحن، وتزجّ بها في امتحانات عسيرة، لتكون ذات يوم حجر قوس القنطرة، بها يظل البنيان قائماً، وبدونها يتزلزل. اخلع قلبك كما تخلع قفازك أو قناعك أو نعلك، وضع مكانه غاية الغايات؛ ودعها تضخ في عروقك ما يجعلك لا ترى سواها؛ ولا يشغل رأسك عنها شاغل، قم فقد آن الأوان، قلِّص ما استطعت أدوار مَنْ هم حولك، فالحكاية لم تزل بلا نهاية، وارم عصاك كما لو كانت عصا موسى، اقلب السحر على الساحر؛ واسحب البساط إليك، واجعل من مصيبتهم فوائد لك، تذكّرِ الوحوش والبهائم وخشاش الأرض؛ وكلّ دابّة عليها، واقبس من خصائصها، ولتكن ليناً وكاسراً، هيناً وهصوراً، ناعماً كفرو الأرنب، ومثل إبرة العقرب، افعل ما بدا لك، ولا تأبه بالوعوعة.).

دخل خيمة ألكسندر، وأمام الجثة انتفض جسده مقشعراً، كأنّ نخاعه الشوكي وُخِزَ فاهتزّ في قناته واختلج، لحظتئذٍ تخلّص تماماً من تأثير الحادثة، فاستفاق بكامل حواسه وأحاسيسه، واقترب من السترة على مشجبها، نبش جيوبها. أراحه التماع الذهبيات في كفه، وداس على الجثة قرب انغماد السيف فاقتلعه، وخرج به كمن أخرج ثعباناً من جحره، وألقى به كسهمٍ أمام العسكر، فأتى منغرزاً كالوتد، راقه ذلك، كأنه أنجز ما يحتاج لضابط بمستواه، قال:

-: عجلوا بدفنه في موضع خيمته، فلن يمكنكم العودة به إلى مسقط رأسه.

ترك المهمة للعريف، وأمر الضابط كمالاً أن يتولى على الفور تدريب العسكر، ليستعيدوا لياقاتهم، وأمر الطهاة أن يزيدوا جعالة العسكر، وأعطى الأومباشي صلاحية إطلاق النار على ما يريب، ثم ضغط على صدغيه ومضى مفكراً، فالأمر قد تفاقم، والحنكة تدعو إلى تطويقه، واستتر بالحادثة وعقابيلها، وجعلها هاجس مَنْ هُم حوله، أما هو فلم يعهد أعصابه باردة وبهذا الهدوء، وطفق يضع ما يدور في رأسه موضع التطبيق، فشجّع الألسن أن تلوك سمعة ألكسندر، غير آبهٍ باستنكار العريف لما يلقاه وجنوده من ازدراء، وتركهم في حرجٍ بين نارين، نار فعلة كبيرهم، ونار عجزهم عن إيقاف عجنهم جميعاً في الإناء ذاته، وأنَّ ثلمة سمعة الرجل في المال أو النسوة، وأهْبَطَ مقتل الضابط، إلى مستوى لا يتعدى موت نفرٍ بالهيضة، ولم يشارك بمراسم الدفن، ولم يسمح لأحدٍ من عسكره أن يكون قريباً من المكان، وانقطع إلى نفسه كقائد؛ وهيئة أركان؛ وبدل قادة الميدان، كأنهم مختزلون في شخصه، يرسم لمرحلة على الأبواب، وحسب أسوأ الاحتمالات، ومرامه إبعاد شكّ الناس به، ورفع عتبهم عنه، وتبرئة نفسه مما حدث، واغتنم الفرصة فقدّم العزاء بالمرأة، مشيداً بموقفها دون شرفها، وأمر بشاهدة حجريّة على قبرها تبجيلاً لطهرها العفيف.!.

-: (ما هذا يا عثمان.؟!. ألم تنتظرها وأنت تتقطر شبقاً.؟. أم أنك صيَّرتها جسراً لغاياتك.؟. من أي وحلٍ جُبلت.؟. وما الذي بينك والشيطان.؟.).

كانت صورة أمه تملأ فضاء خياله، ولا شيء سوى طيفها، وبالأخص وقت احتضارها، وقد ألحّ عليها أن يعرف له أباً قبل فوات الأوان، قالت:

-: {أحد ثلاثة في الآستانة ويلدز، قدّر تضحيتي من أجل تحقيق أسطورتنا، وانسَ يا بني، فأنا أمك وأبوك.}.

وحين أُنبئ بهرب ابنها وأخته، اهتصر حنقه وكتم غيظه، متغاضياً عن الخبر، لكنه جعل الإعدام رمياً بالرصاص؛ عقوبة الحرس إن تكرر هرب أحد، فصرامة العقوبة غطت على تهاونه، ومرق قصده سهلاً، وارتأى أنْ يتّبع الردع الإقناعي المبطّن، بدل القمع الشرس، فاستدعى الشيخ الإمام مرافق السفر ومفتي المسير، وزايد عليه إلى حين، وباعه مما في جعبته، كأنه يأتيه باجتهاد مسند، والإمام يهزّ رأسه موافقاً، وإن يكن على مضضٍ في بعض الأحايين، لإدراكه أنه مسخّر للخدمة، وما هو وكل هذه المعمعة إلا وسيلة لغاية قد لا يدركها تماماً، إنما يستشف أهميتها من مرتبٍ خُصص له؛ يفوق ما يتقاضاه الضابط كمال هو والأومباشي معاً، فيقول ما يريدون حين يريدون، ينحت

ويقيس ويختلق، فيزيد مكانته ثباتاً، ويحافظ على حاجتهم إليه، ويكرّس ضرورته للناس على أنه علاّمة جهبذٌ، ورأى في إذعانه لطلب الضابط خيراً ومثابة، فأقام صلاة الجمعة في العراء، فخطب لعثمان ومدح الدولة العليّة، ولم يفته ذمّ ألكسندر، فأدّت الواقعة إلى تعجيل عملية التسليم والاستلام، وكوّنتها كما يرغب، فغنم منها ما لم يكن يحلم به لو تمَّ الأمر مع ألكسندر، الذي كان سيقاسمه محّ البيضة وقشرتها.

وبأمرة العريف لَمَّ العسكر حاجاتهم وعتادهم، وجهّزوا عرباتهم والدواب، وأضحوا مستعدين للتحرك، برغم تغافل الضابط عثمان عن تأمين دليل وحامية، وكان ردّه أن يسلكوا الطريق ذاتها، وأن يستخدموا سلاحهم في حماية أنفسهم، بدل استخدامه في اصطياد الثعالب والأرانب، إذ جمعوا من جلودها أحمال ثلاثة بغال، سيبيعونها لنساء أغنياء الحروب وأثرياء سدنة الحكم هناك في "المسكوف"، وربما وزّعوا بعضها على عشيقاتهم.

أبلغهم ذلك بازدراء، ومضى إلى حيث يتابع الضابط كمال تدريب العسكر.

طغى حنق العريف، فامر السدنة بتجهيز المدافع الثلاثة، وأوعز بأن تُلقَّم البنادق، وخاطب عسكره بأنهم سيودعون كبيرهم بتحية لائقة، فاصطفوا نسقين خلف المدافع بوضعية الرمي وقوفاً، وتأكد من الجاهزية، ووجّههم ناحية المنحدر، ثم صاح:

-: نا..ر.

غبار ونيران وقتلى ورعب وجرحى، أجساد ممزقة ودماء.

مفاجأة لم يتوقعها الناس، أخذتهم على حين غِرّة، وزادت محنتهم بؤساً.

أمر العريف بإعادة تعمير السلاح، ثم توجّه إلى مرقد الضابط ألكسندر حيّاه قائلاً:

-: ذلك مقابل قطرة واحدة من دمك النبيل.. الوداع سيدي.

ثم أعطى أمره صائحاً بعسكره:

-: أما..م سر.

وحين كاد يغيّبهم الأفق، ظهر عثمان على حصانه فوق الرابية، وراح يرقب الأفق والمنخفض وهمس:

-: يا لك من عريفٍ فذ..!. لو كنت من عسكري لمنحتك رتبة (ضابط

شرف) على الفور، ثم أعدمتك رمياً بالرصاص دون تردد. وأمر الأومباشي أن ينزل بكوكبة إلى أولئك، يبلغهم استنكاره، ويقدم باسمه العزاء بالقتلى، وأن يوزعوا عليهم العدس المجروش ودقيق الذرة، وتوجّه إلى قبر ألكسندر، وخاطبه قائلاً:

-: ها قد نمت نومة أبديّة، فاعلم أني سعيد بأنك ما زلت وستظل مديناً لي أبداً أيها الأبرص.

حينئذٍ وصل كمال على رأس العسكر منهكين، فمشى عثمان أمامهم قائلاً:

-: فعلة نكراء اقترفها ذاك العريف الوغد..!.

ومضى إلى خيمته، مشيراً لكبير الطهاة أن يلحق به. وكان كمال يرصد المشهد، ويتابع العريف وعسكره، وقد أمسو "خربشة" سوداء على الأفق البعيد، وتفجّر اشمئزازه عاصفاً بوجدانه، فانحدر مسرعاً، وهو يفكُّ أزرة سترته، فلحق به بضعة متحمسين صائحين:

-: الله.. أكبر.

خرج عثمان من خيمته على عجل، واستوعب ما يحدث، فاهتزّ غضباً وصاح:

-: ارجعوا فوراً.. أمرٌ عسكريٌّ.

توقف كمال هنيّة، وجمد العسكر ونظرهم موزعٌ بين الضابطين، وتفكيرهم مشتت بين الحَمِيَّةِ والأمر، فقذف كمال سترته، ومضى نازلاً يكاد يتدحرج، عندئذٍ أطلق عثمان طلقة من غدّارته وصاح:

-: الموت لمن لا يعود حالاً.

صعد العسكر الواحد إثر الآخر، مثل طيورٍ تكسَّرت أجنحتها، وادّرأ كل منهم بالآخر، يلوذ بعضهم ببعض، تكويهم نظرته الملتهبة، وطفق يفرقع السوط قدّامهم، ويسوطهم حيثما اتفق، وأمرهم أن يحفروا خندقاً أعمق من أطولهم قامة، حول قبر ألكسندر، وعاد إلى خيمته، يضرب الهواء أمام وجهه صارخاً:

-: إليَّ بالطعام يا كبير "العكاريت".

وحين عاد الأومباشي على رأس الكوكبة، أسرَّ إلى سيده بما سببه العريف من كارثة، وقرأ على وجهه عدم رغبته سماع المزيد، فأدار دفة حديثه إلى ناحية توقع أن تسرّ الضابط، وهو الذي خبر العسكرية ورجالاتها، أوليس

أومباشياً.؟!.

التهم الضابط جلّ الطعام ووجهه طافح بالسرور، والأومباشي مسلّم بواقع الأمر، وعليه التحدث بما يفتح شهية هذا الشره الأكول، ليتلذذ بأطاييب الطعام، ووشى بما تناهى إليه، من أنَّ زعّارة سيلحقون بالعريف وعسكره، وقد أقسموا على الانتقام. انتفض سائلاً إن كان فتاهُ بينهم.؟. فأكد الأومباشي أنه ليس معهم، فتنفس مرتاحاً وعاود التهام الطعام، وأمر الأومباشي بالإشراف على استكمال عقوبة أولئك الذين غرّر بهم كمال، فمضى يلعق لعابه وقد سال غير مرةٍ، متشهياً تذوق لقيمات، وابتعد متسائلاً عن تعلّق الضابط بذاك الفتى مذ رآه.؟. وطفق يهرش إبطه مردداً:

-: ربما.. ربما.!.

أخذ عثمان كتابه الأثير من الصندوق، وشرع يقرأ بصمت، ثم أغلقه وشرد يردد بهيام:

-: (أيتها الأم الخزريّة، يا ذات السرِّ الكتيم، وقلب يتسع سرّ الأسرار. أنت النار والمنار، أنيري طريقي لأضرم الحريق في صدور أولئك الأوباش، فتكونين راضية يا بنة يشوع.).

وأتت الحرائق في المنخفض على خيام وعربات، مات أوادم، ونفقت بهائم، والحكيم يجبّر أيدياً وأرجلاً تكسّرت، وكمال كالنمر، يوجّه لإطفاء حريقٍ، ويساعد الحكيم في بتر يدٍ معلقةٍ بجلد العضد، وهاهما يطهّران جروحاً بالنار وبرماد خشب الزيتون. شعر بدوخةٍ فأغمي عليه مرهقاً، وجثت ابنة العجوز بجانبه، تساعد والدها بتدليك أطرافه حتى اختلج وأنَّ، ثم تقيأ، فأمر العجوز ابنته أن تغلي من أعشابه للفتى، هرعت الحسناء؛ والفضوليون يهمهمون ويرمزون، والعجوز يحدجهم بنظرات تحمل معناها، ثم استشاط غضباً وقد سفه أحدهم قائلاً:

-: لا تكن رحيماً بعدوٍّ إلى هذا الحد.

قذفه بحجرٍ شجّ رأسه مؤنباً:

-: عجيان.. أنستكم الشدائد طباع أهليكم وعاداتهم.

أيّده أحدهم قائلاً:

-: يستأهل. تباً للشدائد.

واستنكر بعضهم فعلة العجوز، ولامه غاضبٌ مدمدماً:

-: أتشج رأسه دفاعاً عن ذئب.؟!.

سحب العجوز عكّازه، وتحامل عليه حتى استقام، وقال:

-: ليس هذا وقت اللوص، فليذهب من يعتزّ بأبيه، إلى فعلٍ يخفف به عنا ما حلَّ بنا... ليس لديّ ما أقوله غير ذلك لمن لم يتحجّر قلبه.

انفضّ الرهط، وأتت الحسناء بإناءٍ يتصاعد بخاره، والعجوز يشجع كمالاً قائلاً:

-: عبّ منه قدر استطاعتك، ففيه مغبّة طيبة عليك، هيا يا فتى...

استعاد وجه كمال بعض تورده، وأحسَّ براحةٍ وخدرٍ يسري في أعضائه كالنمل، وتمتم:

-: أشعر أنني سأنام.

ابتسم العجوز ومسح على جبين الفتى قائلاً:

-: حسنٌ هذا، فقد نفعتك أعشابي، نم الآن فأنت تتعافى.

ترقرقت الدموع في عينيها، وربّت العجوز على كتفها وهمس أسيّاً:

-: لو لم يقتلوا شقيقك، لكان في عمره الآن.

وقف وهو يوصيها أن تبقى إلى جانبه. نظرت إليه وتلفتت، فهم قصدها فهمس:

-: لا تهتمي، فصنيعك أنصع من تقوّلات الأرذال.

مضى ورمى عكّازه؛ فترنحت إوزة صادفها، وأسرع إليها بخفة صياد، فذبحها وناولها لامرأة تجهّز موقداً قائلاً:

-: هلا شاركتِ بما ينفع.؟. اسلقيها وأكثري الثوم على مرقها ريثما أعود.

امتقع وجه المرأة، وندَّت عنها شهقة الفجأة، فضربت بكفها على خدها، ولم يكن ابتعد عنها، استدار وفي نظرته تساؤل، فلم يقع على غير صمت المرأة فسألها:

-: ما بك أيتها الجميلة.؟.

لمح نظرتها معلّقة بالإوزة، فقال:

-: حسنٌ.. ما بها.؟.

-: إوزتي وكانت شاردة.

مرّت لحظات صمتٍ، ثم انفجرا ضاحكين في اللحظة ذاتها، قالت المرأة:

-: فداك.. فليست ديك الجدة.

وتلقى الأومباشي أمر رئيسه، أن يُنزل الأنفار في الخنـــدق، وأن يـــردمهم حتى حناجرهم، فأسرع منفّذاً، وكلما زاد طمرهم ردد بشيءٍ من المواساة:

-: تجلدوا أيها الفتية، هي ذي العسكرية بأحد وجوهها، سبقتكم إلى مثـــل هذا مراتٍ، أم أنكم تحســـبون "الأومباشـــية" تُنـــال بـــدعاء الجـــدات وهدهـــدة الأمهات.!!.

وحين لمح الضابط ينظر نحوهم، هبَّ واقفاً وصفع أقربهم رافعاً صوته:

-: "إيشك-حمار". تستحقون أكثر، ولكنها رحمة سيدي ورقّة قلبه.

ناداه فهرع إليه مؤدياً التحية، مبالغاً بنبرته:

-: "تمام أفندم.".

عقد ذراعيه خلف ظهره ومشى الهوينى، فتبعه كظلّه، نفث دخـــان لفافتـــه سائلاً:

-: أيهم أشد مكراً، وأكثر مراوغة، وأعظم دهاءً، الثعلب، أم ابن آوى، أم الذئب.؟.

-: أحرجتني سيدي، ليس لدي جواب.

-: فكر.. وفي الغد تعطيني جواباً.

جلس العجوز جانباً، وابنته تلقم كمالاً وتدفع إليه طاس الحساء.

التقت عيناهما، ولمست يده يدها فأطرقت، وارتعشت كفها فانسكب بعـــض الحساء على قميصه، شهقت وسارعت لتمسحه بطرف كم ثوبها، منعها برفـــق، وتعلّق نظره بتقاسيم وجهها وانفراق شعرها فوق جبينها، تمتم:

-: قربان فالق القمر.!.

رفعت أهدابها وهمست:

-: يكفيك الآن أنني ما عدت أنظر إليك كألكسندر وعثمان.

تنحنح العجوز وقال:

-: دع الإوزة تستقر في جوفك دون ثرثرة، وأنت يا بنيتي، أكثري له من الحساء، فالإوز يحب السباحة.

وحين أزفت عودته إلى المعسكر، وقفت ترنو إليه، وما استطاعت الحسم فيما انتابها، أو الانحياز إلى عداها ارتبكت وهرعت، كأن العيون كشفت ما يهفهف في قلبها.

وأُبلغ عثمان بعودة كمال، فخرج إليه وقد تقلّد أوسمته، والسوط تحت إبطه:

-: كان يجب ألا تخترق الأوامر، ثم إني لم أقصّر بتأدية ما يمكن، وليسوا يستحقون ما داموا بحكم الأسرى، ثم إنهم في حمايتي.

اقترب من المعاقبين، والحلاق يجزّ رؤوسهم، وما زالوا مطمورين.

أشار بسوطه نحوهم قائلاً:

-: ورّطتهم. ولشدَّ ما أكره (الفلتان) . تصرفك اليوم لا يشجع على منح الثقة. أنسيت الطلقة.!؟. كأنك ما زلت صغيراً على الأسرار!!

وتسمّر متأهباً كأنه يتلو فرماناً وقال:

-: لأنك ضابط فحسب، لن تُعاقب مثلهم، ابق حارساً عليهم حتى مطلع الفجر.

همَّ بالمضيِّ، توقف واستدار نصف استدارة وأردف:

-: من حقي أن أضعك معهم.

ضرب بسوطه ساق حذائه، واتجه إلى خيمته.

وحين وصله خبر عودة الزعّارة، كان لهم بالمرصاد، طوّقهم ووضع يده على ما غنموه، متوعداً بجلدهم حتى تتسلّخ جلودهم، ومن الكبائر خروجهم عن طاعته وهو أميرهم.!. وأشاع أنَّ العقوبة قد تصل إلى تركهم مصلوبين فرائس للطيور اللاحمة، رافضاً بدأة ذي بدءٍ أية شفقة بهم، ولم يقبل وساطة الشيخ الإمام، لكنه أوحى للأومباشي بأن وساطة الشيخ، مقرونة بشفاعة وجيهٍ من وجهائهم؛ مسألة فيها نظر، أتقن الأومباشي إبلاغ الرسالة، كأنه يقترحها من لدنه، فتداولوا الأمر، وانتخبوا ثلاثة ممن لم يستنكفوا، وبعد لأيٍ قابلهم، لكنه دعاهم على الفور إلى مائدته، ثم ماطل بإجابة طلبهم، وتدهّى مظهراً حسن نيّة وفضل كرمٍ، فترك للزعّارة ربع ما غنموه، وزادهم مِنَّة إذ قدّم ربع الغنيمة لذوي قتيلهم الذي عادوا به.!.

تحفَّظ بعضهم، وتحدّث نفرٌ عن تسامحه برغم قوّته، وحذّر بعضهم بعضاً

مما يبديه، بيد أن كبير الوجهاء، ارتأى دعوته إلى وليمة ضمن استقبال مقتضب، فامتعضت النسوة لكثرة ما عليهن عمله، واستنكرن ذلك وبضعة منهم يدفنون كل يوم، وظل احتجاجهن حبيس لمَّتهن، فالوجيه اصطحب الشيخ الإمام؛ وأخذ فتاه ليُعظِّمَ الموكب ويزيده أبّهة، وجعلا صعود الهضبة مجالاً يتشاوران خلاله حولَ صيغة الدعوة، وكيف يخاطبانه بشأنها، وطفق الإمام يرجو ربَّه أن يقبل الضابط الدعوة.

وقف كبير الوجهاء قاطعاً لهاثه، هازاً عصاه، وقال معترضاً ينهره:

-: وما معنى مجيئك إن لم تقنعه.؟!.

-: لن أقصِّر، ولكنه ضابط، وأنت أدرى بأولئك الذين لا ضابط لأمزجتهم.

-: هه.. ها، ولذلك أصرّ على دعوته، تذكّر ذلك، ولا تنسَ أني أتوخى الكثير فيما بعد.

واستأنفا الصعود، والفتى خلفهما يهمّ أن يحملهما معاً، فيخلص من هذا الإبطاء الممل. انتبه الوجيه إليه فضربه بعكّازه على قفاه ونبر:

-: قد تعي كيف ولدتك أمك، ولا يكون ما يراودك، فلن تحملني يا ولد إلا بنعشي.

ظل الضابط طوال الوقت منشغلاً بمراقبة الفتى، معجباً بقوته وتناسق جسده، ولاحظ الوجيه ذلك فغمز بقوله:

-: إن كان وجود الولد يزعجك، طردته للتو ليلعب في الخارج.

ضحك الضابط إذ راقه كلام الوجيه، فما زالت في نفسه همة، تجعله يرى الفتى ولداً، لا يُجيد سوى اللعب. كذلك هم هؤلاء المناكيد، صعبٌ عليهم الرضوخ للشيخوخة؛ وهي تسحب الفتوّة من شعورهم بالكمال، وأصعب من ذلك، خلع صفة الرجولة على من لا يثبت ذلك بفعل شجيع، إلا أنَّ وجهة نظر الضابط مخالفة تماماً، فقدّم للفتى بعض الصابون هامساً:

-: النظافة تناسبك.

لوى الشيخ رأسه، يكرُّ حبات سبحته، وعيناه تتزرقان في الكلام، وتعابير الوجوه؛ مهمهماً كأنه في عالم آخر، فيجهر بأحد أسماء الله الحسنى، ثم يغيِّب صوته خلف حركة شفتيه المتواترة مع أنفاسه؛ ودوران عينيه المتذبذبتين في محجريهما.

غبط الوجيه فتاه، وجيّر حظوته لدى الضابط لصالحه قائلاً:

-: أيها المحترم. هو ذا أحد رجالي، وكان لي رجالٌ بعدد نصف عسكرك، عهدت إليه رعي خيولي وأبقاري، وكان يمسك بالثور من ذيله، فيقعيه أو يقطعه، حتى بات نصف القطيع بلا أذناب. هو بكنفي أتحنن عليه برغم المعسرة.

تابع الضابط ثرثرة الوجيه، وعيناه تجوبان أنحاء الفتى، وترصدان مسحة الحزن والغموض التي تغلل وجهه.

-: فرصة متاحة لك يا فتى، اجتزها ولك معنا شأن جالس.

والتفت إلى الآخرَيْن واعداً أن يلبي دعوتهما، ووقف ليمد كلٌّ منهما يده مصافحاً وينصرف، واستدار نحو الفتى مادا يده، وبريق وهّاجٌ في عينيه. وضع الفتى يده برفق خجول في كفِّ الضابط، فأمكن عليها قبضته، عندئذٍ اهتصر الفتى كفَّ الضابط، فارتجفت أرنبة أنفه، وأمست يده مثل يد أنثى، فأسبل الفتى يده ومضى لا يلوي على أحد. وحين أدبروا، أطلق فوقهم طلقة من غدّارته، جعلت الإمام يقفز صائحاً:

-: الله.!!.

وقف الوجيه رافعاً نظره إلى أعلى متسائلاً باستهزاء:

-: أبومة أم وطواط ذاك الذي أطلقت عليه كي لا يزرق علينا، أيها المحترم.؟.

أمّا الفتى فقد تابع سيره كأنه لم يسمع صوتاً، حينئذٍ تمتم عثمان معجباً:

-: وإنك متكامل كما تخيلت.!.

وخاطب الوجيه مبرراً:

-: طلقة تحية ليس إلا يا كبير.

اقترب كمال فاتجه عثمان نحو خيمته، فجعله يتبعه آمراً:

-: استمر بتدريبهم، وامنع عنهم الجعالة؛ جوّعهم ما استطعت.

توقف ممسكاً عن الكلام ثم أردف:

-: فليصوموا يوم غدٍ، ذلك بعض التدريب.

أسدل ستارة باب خيمته، غير عابئ بكمال، فامتعض كازّاً فكيه بعضهما ببعضٍ، فصرّت نواجذه صريراً ملأ مسمعيه، وحنقه يكاد يخرجه عن طوره.

نظر نحو المنحدر، ثم جلس على صخرةٍ، وأسند رأسه في كفيه متأملاً.

واتكأ عثمان بمرفقيه على طرف المنضدة، اتسعت عيناه وتمتم:

-: (لست من يتلمس سبل السلامة إلى شيخوخةٍ هادئةٍ منسيّة. فلا الموت بأقل ألماً يرضيك، ولا العيش التافه بأقل الخسائر ما تبتغي. خيوط اللعبة في أصابعي، أنسجها كما أريد.).

حسر بصره عما حوله، وغاص في دواخل طفولته، فتكشَّفت له، ثم صار فيها، وقد فرَّ إليها:

-: (ما زلتُ الذي ساررته- على صغري- بما كنتِ تخشَيْنَ أن تفكري به إن كان أحد قربك، بقيتِ وفيّة لما في أعماقك، بقدر ما كان عابثاً فصبأ. كبيرة بهمّك يوم أنكرك وقد فاجأته بي في بطنك. ما همني إن كنتِ قتلتِهِ، أو قتله سواك برضاك، الأهم أنك كونتني كما ترغبين، وقد أحببتُ ما صيرتني إليه، أُبطِنُ أكثر مما أُظهر، وأُظهر غير ما أُبطن، أُخلص لما أبطنه، ومخلصٌ لترانيمك، وحكايات قبل النوم، وما كنتِ تتلينه في ذاك الركن الغامض المقدّس من بيتنا. افتقدتك ولمّا أزل أحتاج حنانك، تباً للحظة هذى فيها وادعى أنه عنين عاقر عقيم. ولا أنسى مرحمة أولئك الأجلّة حين أسبغوا علينا من عطفهم وآوونا من خوفٍ وأطعمونا من جوع، ليتك تريننني، أمسيتُ أطول من الراعي والعصا، وإخال أنني للمآرب الأخرى، لي غنمي، أهشّها بعصاً تبصق لهباً، تُزهِقُ وتُرعِفُ، فهل أنت راضية.).

وما برح كمال ساهماً في حالة صفاء، يجول في النقاء بقدر ما فيه من ذخرٍ للتبتّل، يرى ذاته خرزة في سبحة يكرّها مسبّحاً بملكوت الكون الرحيب، هو ذرّة يُنكرها أمام عظمة لا تُضاهي. وذهب به التفكير إلى أولئك؛ وقد أُجتثوا فانجذروا عن مراتع نبتوا فيها، وإن قبلوا بكينونتهم، مقابل الاحتفاظ بما تبقى لهم، وصون مشاعرهم، لكنه لم يستطع إحلال القناعة في نفسه عن تركهم أرضهم، مهما فدح الثمن، فالموت ليس بكثير على الشعور بالانتماء إلى مكان مهما استعر وتجَهْنَمَ. أوليس الانتماء أكبر من فكرة ومعتقد.؟.

ضغط صدغيه بكلتا راحتيه عاجزاً عن المفاضلة أو الترجيح. تنفس عميقاً واختلج، ولمس شعاع حنين تسرّب فيه، فأضاء حلب وقويقها وقلعتها وحواريها وأشجار فستقها وبحسيتا، ودكان أبيه لصنع الطرابيش وكيّها، ومحل الخياطة، تذكّر يوم تحدى أبوه تلك القوّادة، وأنه سيجعل من ابنه رجلاً أهم من زبنها المتتركين رافضاً اشتراطها أن ينضوي في المحفل، الذي كرَّسها نجمة، تخرُّ

على ركبتيها رؤوس الكبراء. أبى.. ولجأ إلى أم الوالي، فكَوَتْه على يد الوسيط بغلوٍّ طلباتها، وهي إنما تخدمه لأنها أحبَّت حلب وأهلها، فههنا تفعل ما يضمن شطحات نزواتها، وجعلته خيّاط الباشا ونديمه، ثم إنه دخل دارة "الخانم" فصعد الشجرة ولم ينزل عنها.!.

-: كل ذلك يا أبا كمال ليس بذي أهمية، إذا ما تطلّعت إلى غدٍ ترى فيه ابنك ضابطاً باشا.).

أخذ نفساً عميقاً فسمع غناء حلب، وعبقت في أنفه روائح أطعمة بيته ونكهتها، تصنعها أمه ورقوش تعاونها، وأناملها تقطر نكهة تجعل للقمة طعماً لا ينسى، ويا لعنقها وليس ما يضاهيه إلا عمود سرمدا.!. ولكن.. ذلك يجب أن يكتم كنسمة تُنعش الروح، ليبدأ المسير الليلي فيتعب العسكر، ويقلق الناس في المنحدر، وقد باتوا معلقين، بعدما ابتعدوا عن واقع مرٍّ فرّوا منه، وما من بارقة لدنوّهم من نهاية معاناتهم، سحقهم العسكر هناك، ويجولون ههنا حولهم، لا يدرون أناقة لهم أم جمل، من كل هذا الذي لا يُحتمل.!. فراغ وآت مجهول، وعتمة بينهما معلقة، لا أول لها ولا آخر، ولولا النجوم هنا.. ك، ولهب النيران حولهم، لكان المكان قبراً جماعياً أو كهفاً مغلقاً؛ أُهيل همهم عليهم، فإن هُوِّن حالهم، فهو كحظيرة كبيرة تأوي أنعاماً بلا أكلاء وماء.!. وبرغم الحصار، تمكّن بعض الفتية من فكّه بحجة جلب الحطب، فعادوا بكثير منه وبما خبؤوه من سلاحٍ غنموه من عسكر ألكسندر، وأخفوه عن العيون، أما الحطب فنصفه للعسكر، ولعل كل الحطب لا يهم، ما دام السلاح قد أُنقذ.

ولم يسلم الوجيه من الألسن، فقد استنكر بعضهم دعوة عدوٍّ إلى وليمة وهم يهلكون جوعاً، وامتعض بعضهم الآخر لاستضافة جزّار، وقال بعضهم:

-: كذا هم الوجهاء.. ومتى لم يكونوا كذلك.؟.

بينما رأى آخرون أن للوجيه أسبابه، والأمل معقودٌ على حكمته، أوليس وجيهاً.؟!. يعرف متى تكون المهادنة نافعة، وإبداء حسن النيّة مطلوباً، ومتى يجب إعلان القطيعة وإجهار الرفض، وهو أدرى بالوقت المناسب للسلم والحرب، وتهامس نفرٌ أنَّ الوجهاء يبنون وجاهاتهم مع الأقوى، على حساب الضعفاء وإن كانوا أقرباء.!.

وكان لقدوم الأومباشي وقت الضحى، ونزوله بضيافة الوجيه، ثم مغادرته بأبهى مما استقبل به، أكبر أثراً من القيل والقال، فالضابط قادم مع أذان المغرب، فهو صائم وسيفطر على مائدة الوجيه.!. أوليس في هذا تقدير للجميع؛

وحسن تصرف من رجل يعرف كيف يقدّر الرجال.؟.

إذاً فلتخرس الألسن التي نسيت التهذيب؛ وليتأدّب السفهاء. وقال أحد خاصة الوجيه:

-: أن تكون خادماً لعاقل، خيرٌ من أن تكون سيد الأحمق.

-: وما الداعي للوليمة.؟. إنّ من لم يشاهدك جالساً، لن يراك وإن وقفت.

ولم يأبه المحايدون بما يقال ويجري. وأظهر الوجيه ترفّعاً عن هاتيك الصغائر، ومضى إلى تدبير ذبيحة لائقة بمقام الضيف، وهذا هو الأهم، اقترب من ثور عربة الإناث. مسَّد غرَّته وطبطب على فخذه، ووقف مفكراً، فحبست إناثه أنفاسهن، ولم يسخُ بقوته وجلَدِهِ، ثم إنه من الضخامة بما يكفي إطعام قبيلة، فلِمَ الإسراف.؟. فانصرف إلى كبشٍ معقوف القرنين، فتنفست امرأته الصعداء، متمنية لو أولم لضيفه تلك الديوك الرومية المتبقية، وهي ماهرة بتحضيرها، ولكن.. أنى لها مخالفة ما يرتئيه، فالزوجة لا تعارض زوجها أبداً.

جسَّ الكبش في أكثر من موضع، رفع أَليته وقبض صوف ظهره عند خاصرتيه، رفعه ثم تركه، فراوده شك بأنه قد لا يكفي. إذاً فليكن ذاك العجل، فهو نصف ثورٍ وبحجم كبشين. نعم.. أن يقولوا ذبح لضيفه عجلاً، غير تقوّلهم أولمه كبشاً فحسب، لا سيما إنْ فعل بما أشار به الشيخ الإمام، ووضع رأس العجل أمام الضيف، رأيٌ لا تنقصه الأبّهة، وإن درجوا على تقديم النصف الأيسر من رأس الخروف- الخروف فحسب- لأكبر الضيوف سناً، فإن شاء وزّعه على من يشاء، فيقتطع الأذن ويقدمها لشاب، كي يسمع جيداً طلبات من هم أكبر منه سناً، والعين لفارس، كي لا يغفل عنً الأعداء، واللسان لثرثار، عساه يجد من يصغي إليه، ونصف الدماغ للمضيف، داعياً له أن تبقى كلمته نافذة، فيسود المائدة مرح ودعابة محببة.

ولم يعتادوا تقديم رأس عجل، لكن في رأي الشيخ الإمام تمشياً مع مقتضى الحال وضيفه الغريب، فليجامل النّاس بما يناسبهم.. ردد هذا في دخيلته، ونقر غرَّة العجل بعصاه وقال:

-: اذبحوه.

ومضى ينقر الأرض بعصاه المفضضة:

-: (كل شيء سيجري على ما يرام.).

طمأن نفسه واقترب حيث السماور، وجلس يرشف الشاي بتلذذٍ؛ ونفسٍ

ملؤها أمل، وعقب صلاة العصر، تأبط ذراع الشيخ، وراحا يتحدثان عن الوليمة، والوجيه يرفع صوته بثقةٍ وحذر خفي.

غمز أحدهم قائلاً:

-: قد أطلق عنان عجرفته، ليجعلنا مطايا غايته.

-: منذ بدء المسير، وهو لا يألو جهداً بإظهار أنه المنقذ.

-: وبمَ تفضله لتهجوه.؟.

-: ما قصدك.؟.

-: أحقاً لا تعرف ما قصدت.؟. لا أحد يجهل أنك بعت أرضك أيضاً.

-: هأنتذا تقول إنها أرضي.. إذاً لم أبع أرض غيري، أليس كذلك.؟.

-: أهكذا فهمت الأمر.!؟

-: دعك منه.. فهذه مفاهيم الخونة. ينشدون التعالي ولو فوق الخرائب.

-: ضب أنت الآخر على لسانك، إلا إذا أردت أن أشطره لك نصفين بهذا السيف.

-: لا.. لا؛ ما هكذا الأخوة في دروب الغربة. عيب.!.

-: أقسم أنكم مثل البصل، كلكم رؤوس، ولن ترتدعوا حتى تُكسر رؤوسكم.

استمر العوام يتجادلون، بينما الوجيه قد مضى بالشيخ الإمام إلى نزله، من غير أن يسمع ما بين الناس من أخذٍ وردٍ، لكنه يعرف بالحدس مشاحناتهم، وأنهم يقطّعون سيرته، والماء ملء فمه لا يستطيع الإيضاح، فالأمر بحدين ووجهين، أحلاهما مرٌّ، وليس يرضيه تناحرهم واتهامه بما يقلِّب المواجع، فالمقتل في سمٍ قد زاد عن حدِّ الترياق، ولكأنه يهرب من ظلِّه، راح يهمس للشيخ الإمام:

-: ستجلس إلى جانبي، فلم أدع أحداً قبلك.

-: برغم أني أعتقد أن الباشا سيصرُّ على أن أجلس بجانبه، إلا أنها لفتة كريمة منك.

-: لي طلب يا مولانا، إلا إذا كان الشرع لا يسمح به.

-: أسمعك ولا أنسى الشرع.

-: أريدك أن تؤذّن للمغرب، هنا عند نزلي، فنصلي والضابط معنا، ثم نأخذ أماكننا إلى المائدة.

وافق الشيخ مبتسماً، وقد فهم هدف الوجيه، وطلب مزيداً من الشاي، وأمر الوجيه فتاه ليسرج حصانه، ويكون جاهزاً في أبهى حلّة، وليجعل الضابط يحسُّ بمدى لباقة مضيفه، وليريه كيف يُحسن المجاملة، وكيف أنه يسامح ولا ينسى يحاول فتح صفحة أكثر نظافة، فذلك أول الخيوط في نسج خطة طالما شغلته، مذ فظّع بالمتنورين. وأمر أولئك الزعّارة أن يظهروا كياسةً في خدمة الضيف، وعليهم حسن تدبير المائدة.

...

وكان يدخن لفافة، وعلى رأسه قلنسوة "اليرمولك" الصغيرة، قارئاً في كتابه الأثير، حين سمع الأومباشي من خلف ستارة باب الخيمة، يعلمه عن الجاهزية للتفتيش. أعاد الكتاب والقلنسوة إلى الصندوق، وعبَّ من فنجان القهوة، ومجَّ لفافته، ثم فرك عقبها في المطفأة، وسوّى هندامه، وتأبط سوطه خارجاً إليهم، والشمس برتقالة كبيرة، رشقت الأفق الغربيّ بعصيرها، وهي على ارتفاع بندقيّة حربتها مشرعة، فقدّم الأومباشي صفّ العسكر للضابط كمال، وقدّم هذا بدوره الصفّ لرئيسه عثمان، فاستعرضهم ومشى بينهم ملاحظاً حالهم؛ متأكداً من قيافاتهم وحسن مظهرهم؛ بما فيهم الطهاة وكبيرهم والحرس والحجبة. أثنى عليهم، وامتدح صبرهم على التدريب وهم صُيّمٌ، وهو أدرى بذلك وقد صام مثلهم.!. لذلك سيكافئهم بطعامٍ يعوّضهم عما عانوه:

-: إنكم الكواسر، تسرطون ما يوضع أمامكم، فيصعب على الحازر معرفة إن سبق وكان في الآنية شيء، أم أنها وُضِعت أمامكم ولمّا تزل نظيفة كأن الماء ما جرى فيها.!.

وكان الفتى قد اقترب يقود الحصان لامعاً بسنا شمس الأصيل، مغرياً بالفرجةِ، وقد نسّقهُ الفتى، ولاءم بينه وبين سرجه واللجام ومقوده المصنوع من أفخر الجلود، فبدا أجمل من صورة، وأبهى حصان وقعت عليه عين الضابط مذ عرف الخيل، بما فيها أفراس السلطان، تلك التي شدهته في إسطبلات قصر يلدز، وقد عقد مقارنة بين الحصان والفتى، وأشار إليه بأطراف أصابع كفه الأربع. ابتسم وقد سرّه أن وضع الفتى مقود الحصان في يده، وفهم تقدير الوجيه لشخصه وحسن مجاملته، لكنه فجأة طمس معالم سروره، وأطفأ ابتسامته، فانكمشت شفتاه انكماش فوّهة باذنجانة مقوّرة قرفعها التجفاف،

واستدار إلى عسكره، وجعل يتأرجح على مقدمة قدميه؛ ثم عليهما، ثم على عقبيه وهكذا... وصاح سائلاً العسكر:

-: من تكونون.؟.

-: كواسر.

-: كيف تأكلون.؟.

-: سرطاً.

أُفُلَ قرص الشمس منحدراً خلف التلال البعيدة، وسمع صوت الشيخ يرفع أذان المغرب، وسرّه أن تسير الأمور على هواه، فلن ينتظرونه كيما يصلّوا، وحسبَ الوقت فوجد أنه سيصل وقد فرغوا من صلاتهم. امتطى حصانه وأمر كبير الطهاة أن يمتطي حصان الوجيه، وأمر الأومباشي أن يكون في المؤخرة، وأوعز للفتى أن يبقى بمحاذاته، ومن غير أن يلتفت أمر الضابط كمالاً قائلاً:

-: أعهد إليك بحراسة المعسكر، ولعلك ترتاح بعدما بذلتَ في التدريب جهداً لا ينكر.

لكز حصانه وسار في المقدمة، وخلفه كبير الطهاة، ومضى الموكب مبتعداً، وكمال يضطرم الغيظ في كبده، عاقداً ساعديه على صدره، التفت إليه الأومباشي مرتين، شامتاً؛ أو يشاطره قساوة الموقف الفائح بإهانةٍ لا مسوّغ لها، ولكنها العسكرية.

اقترب الموكب، والوجيه وسط جماعته، راعه المشهد، وامتقع لونه وجفّت لهاته، واشتد لهبان جوفه. صاح أن يوسّعوا المائدة، ويضعوا كل ما في القدور، فقد وقع في فخٍ لم يكن في حسبانه قطّ، وذاك حصانه، يمتطيه من لم يرسله لأجله، والفتى يسير بمحاذاة الضابط سير عبدٍ أو أسير.!.

-: (هكذا إذاً.!. لن تنقضي الليلة، ما لم أردّ لك الصاع صاعين؛ أيها الضابط وأنت البادئ.).

تجمَّعَ الناس يتفرجون على الموكب. يا لها من فخامة يرفل بها ذاك الضابط.!.

أرخى المقود للفتى، ثم أمره بالتوقف، وتوقّف الموكب، حتى اقترب الوجيه وصحبه.

-: قد جئت ملبياً دعوتك، على رأس موكب يليق بمقامك. هكذا أفهم أن

يقدِّر الرجلَ الرجلُ.

ثم ترجّل كما يليق بفارسٍ، وتوجّه إلى صدر المجلس، ودعا الفتى ليتخذ مكانه قبالته، وسط دهشة الجميع واستغراب الوجيه وقد أُسقط في يده. غصَّ المكان بالعسكر، ووقع الوجيه في حيص بيص، فأشار بحاجبيه لمن لا يخجل منه، أن يترك المكان لهذا الجراد الزاحف.

قال المضيف:

-: تفضلوا.

بسمل الشيخ، فتهيأ العسكر، ومدَّ الضابط يده؛ بمثابة إشارة البدء، فأخذت الأيدي تغرف وتلقم الأفواه، في حركة لا انقطاع فيها، فبدا منظرها كحركة "الحريش- أم أربع وأربعين" وإذا الطعام أثر بعد عين، والوجيه يردد في سرِّه:

-: (يا لك من وغدٍ غدّار أيها الضابط الثعلب.!!.).

قهقه الضابط بانفجار مباغت، فرنا الوجيه إليه ذاهلاً، وترك الشيخ اللقمة في يده معلقة بين الإناء وفمه، والضابط يقول في نفسه:

-: (هكذا يكون نجر الخوازيق.).

ثم اجتث اللسان من أصله، والعين من وقبها، وشحر الدماغ، واقتلع الأذن وجعلها لفافة، متلذذاً بمضغ بعضها مع بعض، ثم سأل العسكر:

-: هل شبعتم.؟.

ردوا بصوتٍ واحد:

-: لا.

اضمحلَّ الوجيه وذاب خجلاً، والتفت الضابط إليه وقال مراوغاً:

-: لو أولمت لنا دجاجة، لكنا لك من الشاكرين.

وأعطى إشارة للأوميشي، فأوعز للعسكر، فهبّوا وأحاطوا بالمكان، فبدوا كأنهم سورٌ تمَّ بنيانه للتو، ورفع الضابط صوته، قاصداً أن يسمع مَنْ في المكان أجمعين:

-: كونوا مستعدين، فسنتابع المسير عما قريب. سنوزّع الجعالات على الجميع.

والتفت إلى الوجيه وهمس:

-: لك جعالة أربع عائلات.

ورفع الشباب الزعّارة المائدة، وأداروا أكواب الشاي، ونظر الضابط إليهم واحداً إثر واحدٍ، وقال ساخراً:

-: من يراكم بهذا التهذيب، لا يصدق أنكم زعّارة الأمس.!.

ضحك مستظرفاً كلامه، فتضاحك الوجيه، وجاراه الشيخ الإمـــام، وابتســم بعض الذين قصدهم، وسأل كبير طهاته:

-: ما قولك بهذا الشاي.؟.

استنشق بخاره العابق، وأعاد النظر بلونه العقيقي، ثم تذوقه كمن يتقــرى سره:

-: شاي السماور سلطاني لا يعلى عليه.

أحسَّ الوجيه أن كبير الطهاة ألغز كلامه، فقال بلهجة واثقة هادئة، شــحنها بقدرٍ من التحدي:

-: لا شك أن سلطانكم ذوّاقة، ونحن ما عهدنا الشاي من غير السماور.

امتعض كبير الطهاة، ولم يأبه الضابط له بقدر ما أراحه أن يغمز أحد في قناة السلطنة، فسأل بخبث:

-: فلمن يعزى السماور وطيب شايه.؟.

ردَّ الوجيه مقاطعاً كبير الطهاة بثقة:

-: إلينا حتماً. لا بأس أيها المحترم، أجد مناسباً وقد فرغنا من طعامنا، أن أفضي إليك بما لدي.

تململ الضابط وقد أحسَّ أن للدعوة أسبابها، حدّث نفسه وهو يرشف مــن كوبه:

-: (أكنت تقول ما لديك، لو علمت أني لا أحبك، بل أبغضك، وإن كنــت أحترمك لأسباب لا يمكنني تجاهلها.).

وجد أنه صمت أكثر مما ينبغي فقال:

-: إني مصغٍ.

-: هو اقتراح، وإن شئت عُدَّه طلباً.

-: عُدَّه أنت ما شئت، إني أستمع.

سرت همهمة بين الناس، وانتقلت سريعاً إلى العسكر، قاطعة على الوجيــه

فرصة الإفضاء بما لم يعلمه أحدٌ بعد، وقد رنـــا الحاضـــرون نحـــو العســـكر، وتوجّس الضابط شراً فجمد لحظات، وركض الأومباشي نحوه معقود اللســـان، صرخ الضابط:

-: أومباشي.. تكلم.

قال الأومباشي مرتعداً:

-: حريق في المعسكر.. أفندم.

هبَّ قاذفاً كوب الشاي في حضن مضيفه وزمجر:

-: فعلها الكلب.!.

التفَّ الزعّارة حولـــه يؤكدون وجودهم ههنا طوال الوقت، ولـــم يعـــرهم اهتماماً وقد خرج عن طوره، وغلبه غضبه فصاح:

-: إليَّ بالحصان أيها الحيوان.. أومباشي... إلى هناك أيها "الجحش".

وانطلق الأومباشي خلفه، ولحقهما العسكر مثل زوبعة هبَّت للتو في المكان دون سابق إنذار.

غمز الوجيه للزعّارة فانتشروا خفافاً، والتفت إلى الشيخ قائلاً:

-: ألم يحن وقت صلاة العشاء يا مولانا.؟.

قفز الشيخ الإمام مجفلاً:

-: بلى.. لعنة الله على الشيطان.

4

ألسنةُ اللهب تبدو من البعد حمراء، فإذا ارتفعت قليلاً فبرتقالية، ثم صفراء باهتة عند ذؤاباتها، تكللها هالة شهباء مشرّبة بزرقةٍ مسوّدةٍ؛ وهي تتماوج بدخانها المتعالي، ذاهباً في عتمة الليل ليضيع فيها.

وبين الهضبة التي أنارت النار بعضها، والمنخفض حيث ينطلق العسكر، علت زوبعة غبار لم تحجب الرؤية، ولكنها شوشتها. كان الوجيه أكثر الناس قلقاً وتوتراً، كما بدا من نظراته، غير المستقرة على شخصٍ بعينه؛ بقدر ما هي جوّالة، تبحث عن ضالةٍ ليست تجدها، والشيخ الإمام حائر غير دارٍ بما يمكن أن يفعله، وهو يحسُّ أن واجباً يدعوه إلى أمرٍ لم يدرك سبيلاً إليه.

والناس كباراً وصغاراً يرنون إلى الهضبة، لكأنَّ منظرها والنار عليها، قد فتنت بعضهم، وبالغ بعضهم بإظهار عدم رضاه عما حدث، ومؤسفٌ أنه خلخل هدف الوجيه ومبتغاه من الوليمة، وتساءل بعضهم عن الطلب المسكوت عنه، وقد كاد الوجيه أن يقوله، وآخرون شغلتهم التخمينات عما يمكن أن يكون قد حدث في مضارب العسكر، وقسمٌ تشفى به، وما الحريق إلا بعض ما يستحقون، وليتها تأتي على الموقع، فتتركهم بُوّماً بلا وكور...

أما الوجيه فقد جعله القلق لا يسمع أسف المقربين للنهاية التي آلت إليها وليمته، واصطبر على سخرية بعضهم، يسمعها علانية لتفريطه بالعجل الذي فضّلوه على عشرة من أمثال الضابط عثمان، وبعض الخبثاء لاحظ كيف أنه طوّح بكوب الشاي في حضن الوجيه، غير آبهٍ بعرف أو لباقة، صحيح أن ذلك حزَّ في نفس الوجيه، لكنه عَدَّها سفاهةً لا جدوى من الوقوف عندها، وما اللغو الدائر حولها إلا نخامة بلغمٍ، لن يلتفت إليها، وظل يهز رأسه، وينقر بأصابعه على ركبتيه، وهو فزع أدركه الخوف وأخذته الخشية، فإن لم يضبط تماسكه

افتضح أمره، وحلَّت به وقيعة، فلا حمل السيف في نزال، أشدّ عليه مما هو فيه، ولا أزيز الرصاص، مربك أكثر من حاله الآن، وقد انتابته حالة في جذوة الوجدان، تشبه خفقان القلب، واضطراب الأنفاس إثر نوبة داهمته فجأة، وما فتئ يوازن بين حالتين، لو أنّه بقي بأرضه، وما يمكن أن يجري له، بعدما جرّدوه مما يعتز به، ولم يبق له إلا بقاؤه حياً كيفما اتفق، يتثاءب طوال الوقت، ويبتلع الإهانات، وينتظر نهايةً رأى أمثاله ينتهونها، وحاله إن انكشف سرّه، ثم نهايته التي يتخيلها بتفاصيلها الدقيقة. أرهبه أن يُغرق المركب بنفسه وبمن معه، في مستنقع الضياع والسكون المخيف بصمته المريب، وانشغال الدنيا عنه وعن ناسه، وقد داستهم قذارة القوة، وذبحهم بغي المال والأطماع الرهيبة، تَدسُّهم وتدفنهم أحياءً في الوحل والتراب.

شقّت الحسناء دربها بين الجموع من حوله ونادته:

ــ : عماه.. إلحق أبي.

هبَّ واقفاً كسبعٍ هفَّ قلبه فرحاً لمرآها، واهتزت فرائصه مما قالته.

ــ : أين هو.؟..

ــ : في نزله.. هلا أسرعت إليه..

ــ : مابه.؟.

ــ : لدغته عقرب.

جرجر نفسه كسبع هدّه الهرم، ولحق به الناس، استدار ورفع يده فتوقفوا، فاستأنف سيره كمن يمشي على هدب عينيه، والحسناء تسبقه، ولغط الناس وهرجهم يجذبه وينأى به، حتى دخل على العجوز، فوجده واقفاً ينتظره، نظرا إلى بعضهما بعض وتعانقا، دمعت عينا الوجيه، وارتسمت على شفتي العجوز ابتسامة، واقتربت الحسناء منهما، ودّت لو وضعت كفيها على كتفيهما، فتجلسهما وما زالا في صمت الانفعال البليغ...

ــ : ليس من عقرب يا عماه.

ــ : إذاً هو عثمان..!..

ردّ العجوز متطيراً:

ــ : لا عثمان ولا عقربان... إلا أنني أخشى...

قاطعه الوجيه وقد جفّت لهاته:

ـــ : ما الذي تخشاه.؟.. قل بالعزيز على قلبك... تكلم...

ـــ : أخشى ألا أضنأ إن تزوجت..

ضحك العجوز، فضربه الوجيه مرات تحبباً وتنفيثاً، ثم سأل:

ـــ : والرسالة.؟.

ـــ : سيجدها على المنضدة..

ـــ : ولِمَ أشعلتما ناراً..؟ هذا لم نتفق عليه..!..

نظر العجوز إلى ابنته ولم يجب، فقالت:

ـــ : أنا أشعلتها.

سأل الوجيه محتداً:

ـــ : ولِمَ... لمه..؟.

تنهدت بحرقةٍ وأطرقت خفراً ثم تمتمت:

ـــ : مثلما أشعلوا في قلوبنا حرائق.

أطرق برهة، وأدار العجوز وجهه مدارياً ثقل الشجن على قلبـــه، ورفـــع الوجيه رأسه ناظراً إليها، وقال بثبات:

ـــ : منذ اللحظة لست كنَّتي.

شهقت، ودهش العجوز، فاستدرك بهدوء عميق:

ـــ : أنت الآن ابنتي.

اغرورقت عينا العجوز بدمعٍ مثل نبعٍ كاد يجف، وخاطب ابنته مداعباً:

ـــ : لكلٍّ من أترابك أب، إلا أنت، فقد صار لك أبوان، ولكن ما هذا البخل يا بنت..!؟.. ألا تطعمينا كبد العجل والرئتين..؟!..

أسرعت ترفرف كطائر اشتاق أن يطير؛ بعد طول مكوث في العـــش دون وليف، وراحت تحضّر الطعام هناك في الزاوية.

سأل الوجيه:

ـــ : هل تمَّ الأمر بسرّيّة..؟.

رد العجوز :

ـــ :أجل.

ـــ :والضابط الآخر.؟.

ـــ : كمال.؟.

ـــ :هل رآكما.؟.

أجابت الحسناء من ركنها:

ـــ : اعتقلته وربطته إلى عمود الخيمة...

ـــ :العمى.!!.

ـــ : لم يتعرّف إلي.. بقيت ملفّعة ولم أنبس بكلمة.

زفر الوجيه أفٍ وقد ارتاح إلا قليلاً.

نادته

ـــ : عمي.

عضّت على شفتها واستدركت قائلة:

ـــ : أبتاه.

ابتسم الوجيه ورنا إليها ينتظر ما تودّ الإفصاح عنه، فقالت:

ـــ :نثرت محتويات صندوق في خيمةٍ وبعثرتها، فكان بينها ثمة كتاب ضخم وشمعدان غريب الشكل، ما إن رآهما الضابط كمال، حتى رجاني أن أضع الكتاب بين يديه؛ وأشعل له الشمعدان.

علت الدهشة محياه وسأل:

ـــ : أما قلتِ إنك ربطته إلى عمود الخيمة.؟!!..

شعرت أنها أخطأت، فتشاغلت بطهو الطعام، وفرك العجوز كفاً بكفٍ وبدا مؤيداً الوجيه، فبررت موضحة بصوت خفيض:

ـــ : لأنه توسّل ليطلّع على مافي الكتاب.

ـــ :أيّ توسّل وأيّ كتاب.؟!. أكنا نمزح أم نتسلى.؟!.

حاول العجوز استيعاب غضب صاحبه، وربما تخفيف الملامة عن ابنته فقال بهدوء:

ـــ : إنني لا أخشى جانب الضابط كمال..

ـــ : هذا علك . ألم نتعلّم بعد أيها الخرف.؟!. إن لم يكن ضبعاً فهو ابن آوى.

تمتم العجوز:

ـــ : قل ما شئت، فقلبي مطمئن لذاك الشاب.

تسرّعت الحسناء قائلة:

ـــ : وأنا أيضاً..

نظر إليهما مستغرباً وهتف:

ـــ :اختلط الأمر، وثمة خيط فالت لست أدرك كنهه.!.

وعلت أصواتٌ ونهيق وغوغاء، وكان واضحاً صوت الشيخ الإمام مقترباً:

ـــ : على مهلكم.. حسبي الله ونعم الوكيل.!..

وظهر فتيةٌ يدفعون الشيخ على حمارته، وتنطّع أحدهم مفاخراً بنجدته:

ـــ : أتيناك بحمارة مولانا الشيخ..

استفسر العجوز مستنكراً: ولم الحمارة يا رجل..؟!..

ـــ : أليس الحليب ينفع الملدوغ.؟.

ـــ : حليب حمارة يا هذا.؟!.

ـــ : لم نحظ بغير الحمارة، فهي حلوب..

ـــ : لعل أمك لم تفطمك بعد..!!.. إذاً دونك الحمارة. أفسدتك الأهوال المتفلِّتة، أنستكم الأدب، والتهذيب.!!..

وقذفهم بعصاه، فتفرّقوا متراكضين، جفلت الحمارة، والشيخ ممتعض في حيرة يكاد يحتج، حتى قام إليه الوجيه متأسفاً له مرحباً به، فجلس يحبِّر وريقات، مالبث أن غمرها بماء الطاس، وسقى العجوز جرعات ثلاث، ممسِّداً ساقه، ثم ابتسم معلناً أنَّ السمّ انفرط بإذن الله، وتشمم رائحة اللحم المقلي، مغمضاً عينيه في نشوة، أخذته في بهجة دغدغت ولعه بالدسم، فاعترته حالة قرقرت لها أمعاؤه، وما عاد يفكر بغير تلذذٍ منتظَرٍ بهذا الحلال المباح.

وعلى الهضبة، أطفأ العسكر الحريق، وكان قد أتى على بعض خيام الأنفار وبياطرة دواب الجيش، لكن الحريق في قلب عثمان اضطرم وازداد تأججاً، والمكان مطوّق ما من ثغرة فيه لفأر. مشّطوه ولم يتركوا حفرة أو رجماً، فما وقعوا على أثر، ودخل الأومباشي خيمة الضابط كمال مرات، فتّشها كمن يبحث عن خرزة سبحة في قرية نمل، وانعكس الإخفاق على العسكر، فجعلهم في حيص بيص، وزادهم توتراً، وتركهم ينفذون الأوامر بآليةٍ، وقد أغلقوا تفكيرهم دون ما يفعلون، وعلى وجه الخصوص هذا "الأومباشي" الأشقر

المربوع، بوجهه المستدير، ووجنتيه الحمراوين كبندورة ناضجة، يُدّور عينيه الضيقتين هنا وهناك، ويتهرّب ــ ما أمكنه ــ من نظرات الضابط الشكس، وقد جعله ملطمة حتى التاث، يكاد يفقد صوابه، كلما طالعه ذاك الوجه الكالح المكفهر، تتلاطم في نفسه أمواج هيستيريا، فتزيده تجبراً وتأزماً، يشتم صارخاً، يجأر ويزأر هائجاً وقد توحشّ، وقنط الأومباشي مهدوماً من تعب، لاب وقد جفّت لهاته ويبس حلقومه وزاغ بصره، هذى وأخذ يهذر، وفي لحظة غاب ناسياً، فلم يتذكر ماهو فيه وما حدث، لفَّ حول نفسه في استدارة كاملة، وحوله طوق العسكر، يجوس بعضهم بين الخيام، وآخرون يدخلونها ويخترقونها من الطرف الآخر.

ــ : (ماذا يفعلون.؟!. ولِمَ لست على رأسهم.؟!. هل قصّرت.؟!. سابقة مهينة إن كنت ارتكبت هذي الحماقة.!. سأطلب منه العفو مبدياً أسفي ولن ينسى التزامي وانضباطي، ذاك هو فوق الرجم... يبدو غاضباً، لا بأس، فإن ذهبتُ إليه متأخراً خير من أن أزيد الطين بلّة.).

هرول إليه، ثم وقف منتصباً بثبات وعزم فهتف:

ــ : تمام أفندم..

انقضّ عليه وسأل:

ــ : هل وجدته.؟.

ــ :عفوك أفندم..عمّن تسألني.؟!..

كشَّر عن أنيابه، ممسكاً عنق الأومباشي وشرع يضغط، ثم صفعه مرتين وسأل:

ــ : أمأفون أنت أم تتغابى.؟..

احتار وازداد وجهه المدوَّر احمراراً وانتفاخاً، وأظهر ضعفاً وبدا مستسلماً وسأسأ متأتئاً:

ــ : سيدي... أفندم... أرجوك.. تَعَطَّف بإعادة صيغة السؤال.

قطّب حاجبيه وضيّق عينيه، كأنَّ الذي أمامه ليس النمس الذي يعرفه.!. بلع ريقه وزفر. أشعل لفافة ثم تساءل:

ــ : وأين يمكن ليربوع نتن أن يختفي.؟..

هتف كمن وقع على ما ضاع منه:

ـــ : إذاً يبحثون عن يربوع.؟!!..

هوى بكفه على خدّه البض، وكلمح البرق لكمه بين عينيه، فانقـذف إلـى الخلف، فداس على بطنه، وركله في دبره، مفرغاً شحنة حنقه، كأنه يشفي غليله بكمال وقد انتقم لنفسه بطريقته؛ ردّاً على إهانته؛ حين لم يدعه إلـى الوليمـة، وتركه مهملاً كأيّ "تنبل"..

مسح دماً سال من منخريه، متسائلاً عـن سـبب الرعـاف.؟!.. وعلّلـه بالإجهاد والصداع الذي يفلق رأسه. حاول الوقوف فوقع:

ـــ : يا.. ه.. أهرمت قبل الأوان أيها الأومباشي.!؟..

ترنّح ثم اعتدل، وحين استوى واقفاً، فوجئ بالضابط، فحياه زاعقاً:

ـــ : تمام أفندم.

ـــ : لعلك عرفت الآن مَنْ أشدّ مكراً وأكثر حيلة، وأعظم دهاءً؛ من الثعلب وابن آوى والذئب معاً.؟.

ـــ : أنت أفندم.

ـــ : أيكون اختطف.؟.

ـــ : احتمال أفندم.

ـــ : لِمَ لا يكون هرب.؟.

ـــ : احتمال ضعيف.. أفندم، فسلاحه هنا وحصانه موجود.

ـــ : أيكونون لصوصاً، قاومهم فأسروه..؟!..

ـــ : لا شيء من العدة والعتاد مفقود.. أفندم.

ـــ : فمن أحرق الخيام.؟.

ـــ : شيء محيّر.!.

أخرج كيس التبغ، فوجده يكاد يفرغ...فأمر الأومباشي أن يأتيـه بـالتبغ، فهرول إلى خيمة سيده، أشعل عثمان لفافة وهو ساهم يفكر. انـتفض إذ سـمع الأومباشي يصيح خارجاً عن طوره. أسرع مشهراً غدّارته واقتحم الخيمة، جمد وكمال يبتسم وبين يديه كتاب، والشمعدان أمامه.

ـــ : أنت هنا.!؟!..

ـــ : كما ترى..

فكَّ الأومباشي وثاقه، فوقف يتمطى،ارتاب عثمان وتمتم:

ـــ : ما الذي جرى.؟.

ـــ :غافلني... واعتقلني فربطني كما رأيت..

ـــ : ولماذا أنت في خيمتي...؟!.

ـــ : أتى بي إليها. كان يقصدها. انظر كيف بعثر محتويات صندوقك..

ـــ : أكان يقصد سرقتي.؟.

ـــ :لم يأخذ شيئاً قط.

ـــ : من هو.؟.

ـــ :لم أعرفه.

بحث في الصندوق والتقط كيسين وشى صوتهما بما فيهما، انشغل بهما عن الكتاب والشمعدان. تأكد أنَّ عمود الخيمة لم يتزحزح عن موضعه، نظر إلى صرّة على المنضدة وسأل:

ـــ : وما هذه.؟.

ـــ : تركها وانصرف. يبدو أنها تخصك.

فكَّها وانتفض، اصفرَّ وجهه، وزكمت أنفه رائحة جعلته يتقيأ. اضطرب تنفسه، وعلى رغم ذلك تماسك متجبراً وقال:

ـــ : مع من تتآمر علي.؟.

ـــ : ألم تجدني موثّقاً إلى عمود الخيمة.؟!.

ـــ : أتدري ما في الصرة.؟. رأس عريف عسكر ألكسندر.!.

اشمأز كمال، وران صمت مقيت، أراد عثمان أن يصرف اهتمامه عن الكتاب والشمعدان فنجح، وكان الأومباشي مذهولاً، طنّت أذناه وسرى فيهما وشيش، جعله لا يميز إن كان تحت وطأة كابوس، فقد رأى رأسه مكان رأس العريف، شهق وسقط وقد أغمي عليه.

ـــ : ما سرُّ تلك الطلقة يا عثمان.؟.

مدَّ يده إلى غدّارته، فكان كمال أسرع منه، فوضع رأس سيفه على حنجرته، وطوّح بالغدّارة خلفه وكرر السؤال:

ـــ : قل.. ما سرّ الطلقة.؟.

تماسك وأبعد السيف بهدوءٍ عن نحره، أشعل لفافة وقال:

ــ : نتفاهم خير لكلينا..

ــ : وعلام نتفاهم.؟.

ــ :مادمت متشنجاً فلا سبيل للتفاهم.. هدئ من روعك فتعرف.

ــ : من أين أتتك الطلقات.؟.

ضحك بخبث ومجَّ لفافته ثم قال:

ــ : هدية أصدقاء في الأستانة...

ــ : أصدقاء.؟!!..

ــ : نعم.. ويمكن أن يكونوا أصدقاء لك.

ــ : وهذا الكتاب.؟.

ــ :مابه.؟.

ــ : أنت أدرى.

ــ : للاطلاع. أم أنك لا تريد أن ترى أبعد من أنفك.؟!..

ــ : والشمعدان.. لماذا هو بالذات.؟.

ــ : للإنارة، مثل أي سراج، وهل للشمعدان وظيفة أخرى لا أعرفها.؟!..

ــ : ورأس العريف.؟.

نخزته إبرة في قلبه، قبَّب كتفيه، وقال:

ــ : لا أدري.!.. قل أنت إن كنت تعرف.؟؟

ــ : إنه إنذار وتحذير موجه إليك..

ــ : ها أنتذا تفسِّر مالم أدركه، فمن أرسله.؟.

ــ : جواب سؤالك تعرفه أنت أكثر من أي شخص آخر.. عثمـــان.. مـــن أنت..؟!..

ــ : حسبتك ذكياً، وكنت أودّ أن نكون أصدقاء.

ــ : ألهذا أهنتني وحقّرتني كأنني عبد لك.؟!.

ــ :حاول فرك أذنك، لعلك لا تظلّ في سرب النمل، ولا تكون مع "يلـــدز" أكثر من السلطان.

ـــ : لا فائدة منك يا عثمان.. لا فائدة. سأعرض الكتاب والشمعدان ورأس العريف على الملأ..

تأسَّف وهزَّ رأسه مبدياً عدم رضاه عن تهوّر كمال، وقذف إليه أحد الكيسين قائلاً:

ـــ : ليس مني.. إنما عربونٌ من الأصدقاء في الأستانة...

ـــ : لا أقبل أي شيء من أناسٍ لا أعرفهم..

ـــ : لا تكن عجولاً فتعرفهم.. لا سيما أنهم يعرفونك..

ـــ : كيف.!؟..

ـــ : حدّثتهم عنك..

ـــ : إياك أن تنكر حقيقتك. كيف اخترقت الموانع إلى عسكر السلطنة.؟!..

ـــ : أية موانع أيها الغشيم .؟!!.. أتعرف من تواسط لك كي تكون ضابطاً.؟!. ثم إنك لست مع الدولة العليّة تماماً.

ـــ : وما دليلك.؟.

ـــ : عن أي شيءٍ مما أسلفت تريد دليلاً.؟. أفق يا كمال فـ"يلدز" الذي تتحمس له، ليس فيه من يدري بك، ولا يعرف السلطان إن كنت في جيشه. ثم ألست في جمعية سرّية.؟؟.

ظلَّ ساكتاً مشتت التفكير، ولكنه انتبه إلى تلك التهمة الخطيرة فقال:

ـــ : لست في أية جمعية سرِّية أو علنية..

ـــ :ولِمَ يا كمال .. لمه.؟!.

ـــ : لست أفهمك.!!.. ولست متورطاً البتة.

ـــ :إذاً كن معنا.

ـــ :ومن أنتم.؟.

ابتسم وهمس:

ـــ : نحن المستقبل يا كمال. ألا تحلم بالباشوية.. والياً... أو أن تكون قائداً كبيراً... أو حتى ناظراً للحربيّة.؟. يجب أن تحلم، احلم يا كمال.. احلم.

أفاق الأومباشي من إغماءته، فوقف منتصباً محيياً:

ـــ : تمام أفندم.

وضع الصرّة والشمعدان والكتاب بين يديه، وأمره أن ينتظره في الخارج، فقال عثمان لائماً بمكرٍ:

ــ : لِمَ فعلت ذلك يا صديقي كمال .. لمه.؟!..

ــ : لأنني لا آمن جانبك.

ــ : الحق معك. ها أنتذا تعيد ثقتي بك، فلو كنت مكانك لتصرفت مثل تصرفك، خذ كيس الذهب هذا، سينفعك.

ــ :لا.

ــ :إذاً هو أمانة عندي لك، تستردّه حين تشاء..

تبادلا طويلاً نظرات متنافرة، يتجاذبها شك ويقين، حذر واطمئنان.. غدر وأمان، حلم وانكسار، واقع وخيال، وبكل ما كرّسه ذاك الحوار، في نفسين على طرفي نقيض، رأس مدبِّر مدرِّب مجرِّب، وقلب تملؤه الطيبة والأمل والمثل، وربما السذاجة.

خرج حذراً، وجلس عثمان ضاغطاً على صدغيه، وهاهو ينسلخ عن المكان والزمان، سابحاً في دوّامة ليس يرى فيها غير وجهها، فشعَّت في داخله قبسات من هاتيك الطفولة، وطفق يكلّمها:

ــ : (أيتها الخزريّة... ها أنذا عملت بماسةٍ من درر نصائحك الجواهر، وهأنذا أصنع عدوّاً لعدونا. إنها وصاياك التي تماهت في نسغ دماغي ونسج تلافيفه، وذاك القرطاس سَرَت معانيه مع دمي في عروقي والحشا، وتخلخلت في معرفتي، وما أخذه الخرتيت كمال لن ينفعه، ما دام لن يتمثله. سيحرقه، أو ينفر منه كالرجس. خاسر هو في كلتا الحالتين، ولن يكشف خفايا مابين السطور، فله ولأمثاله مزيد من عمى البصيرة. أيّدي رجائي يا غالية.).

وعلى ضوء المشاعل تحلَّق العسكر، والأومباشي يرفع رأس العريف على حربة بندقية، وكمال يرصد انفعالاتهم، لكأنه يتلمَّس في ذواتهم، ذاك الطفل الذي ما زال في أعماق كلٍّ منهم، نقياً بهاتيك البراءة، لمّا كانوا بين الأب، وفي أحضان الأم، يمنعان الشر أن يقرب فلذة الكبد وهتفة الروح، همُّهما هذي النبتة التي ولّداها بحميم عواطفهما، يريان ذاتيهما فيها، ويعلِّقان عليها آمالاً معتّقةً، ويسريان فيها ما استمر فيهما مذ كانا في دنيا الطفولة. إنه رحيق الحلم، ينزاح عنه الظلام وظلاله القاسية، وقت اغتسال الروح بماء السماء، فيزيدها طهراً، يفوقها على قسوة الشراسة ووحشية القوَّة، فلا ينقهر الجوهر، أو يُزيّف المعدن،

ولا ترغم الأعماق المجنّحة على التسليم لصلابة جذُره الصـمّ، حيـث تُسـجن الريح وتلوّث، ثم تدفعها خبيثة كنظرة أعور الجان، أو تأخذ الفسـائل الغضَّـة والزغاليل، فتصيّرها بلون وشكل وصوت واحد.!!..

أولاء الذين انتزِعوا من أحضانهم؛ ومن على جثثهم، ومن بازارات الـرق السرّية، أو أسرى مخطوفين؛ مسوقين قسراً، ومـن بقايـا المـذابح وحمـلات الإفناء، واجتياحات التيئيس والإبادة المدّبرة، وقد أُخضعوا لغسـل الـذاكرات، وحُقنوا بالأحادية اللامتناهية لطاغية مستبد. إنهم الذين غُربوا عن أهلـيهم، ثـم أعيدوا إليهم قتلة وجلاوزة، يُلهب حماسهم ويُشبع غلواءهم الثنـاء الفضـفاض لفظاعة تنكيلهم وشناعة فظائعهم بجذورهم.!..

همس كمال للأومباشي، فأذاع أنَّ هذا الرأس يقول:

ــ : (إنكم لحراسة أولئك الناس، والمحافظة على حيواتهم، ريثما يصـلون حيث يُراد لهم أن يتكيفوا مع الصبر.!..).

ثم أمر بدفن الرأس في قبر ألكسندر، فسمع همسات حذرة:

ــ : فيمسي تنيناً برأسين.!..

وأشار للسائس أن يأتيه بحصانه، فامتطاه، وانكشفت له نظرات العسـكر، فألف منها معنىً لم يره فيها من قبل. سرَّه ذلك، لكنه تساءل:

ــ : (أحقاً لمحت فيها ذاك المعنى.؟.. أم أنني واهمٌ.؟!.. أم خيّل إليَّ أنني أرى ما أتمناه.؟..

نظر إلى الأومباشي نظرةً كفعلِ الأمرِ.. ثم راحا، وخرج الضابط عثمـان إلى العسكر متوجِّساً، فلمح الحصان والبغلة، وقد أقفيـا، يختفيـان فـي حنيـة المنحدر وانكساره، صعد الرجم ورفع يده. تراكض إليه العسكر مصطفين قدامه فاطمأن، وزفر هواءً وريبة حبيسة، فعقد يديه خلف ظهره، مستعيداً ثقة كانـت للتو مزعزعة، ولم ينبس ببنت شفة.

ائتكل غضباً مما كان من كمال وتمتم:

ــ : (أتبغي كسب ودِّهم فيصبحون أقرب إليـك، أكثـر مـن خضـوعهم لصرامتي..؟!.. بسيطة.. يابن الحلبي والنابلسية.!.).

وحين همد وحفيف ثيابهم ودربكة أرجلهم، ران الصمت فقال:

ــ : قد أمرت أن يُعرض عليكم رأس ذاك العريف، وقد دفع حياته ثمـن

سذاجته، وإنكم لكواسر، ومن لم يكن ذئباً تجرأت عليه الكلاب. تعاملوا مع الناس على أنهم يريدون رؤوسكم، فحذارِ أن تأمنوا جانبهم، وأن طائراً في السماء فوقكم، قد يحمل بين مخالبه حجراً، ليرميه على رأس أحدكم فيموت. أطلقوا النار إن رأيتموه، ولتفتت طلقاتكم مخالبه والحجر الذي بينها، ولا يقولنَّ أحدكم إنه ربما حمل وردةً، فأمثالكم لا أحد يتعامل معهم بالوردِ، ولقد أمرت لكم بمزيد من الطعام. كلوا أيها الكواسر، وليتوزع الحراس كلٌّ في مكانه، ولا تنتظروا أوامر جديدة الليلة من أحد فقد أرسلت الضابط والأومباشي في مهمة..

انصراف...

****

وكان الناس قد اجتمعوا حلقات، حلقة داخل حلقة، يسمعون ما يقال ويناقشون واقع الحال.

ــ : أما أن تزعزع الأهوال، خير ما فطرتم عليه من تقاليد راقية، فتلك مصيبة دونها دمنا الذي أهرقوه، تماسكوا يا ناس وإلا ذرتنا ريحهم العاتية، فلقد استهدفوا البشر والشجر، والصمت من حولنا مريب... مريب...

ــ : اللعنة على من كان السبب، وقد أمسينا في برزخ...

ــ : طز بالخوف من الموت، مادام يرضخني لعيشة لا تفرق عنه..

ــ : لسنا أول من حيكت ضدهم مؤامرة، ولسنا ضدهم لولا أطماعهم، وإن صدق حدسي وما علمتني إياه الأيام، فسوف نسمع عن أناسٍ في أماكن أخرى؛ أخباراً تشبه ما حدث لنا.

ــ :خسرنا أمام جبروت الطغاة فلنحاول الكسب مع من يدّعون أنهم أصدقاء.

ــ : خُدِّعنا أيما خديعة، فهل نفهم أننا مدعوون لنسلِّم بخديعة أخرى..؟!...

ــ : كفانا حسن ظنٍّ بالغاشم، ونحن في موقع الغشيم.

وسئل الشاعر، فطفق ينظر في عمق الظلمة، ثم قال:

ــ : حتى الغربان على أطلال الخرائب، يمكنها أن تكون مشهداً بالغ الجمال. الليل لا يدوم مهما طال، والشمس تبتسم أولاً، ثم تصنع نهاراً.

هتف أحدهم صائحاً:

ــ : كل قول هراء.. هراء.. هراء.. ضعنا... نضيع.. ولا شيء غير

الضياع.

وردَّ عليه آخر:

ــ : اليأس بداية الانتحار.هل تدرك ذلك.؟..

ولعلَّ كلاماً كثيراً كان سيقال، لولا وصول الضابط كمال والأومباشي خلفه على بعد خطوات، وأظهر تهذيباً فوق ما توخاه القانطون والمتلهّبون غضباً:

ــ : أتقبلون ضيفاً أيها الطيبون.؟.

ظلوا في صمت كأنهم بلا ألسن. حيّرتهم مواقفه، ولم يأمنوا جانبه بعد.

بادره أكبر الموجودين سناً:

ــ : تفضل إن كنت ترضى بنا أهلاً..

أردف أحد الوجهاء:

ــ : فإن لم تنظر إلينا على أننا دونك فأهلاً بك، لا تأخذ كلامي على محمل الصد، فهذا ما لقيناه من جملة ضبّاط، كوتنا غطرستهم.

ابتسم وهو يضع رسن حصانه بيد الأومباشي، وأخذ الكتاب والشمعدان، ورفعهما حتى رآهما الجميع، ثم وضعهما على حجرٍ وسط الحلقة، صمت وهم ينظرون إلى هاتيك الأشياء، وبحث عن العجوز بين الحاضرين، وانتبه إليهم كأنهم يسألونه تفسيراً لهذا الإبهام.

ــ : لم أجد لهما مكاناً، فجئت أتركهما أمانة لديكم.

للحظاتٍ شعر أنه في ورطةٍ، ماكان له أن يزج نفسه فيها.!. اختلس نظرة يبحث عن العجوز، فلمح الأومباشي ناعساً:

ــ : أومباشي .. كن يقظاً، فقد أصطحبتك لتشهد.

انتفض محيياً مؤكداً يقظته، والتفت الناس بعضهم نحو بعضهم، ثم عاودوا انتظار ما سيكون، وهو ينتظر غير هذا الصمت الخانق، أدار رأسه يتطلع في الوجوه؛ حائرةً ومحايدةً ومستفهمةً ومندهشة، وتلك التي لا يستطيع سوى خالقها أن يفهم منها أي معنى، كأنها قُدَّت من اللامعنى، فإما أنها ذات قدرة عجيبة على ألا ينعكس عليها أثر مما يعتمل في داخل أصحابها، أو أنها مثل مرايا تآكل طلاؤها، ولمّا يزل ينتظر، وياله من انتظارٍ مقيت، يبدو ساكناً، وفي هدوئه أعتى القلق، وأقسى معاني الضرب على الأعصاب.

ـــ : (أكاد أكون جملة عصبية فحسب، منذ قررت التصدي له، وهـــا قـــد أمسكت بخيطٍ قد يودي إلى حقيقته..)..

نفض رأسه متنهداً وقال:

ـــ : حسنٌ..قد وصلني جوابكم...

التقط الكتاب والشمعدان وصاح:

ـــ : أومباشي.. هيا بنا.

وقف كبير الوجهاء قبالته، واضعاً عكازه في طريقه، فأحاطوا به:

ـــ : إلى أين.؟.

ـــ : يجب أن أذهب.

ـــ : سألتك إلى أين.؟.

ـــ : إلى حيث أخفيهما...

قال أكبرهم سناً:

ـــ : عيب..!.. فلا ترتكب معيبة، انظر في هذه الوجوه؛ واختر من تأتمنه على وديعتك..

اشرأبت نحوه أعناق، وامتدت إليه أيدٍ، وهاهي وجوه تعكس الدواخل، وقد انجلى جلّ الشك، وانقشعت ريبتها، وكلٌّ منها تقُريه هتافها:

ـــ : (أنا مكمن سرّك.).

قال منفعلاً:

ـــ : الأمانة عندكم جميعاً، تصرّفوا بها كما ترتؤون، والأيام تكشف إن كنا سنحتاجها.

ـــ : وضعت في أعناقنا ما سيدلّك على مروءتنا.

عانق كمالٌ الوجيهَ، وسرت همهمة وضحكات انفراج، وسأل عن العجوز مبدياً رغبة في زيارته، فتأبط الوجيه ذراعه، وسارا معاً، والنـــاس يتشـــاورون عمن يختارون لحفظ الوديعة، قال أحدهم مشيراً إلى الشمعدان:

ـــ : قد رأيت مثله.

ـــ : أين.؟.

ـــ : عند بعض الخزريين.

*****

خاطب كمال العجوز وفي عينيه نظرة ودٍ:

ــ : قد تلدغ العقرب حصاناً، لكنها تبقى حشرة، والحصان يظلّ أصيلاً.

تباهى العجوز بالمديح، فهمس في أذنه الوجيه:

ــ : لك أن تنفش ريشك مثل ديك رومي؛ لوكانت ثمة لدغة أصلاً.

حبس العجوز حنقه ممتعضاً، وقد ذهبت متعة المديح، ولمحَّ كمال إلى أن الرسالة وصلت، فخيّم صمت، وامتقع وجه الحسناء، وطأطأ الوجيه رأسه متثائباً، كأنَّ الأمر لا يعنيه، وأبدى العجوز مكراً، فاستفسر إن كانت ثمة رسالة وصلتهم من الأستانة، فقطع عليه محاولة التهرب، موجهاً كلامه إلى الحسناء:

ــ : خدمتني إذ ربطتني في خيمته، كان ذلك دليل براءتي، وإلا لما توانى عن اتهامي بما حدث، ثم إنني مدين لك باطلاعي على كتاب، ليس سهلاً الحصول عليه.

ــ : الكتاب الذي جلبته إلينا.؟!..

والتفت إلى الحسناء سائلاً:

ــ : أليس هو الذي وجدتِه في صندوق الضابط عثمان..؟..

هزَّت رأسها بالإيجاب فهتف:

ــ : بدأت أفهم. كمال يا بني، أقسم أنكم مستهدفون مثلما استهدفونا، إنها كحكاية حصان طروادة، أتعرفها.؟.. عسى حدسي أن يخطئ.

حاول العجوز أن يوقف اندفاع الوجيه في كلامه، وهو مَنْ تَحفَّظ على ثقته وابنته بالضابط هذا، ولم يأبه بالمحاولة. حكَّ فروة رأسه وأردف:

ــ : بدؤوا تسللهم الثاني منذ سنتين إلى بلاد الزيتون(فلسطين). ألم تسمع بذلك يا بني.؟..

ــ : بلى.. وسمعت أنهم يبحثون عن وطن بلا شعب.!!..

ــ : ألسنا شعباً.؟.. هل كنا يوماً منذ آلاف السنين بلا أرض.؟!. أسمعت بشخصٍ يدعى "فكتور جاكسون".؟

ــ : لا..

ــ : لو سألت الضابط عثمان لعرفه.

ـــ : بل لأنكر معرفته به.

ـــ : إنه في هيئة تساعده أن يكون زعيماً في الأستانة، فإن كان ذلك فقد سمعنا ورأينا العجب.

وران صمت ثقيل، فقطعه كمال سائلاً:

ـــ : هل سمعتم بعبد الرحمن الكواكبي.؟.

ـــ : ومن يكون.؟.

ـــ : إن قرأتم كتاباته عرفتموه. حثّوا شبابكم على قراءته.

ـــ : عبد الرحمن الكواكبي.!. لا تنسي هذا الاسم يا بنيّة.

ـــ : وما وقع رسالتنا عليه.؟.

ـــ :لعلها تكفّ أذيته عنكم إلى حين.

ـــ : إلى حين فحسب. الأمر كبير.. كبير يا بني.

اقتربت مترددة، هامّة أن تقول شيئاً فأحجمت عنه، ولاحظ كمال ترددها فسألها أن تفصح، فنظرت إلى أبيها والوجيه، أومأ الوجيه لها فسألت:

ـــ :أصدقنا القول، هل أنت معنا، أم تراك تستلغنا في منافستك عثمان.؟..

لم يتردد بقوله الصريح:

ـــ : معكم حتماً.

مدَّ العجوز يده، فوضع كمال يده بيد العجوز، وضمَّ الوجيه بيديه يديهما، فابتسمت الحسناء، ثم ضحكت بسرور، خجلت فبدت أبهى فتنة وأنوثة، ومسحت عن وجنتيها دمعتي فرح.

افتتن كمال بها، وهي على هاتيك الحال، وهمَّ بالانصراف، فهتفت:

ـــ : كمال .!.

التفتوا إليها باندهاش واستنكار، فأطرقت، ثم شمخت عاصرةً أصابع يدها في كف يدها الأخرى وأردفت:

ـــ : كمال أيها الضابط.. وديعتك ستؤول إليَّ، وستجدها عندي متى أردت...

هزَّ العجوز رأسه مؤمنّاً على كلامها، وربّت الوجيه على كتفه، ومضى متأبطاً ذراع الضابط، بينما وقف العجوز يشيعهما ووجهه يطفح بشراً.

اقتربت فوضع يده على كتفها، ثم ضمّها بذراعه إلى جنبه، فزنّرت خاصرته بذراعها، ومشت معه نشوانة بدفء الحنان، عائدين إلى الداخل، حينئذٍ رفع الشيخ الإمام أذان الصبح.

****

حين أشرقت الشمس، كان العسكر يطوّقون الناس، وهم يلملمون حاجاتهم، دون أن ينسوا ذا نفعٍ، وساقهم العسكر إلى سفح الهضبة، وقد أصبحت جرداء، ما خلا قبر ألكسندر شاهداً أن ثمة حياة كانت عليها، وزحف الناس نحوها مثل حبل من النمل سرى بين موقعين، وتخلّفت نسوة عند قبور الفقداء...

كان الضابط عثمان قد اتخذ مكانه تحت مظلّة تقيه لفحة الشمس، ومن حوله الكتبة وكبير الطهاة ومعاونوه، والأومباشي يتلو فرماناً وهو منتفخ الأوداج؛ يكاد لا يلتقط أنفاسه:

ــ : ويتمّ توزيع الجعالات وفق الأسماء التي تُسجّل لدى كتبة ديوان المسير في "الدفتر خانة" و....

وقف العسكر في صفين، يمر بينهما الناس فرادى، يتمّ تفتيشهم على الجانبين، حتى يصلوا أمام الضابط على مسافةٍ أطول من أي سيفٍ، ولم تكن الجعالة ذات شأنٍ، وبعضها خليط علفٍ أنفت منه الدواب، وحين اعترض كمال، كان ردّ عثمان لا يقبل النقاش، فإطعام العسكر هو الأهم، ثم دوابهم، ثم أولئك الناس، وليعتمدوا على البقية الباقية من حيواناتهم، يذبحونها أو يستبدلون بها أصنافاً في الطريق، ولهم أن يصيبوا مما في الأرض وهي عشيبة.!!.. وطفق يكرر:

ــ : أليس كذلك يا صديقي الضابط كمالاً.؟.

ويردف:

ــ :نعم هو كذلك.

فيعقّب قائلاً:

ــ : إذاً لسنا مختلفين في شيءٍ، كما ترى يا مولانا الشيخ الإمام.

وفاجأهم بأنَّ واحداً منهم لن يحصل على شيءٍ، ولن يُعرف بغير الاسم الذي مَنَّ به عظمة السلطان، ويسجّله الكتبة في "الدفتر خانة"، ومضى يُطلق عليهم الأسماء كيفما شاء، متذرعاً بقائمة مابرح يلوّح بها؛ على أنها من قصر يلدز في الأستانة.!!.. والأومباشي يوصيهم مؤكداً أن يحفظوا الأسماء الجديدة،

وإلا...

وحين اعترض أحدهم، تولاه العسكر بأعقاب البنادق حتى كوّموه.

وهمس الضابط عثمان للأومباشي، فأطلق العنان لصوته معلناً:

ــ : هذا وبش، على حافة السقوط في الكبائر، وسيبقى دون اسم، وسيان هو وأي بغل شموس.

اعترض الوجهاء، وناصرهم الضابط كمال، فردّ الضابط عثمان غاضباً:

ــ : إنها أوامر عظمة السلطان، فهل بينكم من يخالف أمير المؤمنين أيها الكبراء..؟!

تقدمت الحسناء، وكاد يلفظ لها اسماً، فاقتحمت المكان. بحضورها الأخاذ، ونقرت على منضدة الكتبة، دون أن ترفع نظرها عن الضابط قائلة:

ــ : اسمي قمر، ولن يكون غير ذلك...

بُهت عثمان أمام هذا الوجه الصبوح، مخرّشاً ببعض آثار حب الشباب، وتينك العينين اللتين تشعّان ألقاً وإرادة، تفيضان أنوثة، وتتقصف الرغبات على عنق كالمرمر، وكتفين كالأجنحة، وخصر يكاد لا يذكر..!!...

غصَّ بريقه وهمس:

ــ : قمر.!. إنك كذلك، ومن يجرؤ قول عكس ذلك.؟!..

وسرت همهمة بين الناس، فهذا يسأل عن اسم الآخر، وذاك يشتم حانقاً، وآخر يردد اسمه ضاحكاً غير مصدق..!.. وثمة من استوعب اللعبة فذهل ولمّا يزل، وهذا ينتحب شاعراً بمرارة أن يُلغى وأن يُمسي شخصاً آخر، والضابط يردد في نفسه:

ــ : (لو تعرف يا ألكسندر كيف تغلّبت على مكرهم.!!. هو ذا النسخ والمسخ أيها "الغوييم" مادمتم على ما اعتقدتم، واستعدوا لما هو أعتى أيها الأوباش.).

وأصدر أمره أن تستعد القافلة لمتابعة المسير، وقد اختار فرساً للضابط كمال، تليق أن تساير حصانه الشبوب.!.

****

5

ابتعدت مقدمة القافلة عن أنف الجبل، تتسلق ذاك المرتفع البعيد، وهـــاهي نهايتها تتابع حركتها، كأنها جزء من مخلوق أسطوري؛ اختفـــى وســـطه فـــي الوهدة، فبدا برأس وذنب تفصلهما مسافة غير قصيرة؛ تربطهما تلـــك الحركـــة المتتابعة، وكلما تقدم الرأس، ازداد العنق طولاً، وقصر الذنب، ثم تنـــاهى فـــي القصر حتى اختفى، بينما الرأس يتقدم والجسد يتبعه، لكأنه شقّ الأرض وخرج من باطنها. وحين ارتفع النهار بدت تحت أشعة الشمس والجو ســـديمي؛ مثـــل إحدى الفقاريات الخرافية، تتحرك ببطء يتناسب وضخامتها، أو أنها عليلة آلمها الوجع فجعلها تتململ فتبدو متحركة ليس بهمةٍ، إنما بدافع ذاك الوجع المختـــزن في أوصالها ومفاصلها، تتابع الزحف وقد تبثّر جلدها وخدّشه الـــدود، وتجمّـــع النمل في الخدوش، فتحركت هاربة منه وهي تحمله.!.

وكلما تقدمت في السهوب، تعرَّت الأرض من كسوتها الشـــجراء، متلفعـــة بشجيرات وأعشاب، تتستر بها من لفح الشمس ودودة ولـــدودة، تسقســـق بـــين جنباتها طيور السمرمر والسُّماني والسِبدان، تفرُّ حائمة أسراباً وواحدات، فـــوق أرض سافرة هنا محتجبة هناك، تخددها المسايل وآثـــار انجرافـــات، تجـــددها أمطار المواسم، وبذا شرع الطقس يقلب سحنته، والطبيعة تغير فروتها بغير ما اعتاده أهل القافلة، فأصابت أغلبهم حالات وأمراض لم يعهدوها، خـــارت لهـــا قوى بعضهم، وانحرفت أمزجة بعضهم الآخر، وفترت في كثير منهم ما تبقـــى من مكابراتهم وشكائمهم، وتعكر صفو معظمهم، فأضحوا كطيـــور البطريـــق؛ انقشع الثلج من حولها، وجفّت المياه تحتها، وهم يمرون بـــين ســـمع الأرض وبصرها.

انتبه الضابط كمال إلى ذلك التغيّر الذي أصابهم، وحار في أمـــرهم، ولـــم

يدرك ما ألمَّ بهم، لكنه فسَّره على أنه تراكم الآلام في نفوسهم الكلمى وتساءل:

ــ : (لِمَ يزداد وضعهم سوءاً.؟).

سأل الضابط عثمان عن ذلك فابتسم بمكرٍ ولم يُجب، ألحَّ بالسؤال وطفق يبحث عن السبب، علّه يتدارك الأمر فيسعفهم، لجأ إلى الأومباشي وسأله فأجاب:

ــ : ستتحسن أوضاعهم كلما مضينا بهم قدماً. لابد أن يتأقلموا، ولا شيء يدعو للقلق، فحتى الدواب تحتاج لفترة تعتاد خلالها جديد الكلأ الذي ترعاه.

ضرب جبينه بباطن كفه وصفَّر صائحاً:

ــ : تباً للظلم.!. إنهم يقتاتون الأعشاب وجذور النبات منذ حين.!. كيف لم أفطن إلى ذلك.؟

اقترب من صاحبه العجوز يسأله:

ــ : كيف ترى الأمر أيها العم داود.؟.

نظر طويلاً في وجهه وهمس:

ــ : حتى أنت تناديني بهذا الاسم الغريب عني.؟!..

أحسَّ بالحرج، وشعر العجوز بتأثير عتابه على كمال، دنا من فرسه، ومدَّ إليها كفه مبسوطة ببعض الجعالة، فشممتها وعافتها، فنثرها وهمهم بمرارة:

ــ : أصيلة فرسك هذه، لم تقبل بهذا الذي يعلفنا به ضابط الأستانة.

انهار المدعو نوح من إقياء وإسهال، ثم انهار كثر، وأعلن الحكيم إدريس عن موت موسى، وتتالى عدد الموتى يزداد باضطراد.

تنهد المدعو رشاد وصاح:

ــ : جذور لعينة أيها الضابط عثمان. هذا لا يليق بابن آدم قطّ..

واحتج المدعو أصلان قائلاً:

ــ : الكلاب.... يطعموننا علف الدواب. تباً لهم، إنهم يزقموننا الزَّقوم.

حوقل الشيخ الإمام وابتعد صامتاً، ولم يأبه عثمان بما يُقال، وكان على صهوة حصانه، يقطع المسافة بين مقدمة القافلة ونهايتها، كأنه في سبق أو رهان، فتصدى له فتاه عثمان السِّكّيت، وكاد الضابط يسقط عن صهوة جواده، وقد شبَّ فجأة على خلفيتيه، مدَّ يده إلى غدَّارته، لكنه أمام فتاه الأثير.!.. صرخ الفتى فاقداً السيطرة على أعصابه، خارجاً من سكوته الطويل:

ـــ : اللعنة... لماذا لا تُصاب أنت وعسكرك بما نُصاب به نحن.؟.

نزل إليه وشرع يصفعه بيمينه وشماله، فأمسك الفتى ذراعه ولواها حتى كاد يخلعها، ثم قبض على حزامه ورفعه فوق رأسه، دار مرات ثم طوّح به وجثا فوقه يخنقه، فركله الضابط بين فخذيه فسقط متلوياً، وجرَّه من فروة رأسه وأوقفه، وأمسك بأنفه وهزَّه بعنفٍ هامساً:

ـــ : أيها الحيوان، مادمت أدركت الأمر، ما الذي يعمي قلبك ويمنعك أن تكون واحداً من العسكر؛ بل من أفضلهم وأقربهم إليَّ.؟.

لم يترك له مهلة، ودفع به إلى العسكر فاعتقلوه، وأمرهم أن يربطوه في إحدى عربات الأرزاق، مؤكداً على كبير الطهاة أن يفتح له علب الدبس وأكياس التين، ويقدم له "جق ملبن وبصطيق". ثم اقترب منه ومسح على وجنتيه حيث صفعه وهمس له:

ـــ : هل تحب اللحم المقدد.؟. ستجد أنواعاً وأصنافاً منه، لا يحلم بها قومك.

مضى إلى مقدمة القافلة، دون أن يوافق على التوقف لدفن الموتى، مخافة أن ينتهز الناس الواقعة، فيجدوا فيها فرصة تتفتق خلالها جروحهم، والاحتمال قائم بانفجار أحقادهم، وهي كدمامل انفثأت، لكنه قبل ـــ على مضض ـــ تخفيف سرعة القافلة، ريثما يلحق بها أولئك الذين سمح لهم إنجاز مراسم الدفن، يراقبهم أنفار من العسكر.

أصرّت قمر أن تبقى معهم برغم معارضتهم واستنكار بعضهم، فأسكتتهم بقولها:

ـــ : يجب أن أعرف كيف يتم ذلك، فقد أضطر لدفن أحدكم، مادمنا في ظروف مفتوحة على احتمالات.

ولم يأبه بإلحاح الضابط لإطعام الناس، راوغ ثمَّ ردَّ بمكرٍ:

ـــ : ليس قبل أن أقطع بعسكري المفازة، وأطمئن على سلامتهم.

ـــ : المفازة سببٌ كافٍ لتوزيع الماء، وتحسين الجعالات.

ردَّ وهو يجّهز بندقية الصيد:

ـــ : كمال يا عزيزي.. العسكر أهم...

ومضى يتعقب طيور السُّماني والسمرمر، وبعض عسكره يتراكضون

فيلتقطون ما يصطاده، وهو جذلان؛ يسرّي عن نفسه، فتبرق أساريره...

****

حين أتموا دفن موسى، سأل الشيخ الإمام:

ــ : من يأخذ عزاءه.؟.

نظر الحاضرون بعضهم إلى بعضهم، وزفر أحدهم متمتماً:

ــ : ليس له أحد، فهو آخر عائلته..

تلفَّعت قمر ونبرت قائلة:

ــ : إني آخذة عزاءه.

أُحرج الشيخ، وأسقط في يد من هم حوله، فتقدم الشيخ يعزيها وتبعه الباقون، وحين اقترب نعمان قالت:

ــ :أيها الشاعر.. احفظ أنه ــ أيضاً ــ آخر عائلته، وبموته طُويت صفحاتها.

عضَّ نعمان شفته فأدماها، وانفلتت قمر هائمة، تغني مرثيّة بصوتٍ شرَّخه الأسى، ورددت صداها جنبات البرّية، فتوقف الدمع في المآقي كبلوراتٍ متلألئة، وجرجر الرجال أرجلهم، وترجّل بعض العسكر عن دوابهم، ومشوا جميعاً في مهابة، فالحزن على قسوة المآل رباط يشدّ القلوب في مصائب تجللها وطأة الموت، وراح عسكريان يلهوان عابثين، وقد وجدا فرصة للتنفيث عن كبتهما، مطلقين مكنونات نفسيهما من عقلها، ولحق أحدهما بقمر يتفرّسها ويرجمها بسهام نظراته المتجمّرة.

طلب الفتى عثمان السكّيت من حارسه أن يفك وثاقه، وهو يتماسك كي لا يتحدَّر بوله، فلم يأبه له، فهدد أنه سيتبرّز، وحين ترجّل توارى خلف رجم يفك سراويله على عجل، والحارس يراقبه بقرف، وفوجئ كبير الطهاة أن الفتى أتى على كثير من حمولة العربة.!...

وما برح يطحر موهماً الحارس أنه يقضي حاجة، بينما يفرغ عبّه وجيوبه حتى إذا ما اقتربت جماعة المشيّعين، أشار لقمر إلى الأطعمة، ومضى ضارباً على بطنه كأنه تخفّف فاستراح، وكبير الطهاة يزوره ريبةً، بينما كان الحارس يُعيد شدَّ وثاقه، شعر براحة تملأ جوانحه، وقمر تأكل وتبتسم له، لحظات يشتريها بردحٍ من عمره، إنها وحدها سعادته، وإن لم تعرف مافي قلبه الشفيف،

ومشاعر مشعّة كالجمر، وهو الجَلْدُ:

ــ : (ألهبتِهِ مذ رأيتك قبل زواجك ولم يفتر. لو تدرين كم حقــدت عليــه، تمنيت أن يموت، ولم أقتله برغم أنني حسدته طوال الوقت، ولم أقايضه بــذهب أغراني به عسكر القيصر، لكنني لم أسعفه حين جرح، وما استجبت لاستغاثته، تركته وفررت بجلدي، فالقصف كان كالصواعق والرصاص كالبَرَد. لأجلــك تنازلت عن أن أكون بطلاً. ما ندمت لكني عاقبت نفسي بسكوتي الطويل، فلــو علمت أكنت تغفرين..؟.

إنني آخر من رآه حيّاً، وحين عدتُ وجدتهُ قد جمد متجلِّداً بدمــه والــثلج كفنه، عدتُ بجثته، فقدّر حموك صنيعي، ولا أحد يعرف أنني عدت بــه كــي تتحققي من موته، فأحررك من ارتباطك به، لعلك بعدئذٍ تكونين لي، فلو عرفت هل كنتِ تقبلين.؟.)..

سأل عبد الله:

ــ : مولانا.. هل ما نأكله حلال.؟..

طال صمت الشيخ وهو يمضغ لقمته، فهتف رشاد:

ــ : نعم.. إنه حلال.

ردَّ إبراهيم:

ــ : بل هو حرام.

ــ : حلال..

ــ :حرام..

قال الوجيه عبدالحميد:

ــ : هلاّ حسمت الجدل يا مولانا.؟.

تمنى الشيخ لو لم يُسأل، لكنه قال:

ــ : حرام على الأغلب؛ والله أعلم..

ــ : وكيف تأكله إذاً..؟!..

تفَّ مافي فمه، كي لا يقول إنه محسوب على العسكر، وليس عليه حرج، فاحتجت قمر قائلة:

ــ : لِمَ تُحرِّمه يا مولانا.؟.

ـــ : لأنه مسروق.

ـــ : ممن.؟.

ـــ : لا رزق بلا صاحب...

ـــ : فمن أصحابه.؟.

ـــ : العسكر. وهم على سفر.

ـــ : ألسنا أيضاً على سفر.؟!. أما دفناهم للتو وقد قضوا جوعاً.؟... الجوع كافر يا مولانا...

اضطرب الشيخ فزفر، وسئل الشاعر نعمان، فقال: وهو يمضغ لقمته:

ـــ : إن لم آكل منه، أكون قد مت انتحاراً، أليس الانتحار حراماً يا مولانا.؟.

امتعض الشيخ فحوقل قائلاً:

ـــ : هذا تلاعبٌ بالألفاظ، وإنني ماضٍ فلغطكم لا يُحتمل.

وأسرع وهو يسوِّي عمامته، كاتماً غيظه؛ متنفساً الصعداء في آنٍ معاً.

وما زال الفتى السِّكيت يغدق على مَنْ حوله، وزاد العطاء لحارسه، بينما أسكت الحوذي بقطعٍ نقديةٍ، وحين اشتكاه كبير الطهاة إلى الضابط، قهقه ثم صوّب وأطلق، فهوى السمرمر بلا رأس ولا حوصله.!..

وأعلن عباس عن موت أمِّه، وأطلق صوته ضاحكاً، والناس من حوله حيارى:

ـــ : أيفرح المرء إن فقد أمَّه.؟!.

همس الضابط لنفسه:

ـــ : (الجوع يعطّل العقل.).

عزَّوا عباساً فرقص.!.

همس الضابط لنفسه:

ـــ : (العطش يكلُّ البصر.).

ولام المقرّبون عباساً فغنى، فقال الضابط لنفسه:

ـــ : (الجوع ينفث اليأس في النفس.).

ونهر الشيوخ عباساً فهتف لسطوة المصير المبهم، فتمتم الضابط لنفسه:

ـ : (العطش والجوع ذبّاحان دون إراقة دماء.)..

جلجلت ضحكة عبّاس ثم خمدت، اضمحلت بسمته وانمحت، رفرفت عيناه وليس من دمعٍ فيهما يخمد الحريق، جأر صائحاً، ذهب منعزلاً، انفرد متشيئاً، هام هبلاً، جرّه أترابه فطوّح بهم، عاودوا الكرَّة ففتك بهم بقوة ثور، تكاثروا عليه فاستنجد بالجدّة نور، طوّقته فهجع في حجرها ينشج، حتى إذا سمع صوت الضابط عثمان، هاج وراح يتخبّط ضارباً بالحجر، ناثراً التراب، عاضاً ظاهر كفه حتى أدماه، ولم يستكن حتى أخذته قمر تطبطب على خديه، ماسحة على رأسه، فابتسم مناغياً، عندئذٍ ربطوه إلى عربة الممسوسين.

***

رمت الشمس جمرات الظهيرة، فتصبب حصان الضابط عرقاً، ورطّب باطن سروايله، فاستبد له بآخر، وآوى إلى عربته الفارهة، يضم إلى صدره صندوقه الأغلى، مغلقاً على ما يدور في خلده، كاتماً في صدره ما نوى إثر حادثة رأس العريف، وبدا بسكوته كرافع راية بيضاء، وقد وضع كمال يده على الشمعدان والكتاب، ولم يشك لحظة أنه ذهب بهما إلى أولاء الأوباش،وما سكوتهم إلا عن نيّة بيّتوها لحين لزومها، وليظن كمال المأفون أنه الأذكى، وأنه أجاد نصب فخٍ يوقعه فيه حين يشاء.

ـ : (وهل كنت آخذهم في نزهةٍ...؟.. أية نزهة لي مع هؤلاء..؟!... أكنت دليل قافلةٍ من "الغوييم"؟... ألمثل هذا أحمل هذي الرتب.؟

وما قيمة ضابط مثلي في حالة سلم.؟. وكيف يهنأ لي العيش مالم يكن أمامي من أتخيله عدوي.؟... لابد لي من عدوٍّ ولو توهمته.. شكّاكٌ أنا، محترز، أؤوّل الوقائع بأسوأ احتمالاتها، فالناس أنجاس، وكلهم موضع ريبة، تحية أحدهم مغرضة، والبسمة مغشوشة، وإبداء الخوف حيلة، وتصنّع الطاعة والاحترام كذب، والنوايا خبيثة، والصمت قناع مخادع، فإن لم يثبت العكس، وقع المحتمل ضمن الحسبان، فتبوء المفاجأة بالخسران. أوقعهم في الظن أنني هادنت، ولشدَّ ما ترضيني بساطتهم المفرطة، وخبثهم الساذج.... وإنهم يتيحون لي بطولة لائقة، ترفع مقامي، وتصلح لحكاية تروى عني، فأكون النجم الذي أردت أن أكونه أيتها الأم الخزرية.). فكَّرَ على هذا المنوال وقد كفَّ عن الضرب والتقتيل، كما فعل بهم من قبل، إلا أنه مصر أن يأخذهم إلى حيث يحقق غايته ويشبع رغبته، فالأرض القفر التي لم تكن يوماً درباً لأحد، كفيلة بفعل ما نوى، يدفعهم إليها وقد استعدَّ لها، وتركهم مجردين من أسباب الصمود،

وهم غافلون عن أنَّ حارسهم هو قاتلهم..!..

ــ : (فإن كانوا أبالسة، فأنا الشيطان نفسه، والعاقبة لمن شحذ ذهنه على مِسّنِّ الزمن.).

أرضٌ منبسطة على مدِّ البصر، لا زرع فيها ولا نبت، والغيم مفقود في سمائها، وليس فيها طير يطير؛ ولا تحتها وحش يسير؛ إلا هم.... أُولجوا العراء، فتلقاهم العجاج، مخروا البيداء فانتخل التراب عليهم هباءً، تطيِّره الريح فيلزق على أسمالهم وجلودهم، ويلتصق بهدب العيون، ويحف بفتحاتِ الأنوف، ويتسرب بعضه متجمعاً في سقوف الحلوق يستثيرها، وينزلق إلى الحناجر، فتنتابهم نوبات سعال وبوادر اختناق، ويلتزج على الشفاه والأسنان، ينسحق منجرشاً بينها، وينجبل بالعرق المغرق أجسادهم، ويزداد العطش، والماء عزيز المنال، فعربة الماء تحت الحراسة المسلّحة، أسوة بعربات السلاح.

فجأةً عصفت الريح تسكُّ الآذان، وحبيبات الرمل تقذي العيون، وتلطم الخدود مثل وخز الإبر ولسع الدبابير.

اشتبك الظامئون مع العسكر، فداستهم الدواب بسنابكها والحوافر ومات شيوخ ومرضى وعسكريان، وماتت امرأة جاءها المخاض في هذا العذاب، وأظلمت الدنيا كأنما انطبقت السماء على صدر الأرض.

احتج الوجهاء فراح احتجاجهم في الغبار، وصوتت النسوة وعلى رأسهن قمر، والريح تعوي كأنَّ قطيعاً من الذئاب مقبل لنهش لحومهن، متهمات الضابط أنه أسود الكبد، مجرمٌ بلا قلب، فردد في نفسه:

ــ : (بل في صدري قلب فحل، فمن أرادت أن تشرب بثدييها، سقيتها بيدي منقوع الزبيب وشراب الدبس، أو فلتضمر أثداؤكن كما التين المجفف.).

وبعد لأيٍّ سكنت الريح وصفت السماء عن شمس أتون محرقةٍ، فدفنوا أمواتهم في كبدٍ. تفدّعت الشفاه وتملَّحت، وتلاعب السراب بالأبصار، أزاغها، وأيبس الصدى الحلاقيم، وجفَّ العرق على الأبدان فصار ملحاً، فثارت عليها بثور ونثور، وفي الأفواه غلظت الألسنة وثقلت، ركع من ركع، وانبطح بعضهم وزحف.

وجوهٌ جَعِدة وبطون طاوية، وقامات عجفاء ناحلة كأعواد قصب زلٍ جفَّت اشتواءً بلفح السعير، فهان قصمها.

ذاك حافٍ وهذا شبه عريان، وذا يمرّغ وجهه بالرمل ينبش من تحته

التراب، علَّ بعض الرطوبة فيه.

شرب الضابط عثمان، وسكب بقية الماء على رأسه وعنقه، فناوله كبير الطهاة كوباً آخر، ثم قدم له قهوة. رشف منها وهو ينظر إلى قمر بعيني متهجدٍ وذئبٍ في آنٍ معاً، عاقداً بينها والصبيّة "أبهى" مقارنة لذا ذات التشهي؛ إن جمعهٍ وإحداهما فراش.

تمضمض وبخّ الماء رذاذاً في عبّه وبين فخذيه، وأتاه كبير الطهاة بشاي كالعقيق، وأَذْهَبَ أحد الطهاة بإناء شراب إلى أثيره وسميّه الفتى السِّكيت.

اقتربت قمر بفرسها من الضابط كمال حانقة، زفرت وهمست:

ــ : وبعد.؟!.

تطلّع إلى وجهها فأحسَّها تؤنبه بنظرة ليس لها تفسير آخر. لكز فرسه واتجه إلى عربة الماء متلفتاً، أمر الحرس أن يبتعدوا، وأوقف العربة وأشار لقمر أن تقترب، صاحت في الجهات من حولها:

ــ : الما.. ء، الماء..

كأنهم ما صدّقوا، لكنهم هجموا دفعة واحدة. شتم عثمان الأرض والسماء؛ وحلب وقلعتها، وأطلق من غدّارته في الهواء، فلم يأبهوا. لقَّم بندقيته الخاصة طلقة "خاصة" وصوّب بدقةٍ، فطيّر كوباً من يد "أصلان".

ساد صمت وسكن الجمع لحظات، وتعلقت العيون بعثمان، فأعاد تلقيم البندقية، دنت قمر من كمال نافذة الصبر ونبرت:

ــ : ماذا تنتظر إن لم تجبن.؟.

التفَّ الشباب الزعّارة حولهما متقطعي الأنفاس:

ــ : دمه أو الماء. مامن خيار. نحن جاهزون.

لاطفتهم مهدئة:

ــ : تقبروني.. لم يحن دوركم بعد.

سايرهم كمال قائلاً:

ــ : اتركوا لي فرصة المحاولة.

وانفرد بعثمان قائلاً:

ــ : الماء للناس، أو أعلن عن الكتاب و.....

ابتسم عثمان رفّة عين، ونادى الشيخ الإمام بصوت كالرعد:

ــ : أذّن يا مولانا فالصلاة ناهية..

وصاح بالناس أن يتيمموا فالصعيد طاهر، وويل لتاركي الصلاة، ولكل ساهٍ عنها..!..

صُعِقَ كمال، والشيخ يؤذّن، ثم أَمَّ الضابط عثمان المصلين لا ويــاً رقبتــه إلى اليمين، وقف العجوز داود بين الوجيه عبد الحميد وكمال، وسأل:

ــ : ما الأمر.؟!..

قال كمال:

ــ : إنه المكر.

تمتم عبد الحميد:

ــ : ماكان من رجال القيصر بكفةٍ، وما نراه من هذا الــنمس المنــدسّ بكفّة.!.

ــ : قال الحكيم إدريس:

ــ : صلاة باطلة..

كان أصلان والزعّارة خلف كمال في الصف الأخير، فســمعوا مــا قالــه الثلاثة، فانسلَّ عبد الله ولحق به توفيق، ولبى أصلان إشارة قمر،ولحقه رشــاد وإبراهيم، وفي السجدة الثانية تلقفوا بنادق العسكر السجّد، استنكر كمال فعلتهم، فأبعده سليمان كأنه يعتقله، هرعت إليهم قمر، وتلقفت من أصلان بندقية، فتبعتها أمينة وجلبهار وفاطمة وجلنار. أخرجت قمر حماها وأباها من صف المصلين، وضمتهما إلى كمال، وأحاطت الفتيات بالجمع مشهرات البنادق، وطوّق الزعّارة المصلين مشرعي الأسلحة.احتجّ كمال فهمست لــه قمــر أن يمتثــل فتجنبــه وصاحبيه المسؤولية. حاول ثنيها ورفاقها عن هذه اللعبــة، فوضــعت فوّهــة البندقية بين كتفيه، وأمرته أن يجثو رافعاً يديه، نظر مستنجداً بالعجوز والوجيه، فوجدهما لائذين بالصمت فامتثل.

بُهِتَ الضابط عثمان، همَّ أن يفعل شيئاً، فانتصبت أمينة أمامه فأبقته قاعداً، نظر إليها بمكر وهمس:

ــ : هل أعلمك الرماية فتكونين أول أنثى في جيش السلطنة.؟.

ــ : تدربت تدريباً كافياً بمواجهتنا عسكر القيصر، إلا إذا رغبت أن تكون

دريئة.

شاغلها بتلفته وصاح:

ــ : أومباشي .. أنفار. نار...

وضعت أمينة فوّهة البندقية بين عينيه، ووثب يوسف فوق الأومباشي وأطلق الزعّارة بين أقدام العسكر، فخرّوا جاثمين، ولمّوا الأسلحة وطمروها في الرمل والتراب، وجرّدت أمينة عثمان من غدّارته وشكّلتها في حزامها، وألقت بندقيته فتلقّفها أصلان، وساد الهرج.

صاح الضابط:

ــ : أيها الوجيه عبد الحميد، إنني أحمّلك تبعة ما يحدث.

ردت قمر:

ــ : الوجيه رهن الاعتقال، لا حول له ولا قوة.

جالت في ذهنه خلاصة حيثيات تراكمت في بواطنه منذ بدء التحضير للمسير، وليلة جاءته "تانسو" برفقة "أولتان" مبعوثين سريين، وأبلغاه أن حاخام الأستانة الأكبر "موشي ليفي" يؤكد عليه أن مهمته في "عينتاب" هي الأُولَى باهتمامه، وعلى نجاحها يتوقف صعوده السلّم، وأن يتشفى ممن أوكل إليه سيد "يلدز" تأمين سلامتهم، بعدما نجح المزروعون في مراكز القوى بإقناعه أن المخلص عثمان، خير من يؤتمن على مَنْ وثقوا بعظمة جلالته.!... ثم يكون جلوازهم تشفياً للخزريين، ولتعنت السلطان دون رغبتهم...

ــ : (تهون الدنيا يا سادتي دون رغباتكم.).

حقن عينيه بشحنة توسّل، وأبدى تضرعاً وخنوعاً، فأبعد برؤوس أصابعه فوَّهة البندقية من بين عينيه، كمن يهش ذبابة، وبدا مهادناً، وأنمّت تعابير وجهه تذللاً ومسكنةً، ورقق صوته حتى قارب الهوان، فأبعدت أمينة البندقية عن وجهه، لكنها ثبتت فوّهتها في نقرته، رضي بهذا الانفراج فلهج بالشكر، ثم قال بصوتٍ مشدود:

ــ : كمال... لا أشك أنك مدبّر مايحدث، وسيعلم عظمة السلطان بخيانتك، وهو يغفر لرعاياه من أخطائهم ما شاء، إلا الخيانة، إنني أرأف بك فأدعوك لترتدع..

ـــ : (إن هي إلا لهجة مبطنة أيتها الأم الخزريّة، علّها تصيب مـــن قلبـــه نقطة ضعف..)..

قال توفيق متهكماً:

ـــ : أين نحن وأنت من السلطان أيها الأغبر.؟!..

ردَّ واثقاً مهدداً:

ـــ : رجاله في "أورفة" و"عينتاب" والوالي في حلب.

هزّ الوجيه عبد الحميد رأسه قائلاً:

ـــ : يبدو واثقاً من تهديده... ولكن..

هبَّ توفيق غاضباً:

ـــ : في أفواهنا ألسنة تبلغهم عما كان منك، فإن لم يسمعوا فســـحقاً لهـــم ولك.

نهره الوجيه قائلاً:

ـــ : فلتخرس يا ولد. لسنا رهن حماقتك.

غمزت قمر لكمال ونبرت:

ـــ : توفيق... اهدأ. اطمئن يا أبتاه، سأعالج الأمر.

ووجهت كلامها إلى الضابط قائلة:

ـــ : الضابط كمال تحت رحمة سلاحي، لا حول له ولا قوة.

عطس أبوها وتلعثم محتجاً:

ـــ : العمى.!.. تحمينه وتوقعين بنفسك.؟!.. أي تهوّر هذا.!..

قال توفيق:

ـــ : أيخيفنا الذئب وهو في المصيدة.؟!..

ردَّ العجوز داود:

ـــ : لو تعلم أيها الفتى كم يكون الذئب ضارياً، وقد جرحته الإهانة.!...

ابتسم توفيق قائلاً:

ـــ : لست بتلك البلاهة، وإنني ممن خبروا الوحوش تماماً؛ وأنت أدرى.

ضحك العجوز داود وسأل:

ـــ : توفيق.. أستحلفك، ألم تكن ثملاً حين صرعته.؟.

ـــ : بلى... كنت وقتذاك في جاهليتي، أكلت فخذ خروف مثوّم، وشـــربت حتى بت أرى الهواء، وأسمع ضحكة النملة، ورقصت بخمسة سيوف مع ثلاث حسناوات، وفي طريق عودتي إلى القرية هاجمني فصارعته. ثم أفقـــت وأبـــي يوقظني، قال إن حصاني دلّهم على مكاني، وجدتُ الـــدب صـــريعاً بجـــانبي، سلخت جلده لأهديه إلى صديقي العريس المحتفى به، لكـــن عســـكر القيصـــر سرقوه مني.ذاك أبي اسألوه.

ـــ : توفيق يا بني، لست الآن ثملاً لتواجه الضاري عثمان، دعـــك منـــه لاعدمناك.

أُسقط في يد الضابط فصاح:

ـــ : كمال... أنا رئيسك وإنني مهان. أنسيت واجبك نحوي.؟.

همس كمال:

ـــ : بدأ يعلك... ألجموه..

قالت قمر:

ـــ : أنا الآمرة الآن، وجّه كلامك إلي أيها الضابط عثمان.

ـــ : ما الذي تريدونه أيتها المحترمة.؟.

ردَّ أصلان جازماً:

ـــ : الماء والطعام والسلام.

لم تنتظر قمر إجابة فصاحت:

ـــ : إلى الماء والطعام، وليأخذ كلٌّ حاجته فحسب، مولانا الشيخ إنك خير من يتولى التوزيع.

قال الشيخ في سرّه:

ـــ : (تورطينني وأنا في غنى عما أنتم فيه..!!)..

هزَّ رأسه محوقلاً، والتقت نظراته بنظرة عثمان، فحوّل بصره إلى السماء. تلكأ قليلاً، وكاد يقول شيئاً، لكنه كتم رغبته ومضى، وأمرت قمر كبير الطهـــاة وطاقمه أن يتبعوا الشيخ ليساعدوه، فامتثلوا غير متحمسين ولا رافضين، قالت:

ـــ : أولموا للضابط، وأكثروا له مما يرغب.

وابتعد كمال محاولاً عدم لفت نظر صاحبيه، تنحنح وهمس:

ـــ : ***(من غنج عينيك أم من لطف معناك أيدي الهوى أوقعت قلبى بأشراكِ).***

استغربت ونظرت إلى نفسها مستنكرة قذارة ثيابها، تأففت متخيلة وجهها وقد تلمسته، وفركت بأناملها الغبار عنه فانفتل متطيناً بالعرق.

هبّت في فمها ضحكة فكتمتها، وتمتمت:

ـــ : (وما قوله لو رآني في عزِّ بهائي.؟!)..

تنهدت قائلة:

ـــ : تتحرش بي. ألا تخشى أن أقتلك؛ ونحن في ظرف وتَّر أعصابنا.؟.

فهمس:

ـــ : ***(وردٌ بخديك أم هذا خضاب دمى فقد أراقت دمى بالسحر عيناكِ.)***

ابتسمت رفة جفن، وكادت الأنثى في داخلها، أن ترق وتعلن عن نفسها، بيد أنها أخنعتها، وقطّبت قائلة:

ـــ : تأدب..!..

صاح الضابط عثمان:

ـــ : برغم أنك سمحت لي بأكل القديد، لكنك ستندمين يا قمر..

ـــ : فات أوان الندم.

ـــ : أيها الضابط كمال، قل لها ما عاقبة العصيان.

صاح عبد الله:

ـــ : ليست من عسكرك لتعاقبها إن عصتك.

ذهبت إليه، وقفت، نظرت في عينيه بعيني امرأة غيّبت أنوثتها تحت همها،كادت تبصق فمنعتها شيمتها. كادت تضغط على الزناد، جحظت عيناه، تدفق الكلام من داخله فملأ فمه، كزّ أسنانه واختزل القول بكلمة:

ـــ : نتفاهم..

ـــ : بدون شروط مسبقة، وهذا شرطنا الوحيد.

جفل عباس الملتاث؛ من طاس الماء حين حاولوا أن يسقوه، صرخ وهذى، اهتزّ وتشنج، تأتأ وبكى واشتكى أنه لا يجيد السباحة، ورجاهم أن يبعدوه عن

هذي البئر العميقة، فهو لا يريد أن يموت غرقاً، وقد ماتت أمّه عطشاً.!..

وحين أدنوا الماء من أحد المحتضرين، فرح المسكين، عبَّ حتى ارتــوى، نظر في الوجوه من حوله ممتناً، ثم ابتسم بطلاوة ومات..!...

ــ : نحرقها ولا نتركها..

ــ : يالك من أحمق..!...

سألتهما قمر:

ــ : علام تتصارع الديكة.؟.

قال عبد الله:

ــ : الأسلحة يا قمر..

ــ : ألا يكفيكم ما غنمتم من سلاح عسكر ألكسندر.؟!..

ردَّ توفيق:

ــ : السلاح ثروة، والثروة لا يكتفى منها وإن زيد عليها.

حسمت الخلاف بقولها:

ــ : لا يطمعنَّ أحد بأسلحة عسكر عثمان. سنسلمها لأول مركز نصــله. ولم تثمر المفاوضات طائلاً، فقد ساقها عثمان إلى طريق مســدودة، فاســتأنفت القافلة سيرها بأمرة الضابط كمال، وعن يمينه الوجيه عبد الحميد، وإلى يســاره أصلان، وأمامهم توفيق، وخلفهم الأومباشي، وأُبقي عثمان في عربته، وبخدمته كبير الطهاة بحراسة أمينة، وعهد إلى العجوز داود أمر عربة المــاء، وتــوزّع الزعّارة على عربات الأرزاق، وأنيطت بالفتى عثمان السِّكيت مهمــة مراقبــة العسكر، ووزعت البغال والخيول على الشيوخ والمتعبين، وقمر تلحظ القافلــة كلها، بينما نعمان ينشد حاثاً على تحمل المشقّة، موحياً بالتطلع إلى أملٍ مرتجى، حتى إذاتعب، تلا الشيخ وتلامذته ما تيسر من آي الذكر الحكيم...

فقدت خطة المفازة والأرض القفر فاعليتها، دون أن تحقق كامــل رغبــة الضابط عثمان، فقد نوى فعل الأفاعيل فأخفق، وبرغم أن ما جرى هائل، لكنــه لم يشفِ غليله، فعذّب نفسه وهويجلدها بأسئلة مقلقة حيّرته:

ــ : (أفعلت ما طُلب منك..؟!... أيكون جوابك "نعم"..؟!.. يا لخيبتك..!! الأرض القفر منحتك فرصة إبادتهم، دون أن تلوث يديك بقطرة دم، وما كــان لأحدٍ أن يتهمك أو يُؤَثمك. الله أراد.. الله فعل...!! ولا شيء يخضعك للمساءلة،

فما عذرك..؟!.. أتبكي..؟! من ذا الذي ينفعه بكاؤك..؟!.. ومن ذا الذي يقنعه دمعك وإن كان حراقاً..؟!... قصّرت؛ لم تقم بما عليك. اعترف أنك أخفقت. أصعبة هذه عليك..!؟.. إذن قل إنك لم تنجح تماماً. مقبولة هذه أليس كذلك..؟!... بيد أن هذه وتلك لا تعفيانك، بقدر ما تضعانك أمام الكير بين الغاية والوسيلة. دعك من الوسيلة، اتركها خارج تفكيرك. الغاية الغاية يا عثمان. ها أنتذا تقر أنك لست مرتاحاً، فماعساك فاعل..؟!... ما زال في الوقت متسع، وفي الطريق بقية...)...

***

سرب الحمائم ما أجمله..!! سبحان مَنْ والفه..!!... سائر الغيد يتهامسن مسرورات، غناؤهن كالهديل وأرخم، بعث بهجة تجلو الغُمة رويداً، وروْداً سرى بين الأخريات همس النغمات، فأشعن بعض الفرح في جوف كآبة فراغٍ فتّاك؛ فأغظن الجدة المهيبة نور، فزجرتهن سائلة:

ـ : ما الذي جعلكن تقوقئن كالدجاجات..؟!...

ـ : فرحات أيتها الجدّة...

ـ : بِمَ..؟!..

ـ : بنصرنا على الضبع عثمان...

قالت الجدة وقد شخص بصرها:

ـ : خاسرون نحن، حتى لو تحولت هذي الأرض فراديس...

ـ : ما الأمر أيتها الجدة..؟!...

صاحت:

ـ : سليمان..

أوقف بغلته ممتثلاً والتفت إليها..

ـ : تعال

اقترب مترجلاً، وسار بجانب العربة مصغياً...

ـ : أفهم هذه الزغاليل معنى أننا خاسرون.

هزّ رأسه طاعة؛ وتنهد خلسةً ثم قال:

ـ : جدتي عارضت أن نترك أرضنا..

تلعثم وغصَّ فسكت. نظرت إليه غير راضية، وهزأت:

ــ : وأوأ ابن الوجاهة مثل جرو وصمت. مابك..؟!... أتخجل أن تذكر ما قلته للآثم أبيك...؟!.. أم تراك خجلاً لأن قولي بفعلته كان صائباً..؟! خجلك هذا لا يساوي حفنةً من مزبلة قريتنا يا ولد...

كزَّ أسنانه أسىً وزأر:

ــ : كرمى لروح جدي.. كفى..

سحب بغلته وابتعد..

ــ : هه..! هرب..!!.. من يهرب من عيبه لا يتطهر منه..

أوقفت العربة فتوقف من خلفها الركب، حدّقت في الوجوه المترقبة وصاحت:

ــ : الأرض كالعرض ولا مسوّغ يفصلهما.

ورددت بكائية ضبطت إيقاعها بنقر عصاها، وعلا صوتها، فانتقلت العدوى إلى العربات الأخر، تفاقم الغناء البكائي وارتفع، نبتت له أجنحة، رأته الجدة يتحوّل أطياراً، تجوب الفضاء فوقهم، تذهب إلى هناك، إلى حيث الحلم كان يعطي للحياة معنى الحياة، أكدّت أنها ترى ذلك، ترى القمم تتدلى منها أجنحة من الخضرة، تصنع قباباً ووديااناً، تشرق في أحضانها عيون من الينابيع والبحيرات، مشكّلة حالةً حميمية بين السماء والأرض؛ الأرض التي جعلها الخالق جنة لذاته الجميلة، ولأنه أحبّ أولاء، أعطاهم جنته الأخاذة تلك...

انتهز الضابط عثمان الحالة فنبّه الضابط كمال، إلى هذا العويل المنفلت من كمّامات الصدور، وأكد على خطورته، فهو جمر وإن غطاه الرماد؛ إن هبّت ريح نفوسهم أذهبت الرماد، وجهجهت قبسهم، فتتقد نارهم، عندئذٍ تحرق ولا شفيع، فالقانطون مطموسة أبصارهم وبصائرهم، خطرون هم، ومن الغباء معاملتهم بغير هذا المفهوم، وما قمر إلا طائر رخمة غدّار، زيّنها في عينيك الحرمان يا كمال..

أقلقه الكلام، والتقاها مرات محاولاً تلمّس مافي قاع نفسها من نوايا. حذراً جسَّ الهواجس وظل نافراً، وكلام عثمان يقرع ناقوس الريبة في نفسه، ولاحظت قمر فتوره، ولم يقنعها ما أدلى به مقتضباً، أنه منشغل البال بأهله.

وماكان الفتى السِّكيت يراقب العسكر؛ بقدر انشغاله بمراقبتهما، وغيرته تشتعل ملهبة خياله؛ فَيُسْمِعه ما لا يقولان، ويُريه مالم يكن منهما، فاستغلَّ

الضابط انفعالات أثيرة، فنفخ بزهوه، كيما يجعله طاووساً، وامتدح فتنة قمر فاذاب أطراف قلبه، وملأه اهتياجاً وجوى، غامزاً في قناة غريمه، وأنها مأخوذة بجرأته، وهي الأرملة المقسورة على الحرمان، وقد عزف على وتر وحشة فراغها، فيما هو يضمر ويكبت، كأنه غافل عن فعالية الثناء في الغانيات، فأعاده إلى الساح مشحوناً برغبة إثبات ذاته، فالقوة تحسم الأمر، وأين كمال من قوّته..!؟..

وحين توقفت القافلة قبيل الغروب، في موقع مناسب للمبيت، انصرف الخلق لتدبير شؤونهم، وذهب كمال يتحرى محيط المكان، (ولرغبته بخلوة، يتفكّر خلالها، فكلام عثمان ما زال يصدِّع رأسه)...

لحق به الفتى السّكيت، وقد نوى الإفادة من قوّته المختزنة، وهي فيصلٌ هذا أوانه؛ لعله يكسب قمراً.

ذهب كلام كمال هباءً، ولم تجدِ محاولته للتفاهم مع الثور الصامت نفعاً، ولم يجدْ سبيلاً غير أن يصطرعا، فأثخنته الجراح ووسمته الكدمات، قبل أن يُهرع إليهما بعضهم فيحجزوا بينهما.

وإثر تفشي الخبر، عقد الشيوخ محكمة بكامل هيئتها من كبار السنِّ والضالعين بالأعراف، وحرّاس التقاليد المتوارثة مشافهةً وممارسةً، وجوهر تشريعها الأخلاق وقدسيتها، يتساوى أمامها الكبير والصغير من الذكور، كذلك الأنثى، وإن حظيت بإجلال الجميع لها، وأحكامها مبرمة ملزمة، أما مخالفتها فخروج على نهج الجماعة، وللمسألة عندئذٍ تدبير آخر..

وكانت بهجة الضابط عثمان عارمة؛ إذ نال من كمال وهدَّ أنفته، وأثبت له خطأ مضيّه بعيداً عنه بتحالفه مع أولئك "القرباط"!!... وبيّن له أنه والأومباشي سواء بسواء، مادام جرّدَ عسكره من أسلحتهم، وتركهم كرعيان ماعز بلا عصيٍّ، فمكانته منوطة بقوة عسكره، وإلا فلا معنى لأن يكون ضابطاً، أما خلافهما فهو واهٍ، وضربٌ من سوءِ التفاهم، بيديهما تسويته بطريقةٍ راقيةٍ، دون أن يطمع بهما أولاء الرعاع المتربصون، وكرر عليه أنّ وحشة الحرمان زيّنت له تلك الرخمة الحمقاء قمراً، وعليه ألا يتهوّر..

مضى والشك يعذبه، وقضى وقتاً يقلِّب الأمر على وجوهه، وعاذَ من وسواسه بصفحات مما انتهى إليه "الكواكبي" عن الاستبداد...

حدَّث الضابط عثمان نفسه مبتسماً:

ـــ : (سلمت يا بغلي الصموت، فقد لقّنت ابن الحلبيّ والنابلسية درساً يليق به أكثر من رتبته، ولقد صدقني حدسي إذ اصطفيتك، ولسوف يسطع نجمك، وتضج فحولتك لهباً مشتهىً؛ كنار القرم في ليلٍ شتائي طويل قارس البرودة، تبعث الدفء في صقيع المخدع، فاصطبر ريثماً ننتهي إلى حلب..!!)....

وانتصب السؤال في رأس كمال عارياً:

ـــ : (هل أحبها..؟؟؟!..).

عذّبه السؤال ملحاحاً، ونفسه مفعمة رقّة وشفافية، كادت تجعل الدمع يطفر من عينيه، تخيّل "رقوش"، هفّت نفسه إلى حمّام السوق، تذكر رفاقه في "القصيلة" تمشى في "ساحة الملح"، وتجوّل تحت القلعة، وتمشى أمام "جامع زكريا"، دخل "قسطل الحجّارين، وذهب إلى حانوت أبيه في "بحسيتا"، تذكّر أنه قرأ أن "بحسيتا" سريانية الأصل وتعني "بيت الشرف". ومرَّت أمامه ملامح زبن أبيه الموَسوسين بالطرابيش الحمر العثمانية، وحسن مظهرها. رأى بائع "الإنكنار"، وبائع شراب عرق السوس آتٍ من بعيدٍ، يُخبر عنه صوت طاساته النحاسية يسقي الزبن ضيافةً من صاحب الحانوت، ويترك على الجدار قرب الباب علامات حوّارية بعدد الطاسات التي قدمها، يحاسب على ثمنها فيما بعد بموجب العلامات المرسومة. استنشق نكهة طبيخ أمِّه، سمع أصوات احتفال بختمة القرآن؛ وأصوات حفلة ختان، تخيّل رقوش البضّة؛ عنابيّة البشرة، وغمّازتها الجذّابة؛ وصدرها المتوثب، ثديان يتقافزان ويتحرشان بالنسمة، رأى داره وقد غصَّ فِناؤها بالمدعوين والأقارب والمحبين و"جوقة الآلاتية" في حفل قبوله ضابطاً في الجيش، وسمع بِوَلَهٍ شدو المنشد المطرب يترنّم بموشحات وقدود، ولاح له وجه "رقوش" من فرجة الباب، تناوله أطباق "المهلبية الهيطلية"، حينذاك همس لها:

ـــ : (قربان الذي خلق، حلوة أنت مثل "الهيطلية"..!..)..

وقطف لها عرق ريحان ووردة جوريّة، وأهدته منديلاً مشغولاً على الطارة.

ـــ : (جفف به عرق جبينك وتذكرني..)..

تنحنح رشاد عند باب الخيمة، وأبلغه أن الشيوخ ينتظرونه، فسأل:

ـــ ألم ينتصف الليل..؟!...

ـــ : الوقت ميت لا ميزة له بين ليل ونهار.

نظر في وجه محدِّثه ملياً، يتقرى الوقت متوقفاً..!!، ومضى مع رشادٍ، وحين وصلا، تقدم من خصمه، ربت على كتفه، قائلاً:

ــ : احترس من نفسك يا فتى، وعفا الله عما مضى..

ساد الصمت لحظات، ثم أعلن أكبرهم سناً إدانة الفتى السِّكيت، وكفل الوجيه عبد الحميد أن ينّفذ المدان الحكم بنفسه..

وبقي الرجال في أماكنهم بطلب من كمال، فناقشوا وضع القافلة، فحمي النقاش بين معارض ومتحفّظ ومشكك، وواثق بكمال وسداد رأيه وطيب نواياه، واتفقوا أن يعيدوا أسلحة العسكر، ويتسلح الرجال بما أخفوه من أسلحة عسكر ألكسندر، وأن توضع الذخيرة بتصرف أصلان، فيكون مساعد الضابط كمال بما يخصّهم، يساعده الأومباشي بشؤون العسكر؛ وإبقاء الضابط عثمان قائداً صورياً، وطلب كمال إقصاء النساء وعدم تسليحهن. استهجن بعضهم هذا الطرح، وشكك بعضهم بما ذهب إليه، لكنهم أذعنوا لحجة الحكيم إدريس، بأنَّ ذلك يقطع دابر فتن الضابط عثمان، ويدعم موقف الضابط كمال مستقبلاً.

ارتاح للاتفاق، وأقنع نفسه بصحة القرار، فيتخلّص من احتمال أن تكون قمر نقطة ضعفه، ولعله بهذا يتأكد من شعوره نحوها، ويجد إجابة عن سؤاله، وفجأة سكنوا كأنهم لم يتأكدوا، ثم أصاخوا السمع فاكفهّرت وجوهٌ، وتطيّر بعضهم، ونظروا إلى الفتى السِّكيت وكمال، كأنهما مصدر الشؤم، ومالبث الصوت أن مرَّ من فوقهم، وأراحهم أن فسَّر إدريس الحكيم صوت البوم، بقربهم من خربةٍ مهجورة، ولعلَّ خلاصهم من خطر المفازة بات وشيكاً، سرت همهمات، وبعضهم مازال متأثراً بالموروث عن شؤم البوم، ثم تتالى صياح الديك، فهتفوا لديك الجدة نور، حتى ارتفع صوت الشيخ الإمام مؤذّناً لصلاة الصبح.

****

6

سألت أمينة:

ــ : أهو مؤسٍ إلى هذا الحدِّ.؟..

ــ : عمّ تسألين.؟..

ــ : أنثى أنا مثلك يا قمر.!.

ــ : ماذا تقصدين..؟..

ــ : أقسم أنك عرفتِ قصدي منذ نطقت، ليست قمر مــن يليــق بهــا أن تتغابى. هس.. لا تعلّقي، فقط أجيبي..

ــ : ما الذي ترومين.؟.

ــ :ما تخفينه في قلبك، وما يدور في هذا الرأس الجميل.

شدَّت رسن فرسها فأوقفتها، وقالت:

ــ : إنني في حاجةٍ إلى خلوة.

ــ : بل أنت في حاجة إلى أن تبوحي بالذي يشغلك، أفضي إلي فأنا أخــت لك.

أدارت فرسها عكس القافلة، لكزتها ومضت، فتبعتها أمينة محمولة بأجنحة طيبتها، غير آبهةٍ بدعوة نسوة أن تصعد معهن العربة، ولم تتوقف عنــد لباقــة توفيق، وقد تخلى لها عن حصانه.

شدَّت الجدة نور اهتمام الناس وهي تصيح:

ــ : آثمون يامن فرّطتم بأرضكم. عثمان أيها الضابط.. من ذا الذي يسعده كل هذا التخريب..؟!...

دمدم الضابط متشفياً:

ـــ : ("!!!!" عتيقة أنت أيتها الدعيّة الخرفة.).

اقترب الوجيه عبد الحميد من الوجيه رجب وهمس:

ـــ :اذهب إلى أمك يا رجب، فلم نعهد نساءنا يتكلمن بهذي الطريقة.

أجاب رجب مختنقاً:

ـــ : لعل سليمان يهدئ روعها.

جأر عبد الحميد محتداً:

ـــ : سليمان ولد، اذهب أنت.

أفاد رجب مغلوباً:

ـــ : لا أستطيع؛ حذرتني ألا أقترب منها..

هتف عبد الحميد بنزق:

ـــ : ولكنها لا تسكت..!!..

صاحت الجدة نور:

ـــ : سيبيعكم ذاك النخاس في البازار، ويبيع الإناث في المواخير، ابتعد يابن الآثم.. ابتعد...

ـــ : العمى..!..إنها تضرب سليمان..!...

قال رجب بصوت خفيض:

ـــ : وقد تضربنا إن اقتربنا منها..

ولكز حصانه مبتعداً، محاولاً الهرب من العيون التي نظرت إليه بمعنى آلمه. جعلته يطأطئ رأسه، متمنياً لو يحتجب عن الأنظار، وتمنى لو تموت أمه تمتم مستغفراً، وعبرة بكاء خانقة تجيش في صدره، تعرقل أنفاسه، وتُطفر دمعاً من مآقيه، فاندسَّ بين العسكر مستتراً بهم، علّه إن توارى عن ناظريها، هدأت ثورتها وسكنت نفسها، لكنها أنشدت بكائية، ضبطت إيقاعها على خشب العربة بعصاها؛ والديك بجانبها وقد نوّس عينيه، وتهدّل عرفه، وهو يحكُّ رجلها بجناحه، وهي منشغلة عمن حولها بهَمِهِم وبما يوجعها، والعجائز يرددن معها ناشجات، بينما انشغل الإسكافي يعقوب بتلك النعال المعطوبة، متخيلاً أنه يخصفها، وعدة الشغل ها هي معه، وما برح العسكر يتقاذفون بأحذيتهم المهترئة، شاتمين الأرض القفر وأوارها، وبهمسٍ لعنوا أمّ من ورّطهم بالسير في وعثائها، والطريق الذي عهدوه ذاك هو..

شُدِه الوجيه رجب بما سمع، فتركهم يسخرون من أسلحتهم، وقد أمست كالعصي، ما دامت بلا ذخيرة...

ـ : (أصحيح ما قالوه عن الطريق..؟!)..

همز حصانه متجهاً إلى الضابط كمال، فمرَّ بالفتى السِّكيت، وهو ينفذ الحكم بنفسه، وهاهو يخدم الممسوسين، أولاء الذين ذهبت أهوال التهجير وهذا المسير بعقولهم.

وسارت قمر خلف القافلة بعيداً عن آخرها، وقد أردفت أمينة خلفها، وظلت صامتة برغم ما بذلته أمينة لكشف سريرتها.

ومرَّ الوجيه رجب بالشيخ الإمام، وهو يفسّر سورة "الممتحنة" لبضعة تحلقوا حوله في العربة، وبضعة آخرين حاذوا العربة بدوابهم على جانبيها، تمهّل وواكبهم منجذباً إلى عذوبة صوت الشيخ يتلو:

ـ : («يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم.....»)...

اقتربت أبهى من عربة الماء بخفر، وقد سبقها نعمان إليها. مشت بجانبها مطرقة، تسترق النظر إلى وجه هذا الذي فتنها كلامه. انتبه العجوز داود إلى وجودها، فلاطفها آخذاً الوعاء من يدها.

التقت عيناها بعيني فاتنها، ابتسم لها فهمس قلبها:

ـ : (ما أروعك..!!))...

وحين مدَّ العجوز يده بالإناء إليها، وجدهما هائمين بعضهما ببعض، فأرجأ أمر الماء وراح يرقبهما، وقد أعاداه إلى شيء من عشقه الأوحد، وقطع عليهم تساميهم كبير الطهاة، طالباً مزيداً من الماء، فأعطاه على مضض، وانتبه إلى مايشبه الكارثة، ومضى نعمان حاملاً إناء أبهى، وحين اقتربا من عربة الفتيات، أخذت منه الإناء، فقال لها:

ـ :سأهديك أغنية.

ابتسمت حذرة من عيون قريناتها فتغامزن عليهما. ارتبك، وأفلت لحظة التسامي حين علا صوت العجوز منذراً:

ـ : الماء يكاد ينفد... الماء..!!..

صُعق الناس، وابتسم الضابط عثمان، وهو يطمئن إلى قِرَب الماء في صندوقها الخاص. وتوقف الضابط كمال وأصلان، وأشار الأومباشي بيده،

فهدج الرتل ثم توقف تماماً، وساد الوجوم، وتقدم الوجيه رجب قائلاً:

ــ : أولئك الأنفار قالوا كلاماً غريباً أيها الضابط كمال.

نبر أصلان بنزق:

ــ : دعك من الأنفار وثرثرتهم. ألم تسمع ما قاله العم داود..؟!...

ــ : بلى... وما سمعته من الأنفار مهم أيضاً..

حسم كمال الموقف قائلاً:

ــ : أفدنا.. إنّا نسمعك...

بُهِتَ أصلان، فساط حصانه متوتراً، وراح به خبباً، وقف بينهم مستوضحاً، ورآهم كمال يشيرون بأيديهم غرباً، وتقدم الوجهاء ونعمان وإدريس، ورافقهم رشاد وإبراهيم وعبد الله وتوفيق، ووقفوا إلى جانب كمال يشدون أزره أمام الطارئ الجديد، وعاد أصلان مؤكداً ما قاله الوجيه، واستوضح الضابط كمال من الأومباشي.

ــ : ما قولك..؟!

ــ : ذلك صحيح.. أفندم..

ــ : ولِمَ لمْ تقل لي..؟!...

ــ : لأنك لم تسألني.. أفندم..

ــ :ألم تدرك أن المفازة خطرة، وأن الطريق أيسر.؟!..

ــ : بلى... ولكنها الأوامر.. أفندم..

ورمز بعينه مشيراً إلى الضابط عثمان، فضربه توفيق بعقب بندقيته خلف أذنه شاتماً:

ــ : ابن زنى أنت ومن أمرك...

تكوّم الأومباشي بين الأرجل، فقذف رشاد بنفسه فوقه، وهمّ بخنقه، فصرخ كمال به:

ــ : رشاد.. أيها النزق..!..

فقفز عبد الله إليه وأبعده، لحظتئذٍ سدد توفيق وكاد يطلق عليه، فطوّح إبراهيم بالبندقية، فقال الضابط كمال بحزم.

ــ : اترك سلاحك لأخيك وابتعد.. هيا..

استجاب توفيق للأمر على مضض، وتغيرت سحنته وعبد الله يأخذ بندقيته، فتملكه الغضب، وامتلأ حنقاً على الأومباشي، وذهب شاتماً عثمان والأومباشي معاً، ولم تختلف كوامن الباقين، عن تلك التي عصفت بالفتى توفيق، لكنها حكمة الشيوخ ورباطة جأش الرجال، والمسؤولية التي التزمها أصلان وكمال، برغم أن الضابط الشاب كان يحدّث نفسه، بأن الحق كله إلى جانب ذينك الشابين، ولو كان بمكانيهما لما كفاه ما فعلاه، لكنها حنكة القيادة وحسن إدارتها، ونظر بعضهم إلى بعضهم الآخر، فلمح كلٌّ منهم ارتياحهم لتصرف توفيق، وردة فعل رشاد.

صاحت الجدَّة نور:

ــ : ما الذي تنتظرونه أيها الأزلام..؟! أتميتوننا قهراً أم عطشاً وجوعاً في هذا الخلاء السجن..؟!..

تقدم كمال من عربة عثمان محدثاً نفسه، وعيناه ترصدان خلجات ندّه:

ــ : (أي أفعى تلك التي في رأسك؛ ويشوع بن نون قدوتك..؟!..).

جعل عثمان وجهه يتهلل، واستوى من ضجعته، مؤهّلاً مرحباً، فقال كمال في نفسه:

ــ : (في داخلك عكس ما تُظهر، فإنني بت أفهمك..)..

بادره عثمان قائلاً:

ــ : تقديرك مضبوط... فالمكان مناسب للاستراحة، ألك ببعض القهوة التركية..؟...

ــ : أوه..!.. فنجان قهوة منك مكسب..

ــ : كمال.. تأدّب...!..

ــ : أمرك.. فما رأيك بما قاله بعض العسكر..؟

تثاءب وهمهم كاذباً:

ــ : كنت نائماً فلم أسمع.. ولكن.. هل لدى الأنفار ما يقال لنسمع..؟!...

قدم كبير الطهاة القهوة، وعيناه كبندول الساعة، تتحركان بين وجه هذا ووجه الآخر، ترصدان أثر الرشفة الأولى، فهي التي ــ حسب ما خبر ــ تحدد جودة ما صنع..

ــ : إدخال القافلة هذه المفازة كان خطأً..

ردَّ متقناً تصنّع الدهشة:

ــ : كيف..؟!..

أشار كمال بيده بعيداً وسأل:

ــ : أليس هناك.. الطريق إلى عينتاب..؟..

ــ : ربما.. ولكن ما شأننا بعينتاب مادمنا نقصد أورفة..؟!...

وطدَّ نفسه للالتفاف على مكر عثمان فقال هادئاً:

ــ : لم أفهم منك ذلك قبل الآن، فإن أوضحت لفهمت..

ــ : إن لم تكن عنيداً فالأمر بسيط..

ــ : وماهو..؟!...

ــ : تسمع وتطيع.. ثم ألا تجد أن القيادة فضفاضة عليك..؟!...

ابتسم كمال ثم جزم محدثاً نفسه:

ــ : (ألعب معه بأدواته وأسلوبه.)..

قشع ابتسامته بملامح جادة، فبدا مستعداً لتلقي الأوامر، قال:

ــ : أسمع فأستفيد.

ــ : بل تطيع..

انتظر لحظات ممنياً نفسه أن يرى رضوخ كمال ويسمع تسليمه، بيد أنه رأى قسماته لا تشي بتراجع، فعزّى نفسه:

ــ : (لا بأس إنه بلع من الطُعم بعضه، ففي هذا ما يفتر اعتداده..)..

وجهر قائلاً:

ــ : وجهتنا أورفه وطريقنا صحيحة، وعلينا المتابعة نحو الشرق وإلى الجنوب.

ــ : أليست أورفة بعيدة..؟!...

ــ : البعد ليس بذي أهمية...

ــ : لكن الماء يكاد ينفد...

ــ : لا يهم..

كاد يخرج عن طوره، لكنه ضبط أعصابه، وسأل:

ـــ : وما المهم برأيك...؟!...

ردَّ بخبث:

ـــ : أن يعلم حاكم (سنجق أورفه)، بما فعلت فيعاقبك..

فكر كمال لحظات وقال:

ـــ : أرى أن نترك خلافنا لوالي حلب..

ـــ : لا.. حلب ما زالت بعيدة، ولا أريد أن أدخلها وأنا مستلب.

ـــ : نحن أقرب إلى عينتاب، وهي أقرب إلى حلب.

ـــ : جبان... أو أنك تغيّر وجهتنا إلى عينتاب، لتظل القائد حتى نصل إلى حلب..

ـــ : واقع الحال يفرض علينا تلمس الطريق الأقرب.

ـــ : قل إنك خفت مما ستلقاه من حاكم سنجق أورفه.

ـــ : نمر بعينتاب في طريقنا إلى حلب..

ـــ : يالك من ثعلب..!..

ـــ : ليس من أجل هذا السجال جئتك..

ـــ : إذن..؟!..

ـــ : لأسألك، لماذا زججتنا في هذه البيداء..؟!..

ـــ : تصرّ على مخالفتي، كأنك لا تهتم بمستقبلك..!

ردَّ كمال هادئاً:

ـــ : ما يهمني الآن، أن أنقذ القافلة، وأنقذك أيضاً، شكراً من أجل القهوة.

ترك الفنجان، أدى التحية ومضى محدثاً نفسه:

ـــ : (أعمل عكس ما يقول فأضمن السلامة...)..

غصَّ كبير الطهاة بريقه، إذ مضى ولم يعرف له رأياً بقهوته..!!...

وتنفس عثمان الصعداء قائلاً في سريرته:

ـــ : (ليس على الضابط عثمان يا ولد..!...).

كهكه كاتماً ضحكته وتمتم منتشياً:

ـــ : (ليفي أيها العزيز... لقاؤنا بات وشيكاً..)..

اختار الضابط كمال خمسة أنفار ممن عهدوا الطريق، ودفعهم إلى المقدمة أدلاّء، وأردف المشاة خلف الخيّالة، ووزع الباقين علـــى العربـــات وانعطـــف بالقافلة غرباً، وزاد سرعتها، حتى جرت الدواب خبباً، في سباق ضد العطـــش والضياع في البيداء...

قالت أمينة:

*ــ : ربما كان اهتمامه بنا جميعاً لأجلك..

ردت قمر:

ــ : هراء... إنه مهتم بكل شيءٍ سواي، لو كرهني لكان أهـــون مـــن أن يهملني...

*ــ : كيف...!!؟؟؟ إنك تهذين، وأخشى عليه منك..

ردت قمر متوترة:

ــ : ماهذا اللوص..؟!..

*ــ :يهمك أن تكوني محبوبة فحسب..

ــ : ما الذي تقصدين..؟!..

*ــ : أخشى أن تغضبي.

ــ : غضبت وانتهى الأمر..

* ــ : ليتني ما تكلمت..

ــ : تكلمي وإلا دفعت سيفي في خاصرتك..

* ــ :مجنونة..

ــ : تكلمي يا بنت..

* ــ : سأكذب مادمت خائفة.

ــ : قولي مادمت أختاً لي..

* ــ : إنك لم تحبيه بعد...

هاج بها الدم، فأوقفت الفرس ونبرت:

ــ : انزلي يا ذات الغُنَّة:

لم تصدق ما سمعت فنبست:

* ــ :قمر ..!..

نشجت بحرقةٍ، وأُحْرِجَتْ أمينة فترجلت، دفعتها إلى الخلف، ثم امتطت صهوة الفرس، هزَّت لجامها حتى أخذت مسارها، وهمست وهي تكبت تأثرها:

* ــ : ضعي رأسك على كتفي، وابكي ما عنَّ لك، علَّك ترتاحين.

أجهشت قمر، وراحت أمينة تسابق الريح، وتسبق العربات والبغال والأفراس جميعاً، وبدت مغلوبة تغالب مشاعرها، ولا مصبّ لغضبها وتخبّطِ حرقتها، سوى جوفها الملتهب.

استفاق عثمان من خدر النشوة، فاغتمَّ لهذي الخطة التي شرع مرؤوسه ينفذها؛واضطغن وفاضت نفسه حقداً. زفر وكزَّ أضراسه، ونفث حقده من صدره المغلّ:

ــ : (كمال يا رأس الشياطين؛ ما أبغضك إليّ..! تباً لك وقد تحالفت أنت وهؤلاء الأباليس. كان عليّ أن أقتلك. لا بأس... موعدنا بعينتاب)...

قلق البياطير لتخلخل نعال الدواب وتفكك بعضها، وأبلغوا الأومباشي بأمرها، فنقل ذلك بدوره إلى أصلان، فردَّ دون تكلؤ:

ــ : لن نتوقف، وليسمروها في عينتاب.

مرَّ الوجيه عبد الحميد بعربة الممسوسين، وسأل عثمان السِّكيت:

ــ : كيف تجد العقوبة..؟!.. هب أنك لست معاقباً، فإنك تفعل خيراً لهؤلاء المساكين، أراهم هادئين. لعلهم أعقل المجانين.

ضحك عبّاس فجأة ثم بكى، وصمت فجأة، وشرد مناجياً طيف أمّه، وغفا مسنداً رأسه على ركبتيه، ولم ينبس السِّكيت ببنت شفة، وحين مرَّ الوجيه بعربة الضابط عثمان، وكاد يتجاوزها دون أن يلتفت إليه، تحرّش به قائلاً:

ــ : يا حيف.. مخجل أن يكون مثلك بين هؤلاء، وتتركون أمركم مرهوناً بيد ولدٍ مثل كمال، لا يعرف كوعه من بوعه..

نظر الوجيه إليه نظرة تقطر هزءاً وقال:

ــ : عيب.. عيب...! إنك السبب، لم أدّخر جهداً لجعلك أقرب إلينا، فأَبَيْتَ إلا أن تستعديهم. يارجل... لو أنك حايدتهم دون أن تنحاز إليهم، لما نفروا منك وإن لم يحبوك. أمرك عجيب...!!...

ــ : لم يفسد الأمر إلى حدٍ لا يعود تدخلك مجدياً فيه.

هزَّ الوجيه رأسه وقال:

ـــ : رأب هذا الصدع يحتاج معجزة، وأنا بشر...!..

همس الضابط بإلحاح محموم:

ـــ : حاول.. حاول، ولك ما يرضيك..

ردَّ الوجيه على الفور:

ـــ :لا أريد أن أخسرهم، أو أهتك شعيرات باقية بيني وبين أغلبهم، وإنني وإن كنت لا أكرهك، فإنني لا ...

قاطعه قائلاً:

ـــ : فهمت فلا تزد، لي طلب.. لا تشجعهم على التعلق بالضابط كمال.

ـــ : صعب أن أشرح لك كيف تأتلف القلوب..

هتف الضابط باندفاع:

ـــ : إياك واللجوء معي إلى مفاهيم المأفونين، ولا تهمل خيط مصلحتك، فطرفه الآخر بيدي.

هزَّ الوجيه لجام حصانه، تحرك وما زال صامتاً، أخذ يبتعد ولمّا يتكلم. فتر وجه الضابط وارتخت قسماته، واعترته مشاعر تتأرجح بين الخيبة والعناد. نغض رأسه، وملأ صدره بشهيق طويل، ثم أطلق عبارته إلى أذني الوجيه وصميم وجاهته:

*ـــ : أيها الوجيه الموقر، للوجهاء عند والي حلب منزلة خاصة، وهو يوصيني بهم دائماً، وتزداد حظوة من أزّكيهم لديه، وسترى ـــ إن شئت ـــ حظوتي لديه، وقد يُقْطِعُكَ ضيعة، مثلما فعل مع غيرك من "البكوات"..

أطرق الوجيه هنيّة. اقترب خطوات. توقف. اقترب. رفع نظره إلى وجه الضابط. نظر في آخر القافلة وأوّلها. وعلى حين غِرَّة همز حصانه، وراح يغالب الفتية والرجال، شاحذاً الهمم لتخطي الصعب، مردداً أشعار نعمان. ضحك الضابط ملء شدقيه ونبس:

*ـــ : أسمعتك سحراً كرنين الذهب، فأين المفر أيها البطريق...؟!...

حذّر سواس الدواب من جريها المتواصل وقتاً طويلاً، فقد تنفرط أكبادها، لكثرة ما رشحته جلودها من عرقٍ بللها ونزّمنها كأرضٍ يتحلّب منها الماء.

صمت أصلان منتظراً قرار القائد، وأمسك الرجال دون آرائهم، فنظر طويلاً إلى القافلة، تطلّع في الوجوه، رأى نعمان وأبهى، وضيف الله

وحمزة، والأطفال والحبالى، وامتلأ الفضـــاء أمامـــه بوجـــه قمـــر، فاســـتدار إلى الرجال قائلاً:

ــ : فلتنفق الدواب لينجو البشر، وليستمر المسير إلى عينتاب...

شعَّتِ العيون بومضٍ انساب إليها من القلوب وصاح أصلان مبلّغاً

-: يستمرّ المسير حتى عينتاب...

مسافات في البراري الحماد، والريح تذرو الأتربة وتسفّ الرمال، ولا أثر لكائن حي..!!.. القلوب واجفة والحلاقيم أيبسها عطش شرس، والنحـــيح يمـــلأ الأجواف، والعيون أتعبها السهاد،وفسحة الرجاء يخنقها هذا الـــزمن المفتـــوح، على هاتيك المسافات المترامية اللا متناهية، والسراب الحار يزغلل الأبصـــار ويؤرجح الأمل.

وعلى ارتفاع شاهق ظهر طائر يحوّم فارداًجناحيه على وســـائد الهـــواء، وحزر بعض العسكر أنها حدأة،وقال بعضهم إنها رخمة، والتقط بعضهم بعـــر معزى أو ظباء، وصارت الأرض تبدو مرقّعة ببقيعات خضر هنا وهنالك..

أشواك باهتة الخضرة كالعفن حادة الأوراق، قال العجوز داود:

ــ : إنهاتباشير الحياة..!..

سبقت عربة الفتيات ركوبة نعمان؛ وهو مسترسل في شـــرود، ضـــحكت أبهى كعصفورة تزقزق فانتبه، سألته:

ــ : بم تفكّر..؟..

غصب شفته فابتسم، سألته أن يشدو شعراً، فقال:

ــ : إنك أبهى من أشعاري..!..

وضعت يدها موضع الفؤاد تحت الثدي وهمست:

ــ : هونك يا سيد الكلمات، فقد يغمى علي..!...

صدحت أترابها مغنيات، ومررن بعربة العجائز وعربة الجدة نور، قوقأن للديك، فهفّ بجناحيه وأجابهن بصيحات ثلاث، ومضـــين مـــن جانـــب الجـــدة حذرات منكمشات، فلم يجدن منها اعتراضـــاً، لكنهـــا قمعـــت الـــديك وأدارت ظهرها، فابتعدن رافعات أصواتهن، واقتربت الفرس بأمينة وقمر حتى وازيـــن نعمان، سألته أمينة:

ــ : ألسنا نذهب إلى الحياة..؟!..

وسألته قمر:

ــ : ألسنا نهرب من الموت..؟!..

قال مجاملاً كلتيهما:

ــ : لعلنا نهرب إلى أمل بالحياة..

وران الصمت ثقيلاً ثقل الهويس في الصدور؛ والظمأ على العروق. وعلى البعد. عند الأفق السحيق، تماوج وهم سراب، ثم تبدَّى متحركاً كبلور ينساب عليه ماء، فتحركت الحناجر في الحلاقيم تستحلب الأرياق، وتحركت في السراب أطيافاً بدت كإبل عملاقة، على بعضها هوادج، تتخللها فتحات كتيمة، وأخريات يتسرب منها ضوء يشبه انبثاق الرؤية في الوسن، مداعباً جفوناً ناعسة.

وفي الأفق الملاصق، لاحت بقع سودمثل طيور الزاغ، وفيما بينهما امتد بساط منقط كوجه صبيّة نمشاء.

وإثر هرولةٍ وركض وجري ما انقطعت، تفسّرت الإبل العملاقة بيوتاً، وطيور الزاغ أشجاراً، والبساط المنمّش حقول خضراوات وزرع وكروم عنب، وقد تبرّجت بها الأرض. إنها معمورة مأهولة..!...

****

7

تلك هي عينتاب؛ محطة للمسافرين العابرين، عرفها من لم يرها بدبس أعنابها الذاهبة شهرته في الأرجاء حاملاً اسمها، وذاك حي عتيق من أحيائها، وهذي ضواحيها؛ وإطارها من سكنٍ جدّ عشوائي؛ لناس دحرجتهم إليها ضائقات ومعسرات، جعلتهم يلوذون بها، ويزنّرونها بأجسادهم؛ وما تبقى فيها من طاقة، لا يملكون غيرها، يبذلونها لمن يطلبها في خدمات وضيعة، لا تفرق كثيراً عن الشحاذة، إلاّ في أنها ليست إلحاحاً صريحاً في السؤال.

يعيشون على قارعة الحياة، ويموتون دونما حسٍّ أو خبر..!... تأكلهم الفاقة والأوبئة، وقلما يولد أحدهم بغير علّة، يقضون نحبهم ولمّا تزل في أعمار بعضهم بقية، ويكثر الأيتام والعجيان باكراً.

وهذا نهير الساجور؛ وهاتيك السواقي، تديرها بغال وكدش وحمير، ترفع الماء من حفرها إلى المساكب والبساتين، وليس بعيداً عنها حطّ السافرة، فارتوت البهائم، وارتوى البشر، فذهب الظمأ وابتلت العروق، ونجوا من براثن الإماتة في الأرض الخلاء ومفازتها، حيث خطّط ليفطّسهم ودوابهم عطشاً، ليس لذنب اقترفوه، إنما:

ــ : (.. وأبسلوا جميع ما في المدينة، من رجل أو امرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحدِّ السيف، وفتح يشوع في ذلك اليوم مقيدة، وضربها بحدِّ السيف، وأبسل ملكها وكل الأنفس التي فيها، وصنع بملك مقيدة كما صنع بملك أريحا، ثم...)..

شهقت قمر وأغلقت الكتاب جافلة. أهو كابوس تعمشق ظنونها. وقد نام عقلها.؟. أم تراه اندغام عطشها الذي انطفأ للتو؛ بجرح أنوثتها الذي التهب؛ لحظة نتأت قرحة ظنها، أنَّ كمالاً أهملها فتركها منشغلاً عنها؟.. تراه التشابه

إلى حدٍّ التطابق بين ما نوى الضابط عثمان، وفعلة يشوع بن نون بأهل تلك المدينة..؟..

ـــ : (أم هو تفاجؤك بأنك كدت تفعلين بكمال، مثلما يمكن أن يصيبه من ألد أعدائه..؟ ما الذي دهاك يا امرأة..؟!.. وكيف خطر لك أن تذهبي بهذا السِفَر إلى عثمان، فيكون منك مثلما كان من شمشون.؟ أكنت تنكثين بوعدك لكمال ..؟!.. أهكذا تتجرفين وراء إحساسٍ لم يتأكد..؟!.. يالك من مجنونة..!!)..

ركضت حابسة دمعها، مخفية الندم في صدق اندفاعها. كادت أن تركع قدّامه فعدلت، خشيةَ أن يفسر ركوعها "الكفارة" على أنه رضوخ لرجولته وتسليم بما هو أحقُ به..

مدت له الكتاب صامتة، ومدَّ يده فلمس أناملها فاقشعرت، وضجّت روحها، فهفت نفسه إليها فهمس:

ـــ : يبقى أمانة عندك، مادمتُ أمَّنتك على ماهو أنفس..

رفعت رأسها مأخوذة، ابتسم فضحكت وضحك كيانها، وتقشَّر قلبها من بعض شكوكه، نبست بشغف:

ـــ : شويّة إن موَّتك حباً. لِمَ أهملتني..؟..

ـــ : ما أهملتك. شغلت طوال الوقت وأنا أتساءل: هل أكون لك وحدك فنخسر هؤلاء، أم أكون لهم جميعاً ونحن منهم.؟...

*ـــ : وإلام توصلت.؟.

ـــ : أليس وصولنا إلى الماء انتصار لنا..؟!..

خجلت ونغصت، وأعادت الكتاب إلى مخبئه، وفي صدرها لهب الأنوثة يردد مع نعومة أنفاسها:

ـــ : (وما نفع الدنيا إن خسرت هذي المشاعر..!؟!)...

خاضت في النهر متقدة الأحاسيس، وراحت ترشق الماء وتغطس على حين غرّة، كنورس اشتاق أن يتبلل، فتطفئ حرّها وحرقة القلب، ثم قفزت داخل الحمّام تتنظف. واستحم الناس، وقد اتخذوا من أغصانٍ وأخشاب، عرائش غطوها بستائر وأسمال، فبدت كالهوادج، يفكّونها حينَ يرتحلون، وإلى ذلك فهي مغتسلاتهم، كذلك فعل عثمان السِّكيت بالممسوسين، فنظّفهم كما يفعل سائس مغرم بأحصنته، وإن أُخرجت من الخدمة لسبب قسري، ووزع كمال

الجعالات، ونحروا ثوراً وأفراساً كادت تنفق، ومازحت بعضهن الجدة نــور أن تذبح الديك قرباناً لوصولهم إلى الماء، فردّت جادّةً:

ــ : فمن ذا الذي يوقظكم لصلاة الصبح..؟!..

*ــ : مولانا الشيخ الإمام..

ــ : ومن يوقظ الشيخ..؟!..

بنوا المواقد وأشعلوا النار، فطبخوا مستهلكين كميات ثومٍ، لكأنه فــي أُس طعامهم، وعادوا مرضاهم، وفرغ بعضهم من دفن موتاهم، وتفقدوا أحــوالهم، فإذا هم في بؤس وشظف، ولمسوا كم هم قريبون من شفير كارثــة، فالهيضــة تهدهم، وبرغم ذلك عاذوا بإيمانهم وأدويتهم، وتلا الشيخ الإمام:

ــ : («وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي....»)..

وراحوا يرددون في جمع حاشد مهيب، تواصلوا فيه مع الســموات، ثــم انصرفوا إلى شؤونهم، وانشغل البياطير بحذو الدواب، ومضى غيرهم يصلحون العربات المخلخلة وعجلاتها المفككة، وحمل آخرون أحذيتهم المعطوبــة إلــى الإسكافي يعقوب، وقد فرد عدة الشغل، وانفردت أساريره لرزقــه المرصــود بتلف النعال...!!.. ومضى الحكيم إدريس يفتّش عن الأعشاب الدوائية.

وتجددت غمم بعضهم، وانتشر بعضهم الآخر زرافــات ووحــدانا، بــين الحقول وأطراف البلدة، واضعين في الحسبان ألا تتكرر معاناتهم فــي المفــازة والأرض القفر، مهيئين ما يقيهم جوعٍ وعطش. أثناء ذلك استدلّ إبراهيم وعبــد الله إلى متجر "الحاج أمير" العجيب..!.. إذ وجداه يراهن على تلبية طلبات زبنه من الإبرة إلى العربة، وكتما أمراً لمَّح به، فجعلهما في نزاع مع نفسيهما.

وطافت امرأة حذرة حول النزل، دانية من أطرافه والسواقي حيث يــردون الماء، سألت بتحفّظ فلم يفهموا ما قصدت، ابتعدت ولمّا تــزل تتلفّــت، لاحــظ الضابط عثمان أنها كلّمت صبياً، فناداه حين اقترب:

ــ : عجي.. يا عجي..، تعال...

توجّس الصبي ريبة، تردد وهو خشيان، طمأنته ابتسامة الضابط فــاقترب وقال محتجاً:

ــ : لست عجياً أيها الضابط، فتلك هي أمي (ستناي) مع أبي ضيف الله..

أحسَّ الصبي أنه أخطأ إذ ذكر اسم أمّه الحقيقي، لكنه ارتــاح لمّــا وجــد الضابط يبتسم قائلاً:

*ــ : ما اسمك أيها الجميل.؟..

ــ : اسميتني حمزه. كيف لا تذكر..!؟!..

ضحك لبراءة الصبي وقال:

*ــ : حمزه..! نعم.. لا بأس يا حمزه، من تلك التي كلمتك..؟!..

نظر نحوها وقد أقفت مبتعدة، فقبب كتفيه، وهزَّ رأسه علامة النفي.

*ــ : ما الذي كانت تريده..؟!..

استحكّته فروة رأسه؛ وقد نتأت فيها دمامل تقرّحت، وبدا يعصر ذهنه محاولاً أن يتذكر:

ــ : قالت.. صاعدون.. ولم أفهم..

انحنى إليه وسأله متلهفاً:

*ــ : هل سمعتها تقول: "عَليا.. يَريداه.".؟..

أجاب دون تردد:

ــ : بلى قالت..كيف عرفت..؟!..

التمعت عيناه وهو يمج لفافته بنهم، طبطب على ظهره ووضع في يديه "بصطيقاً وجق ملبن"، وصرفه قائلاً:

ــ : عد إليَّ متى شئت، فنحن أصدقاء.

مضى منشغلاً عن حك رأسه بالأُعطية، مخّمناً نصيبه إن قاسم أخويه عبد الله وتوفيقاً، فوجده يسيراً، سيما إذا جعل لوالديه نصيباً، فجلس يأكل محدثاً نفسه:

ــ : (آكل بعضه وأقتسم ما يبقى معهم.)..

لكنه استطاب مابين يديه فأتى عليه..!..

بينما تمتم الضابط:

ــ : (إن صدقني حدسي، فهي من قبلك، فأنت أنت لن تغيّر عادتك يا بن آوى.).

أكمل ارتداء بذته بكامل "النياشين" وأمر السائس والحوذي أن يجّهزا العربة، وهاهو يزيح عمود الخيمة، ليخرج الصندوق، وقد نجح بإخفائه طوال المسير، وهو فتات خزينة السلطنة، كما يحاول أن يقنع نفسه، جعلته لتكاليف التهجير، تمننهم به وما فتئت تتاجر بهم، ولمّا تزل مادام البازار منعقداً والمزاد

سرّياً، برغم أنهم لا يستحقونه، وإنه ثروة طائلة إن استأثر به شـــخص لنفســـه، ولطالما تفقّده مردداً:

ــ : (ليس بطّال باشا، وأحمد باشا بأفضل مني، وقــد أخــذا مــا طالتــه أيديهما.).

تنفس عميقاً يرمق الصندوق، وكم طمره في حفرٍ تحت عمود خيمته حيثما حلّ:

ــ : (رحلة قصيرة وأخيرة، وتدخل في ملكيتي)..

أطال إبراهيم وقفته أمام الساقية، مراقباً سطولها تغرف الماء وتسكبه، ثــم تنقلب عائدة إلى جوف الحفرة، أمعن النظر بمسنناتها، وراقب آلية دورانها على محورٍ تحركه قوة البغل، وراح يرسمها في ذهنه، وتنفس الصعداء مطمئناً إلــى أنه استوعبها وبمقدوره صنع مثلها؛ بيد أنه رأى عجباً في حال البغــل؛ ماشــياً طوال الوقت، على مدار هذه الدائرة القدريّة، وتصوّر نفسه مربوطاً إليها:

ــ : (ياللكارثة وهولها، إن حُددت حياة المرء بمثلها..!!)..

نفض رأسه كأنه يطرد تلك الفكرة المتقنفذة متكوّرة في جمجمتــه، وقفــز تفكيره إلى تلميح صاحب المتجر. أغراه وهزَّ فتوّته مثيراً خياله، لكنه شكك أن يتم الأمر بالسهولة التي أوحى بها صاحب المتجر.

اقترب عبد الله قلقاً، ضاق ذرعاً بما يعتمل في صدره، أحسَّ إبراهيم بــه، فلم يعره اهتماماً، واستمر مشدوداً إلى فتنة امرأة نمّقها خيالــه بكيفيــة طالمــا واكبت غرائزه، بيد أنَّ وجود صاحبه، نغّص عليه متعة التفرّد بحلــم اليقظــة، فاضطرب خياله وفتر.

وضع عبد الله يده على كتفه وسأله:

*ــ : أيشغلك ما يشغلني..؟!..

ــ : وهل فهمت من التاجر؛ مثلما فهمت منه..؟!..

*ــ : ليس لما قاله تأويل آخر. يظهر أن في حيوات البشر وطباعهم مالم ندرِ به بعد..!..

ــ : أتدعنا نجرّب..؟!..

*ــ : تلزمنا نقود.

ــ : كنت أفكر كيف يمكننا توفيرها..

*ــ : لن يعييك أمرها، وأنت واسع الحيلة كما عهدتك..

ـــ : فلنتأكد من أمر التاجر أولاً..

قال عبد الله متحمساً:

*ـــ : هلمّ بنا.

قطعا الطريق مسرعَين؛ والناس على ضفتي النهر يصطادون السمك، يشوونه في الحال، أو يجففون أكثره، زاداً لسفرهم على طريق هابوها، ولمّا يطرقوها بعد..!.. برغم أن الضابط كمالاً أكدَّ لهم أنَّ ماكان لن يتكرر، فكان ردّ إدريس الحكيم:

ـــ : نعقل ثم نتوكل..

وقال العجوز داود:

ـــ : نثق بك.. لكن الثعبان عثمان بين ظهرانينا، وكفانا منه لدغاً.

تركهم مبتسماً، وشمَّر عن ساعديه مقترباً من قمر، يشاركها صيد السمك، أزّت رصاصة من فوق كتفه الأيسر، فزلقت قدمه وسقط في الماء، وراح يسبح عكس التيار. عمَّ الهرج والمرج، واختلط الحابل بالنابل، وانطلق توفيق ورشاد نحو مصدر الصوت، بحثاً عمن أطلق النار، وهرع أصلان يطمئن على سلامة كمال.

***

في الطريق إلى المتجر، وقف الناس شاحبي الوجوه، مهلهلي الثياب، ينظرون إلى موكب الضابط الكبير؛ بإعجاب وبشيءٍ من الحسد، واقترب بعضهم طالبين حسنة، فساطهم العسكري وهو ينهرهم، وحزر بعضهم أنه الضابط الذي يتردد إلى متجر الحاج أمير بين حين وآخر. حمحم حصان العربة، وقد شدَّ الحوذي لجامه، فتوقف مراوحاً بين قوائمه، عالكاً ما استطاع من الشكيمة، وسرعان ما ترجّل المرافق عن بغله، مؤدياً التحية، كذلك فعل الحوذي، فنزل الضابط متغطرساً، وقد سرّه أن ينظر الناس إليه وقوفاً، فازداد خيلاءً، ونثر لهم حفنة "متاليك" وتبختر في مشيته، وهو يقطع المسافة القصيرة إلى مدخل المتجر، فهرع إليه صاحبه يستقبله بترحيب لبق، وأدخل العسكريان الصندوق وخرجا على عجل، فإذا بأحدهم قد خطف مخلاة عليق الحصان، وركض هارباً. أطلق العسكري نحوه فأصابه، فخطف آخر المخلاة وأطلق ساقيه للريح متوارياً في منعطف، بينما زحف المصاب سريعاً للحّاق به، غير أن رجال الجندرمة أحاطوا به؛ وأوجعوه ضرباً وهم يجرّونه إلى المخفر..!...

حتى إذا مضوا، ضحك العسكري قائلاً:

ـــ : كنت دقيق الرماية.. أليس كذلك..؟!..

ردّ الحوذي منكمشاً:

ـــ : بلى.. لكن الآخر فاز برطلين من الشعير..!..

قالت امرأة غليظة الشفتين، ناتئة الوجنتين، عنابيّة البشرة دكناء:

ـــ : هو الجوع.. وياله من كافر..!..

نظر إليها بعينين تبرقان شبقاً، وابتدرها بصوت هدّجته الشهوة:

ـــ : كأنك جائعة.. أنا أيضاً...

تنهدت وظلت صامتة، اقترب غامزاً وهمس:

ـــ : أستطيع أن... فلدي ما تحتاجين إليه و.....

تلفتت وجلة، أطرقت بخفر وأغمضت عينيها وتمتمت:

ـــ : أموت سبع مرات دون هذا.

بكت بصمت، وتهزّعت في مشيتها مبتعدة، فاقترب رجل أثرم من العسكري وهمس:

ـــ : حاجتك عندي حسب الطلب.

أحاط العسكري والحوذي بالرجل، بينما أخذ التاجر ضيفه إلى صدر المتجر؛ حيث المصطبة بعيداً عن المدخل والعيون، ووضع أمامه دناً وقدحاً وهمس:

ـــ : معتّقه لسنوات، احتسيت منها كأسين، جعلاني أرى نفسي أمام حائط الهيكل. ضحك الضابط وهو يصب كأساً وتمتم:

ـــ : ليفي... أي سرٍّ فيك يجعلني أشتاق إليك..!؟..

سرَّته المجاملة، فأوعز إلى مساعده أن يتصرف مع الزبن، إلا في المسائل الحساسة.

انتبه الضابط إلى الجملة الأخيرة، فاستفسر عنها، فأوضح التاجر أنه قصد الرهون، فالناس في ضائقة والمعيشة صعبة. ضحك الضابط ساخراً وسأل:

ـــ : فما الذي يمكنهم رهنه..؟!..

لحس التاجر شفتيه وأفاد:

ـــ : يبدو أنك في دنيا أخرى. قد أتاني من رهن بناتٍ ونساءٍ وغلماناً. ما زالت الأمور سرِّية. وقد بعت الغلمان جميعاً بأسرع مما توقعت.

ـــ : والنساء..؟!..

ـــ : الأحواش الثلاثة تغصّ بإناث من كل ناحية.. أوكرانيا.. كريت.. انطاكية.. تبليس... أنقرة.. أرمينية وأوديسا...

سكت قليلاً ثم استدرك:

ـــ : القائمة طويلة. سينخفض سعر النساء في الأستانة هذه السنة. نادى العامل سيده، استأذن وتأود خفيفاً إلى مساعده، واطمأن إلى وضع زبونه، فالذل الذي يسربله؛ يختصر عليه المداورة، ووقف الضابط ينظر في ركن الكتب، وتناول أحدها وقرأ:

ـــ : (كتاب الزبور الشريف، المنطوق به من الروح القدس على فم النبي والملك داود، وعدَّته ماية وخمسون مزموراً، يتلوه عشر تسابيح. وقد طبع حديثاً بمحروسة حلب المحميّة، في سنة ألف وسبعماية وستة مسيحية.).

أعاده، وتناول غيره، ثم تناول آخر وعاد به إلى المصطبة، وشرع يقرأ بشغف.

***

انفرد الأثرم بالعسكريّ والحوذيّ، وألحّ بطلب عربون، ليأتيهما بامرأة إلى خيمة على يمين الطريق عند آخر ساقية، فإذا جاؤوها بعشرة أنفارٍ، لذّذهما بها دون مقابل..!...

ولم يرق لعبد الله وإبراهيم وجود عربة عثمان أمام المتجر، فدخلا حذرين. وقفا جانباً متذرعين بالنظر إلى هذه البضاعة وتلك، وما انقطعا يراقبانه، وأومأ التاجر إليهما مرحباً؛ وما زال يساوم رجلاً عرض تخديم ابنتيه عند علية القوم، وحاول الحصول على بعض المال سلفة، وردّ التاجر بما لا يقبل الجدل، فهو لا يدفع بسمكٍ ما زال في الماء. ناء الرجل بذل الموقف، ودارت عيناه في وقبيهما تتطلعان إلى أكياس البقول والحبوب وجرار الزيت، تمتم مؤكداً أنه عائد في الغد بالفتاتين، وانصرف مستجيراً يكاد يكفر:

ـــ : الله.. لو لم تحرِّم وأُدهنَّ..!..

ابتسم التاجر لعبد الله وإبراهيم، فسألاه عن حقيقة تلميحه أمس، ففتح باباً في جدار المتجر، أفضى بهم إلى فناء دار واسعة، صفّق فخرجت إليه بضع عشرة أنثى، بنُهت عبد الله بما رأى، ودُهش إبراهيم بتلك القسيمة الوضاءة، دعجاء العينين. قدّرا أن بعضهن في الخامسة عشرة..!...

دفعهما برفق وأغلق الباب فبدا كالجدار أو بعضه. وغمز بحاجبيه قائلاً:

ــ : المتجر لا يبلّغ زبنه عن بضاعة ليست فيه، وقد رأيتما ما ليس موجوداً إلا عند كبار الباشوات وعندي..

بلع إبراهيم ريقه وهتف متلهّفاً:

ــ : كم تريد..؟!..

ــ : ذهبيتان عن كل جوله..

نظر بعضهما إلى بعض، ورفع عبد الله حاجبيه، ولوى شفته، وقد أُسقط في يده. همس إبراهيم متلعثماً:

ــ : ألا تقبل بغير الذهب..؟!..

ابتسم بمكر وقد استشف اقترابهما من فخاخه، وقال:

ــ : ولِمَ لا... لكما بشكل خاص، فلكل شيءٍ سعره، فنحسبه على أساس الذهب، وكلما ندرت بضاعتكما جعلت لكما حسماً مناسباً، فماذا لديكما.؟!..

ــ : سلاح.. مثلاً..

شعّت نظرته لما أوحت له تلك الكلمة من كسب، يعادل ما يجنيه من تجارة الرقيق الأبيض:

ــ : نعم. سلاح ودواب وقمح وأولاد وبنات..

شدَّ إبراهيم يد صاحبه وهمس للتاجر.

ــ : سنعود إليك.

ــ : هل لي أن أتعرّف عليكما.؟!.. من أي قومٍ أنتما.؟.

ــ : خمّن.

سأل بحذر:

ــ : خزريان.؟.

قال إبراهيم بجفاء:

ــ : هب أننا غجريان؛ بم يهمّك ذلك.؟..

ــ : عُدَّاه فضولاً ليس إلا. لكأني أحببتكما؛ برغم أنّ ما يهمني هو رواج تجارتي، فأنا تاجر أولاً وآخراً.

قال عبد الله بأنفة:

ـــ : واضح، وإننا من قومٍ هم رفاق الخيل.

جرّه إبراهيم غاضباً وهمس:

ـــ : مهذار أنت يابن ضيف الله. هلم بنـــا.. فقـــد تكلمـــه عـــن رأس ذاك العريف، وكيف اجتزرته.

شيعهما بنظرة ماكرة. محدِّثاً نفسه أنهما لصان اشتد شبقهما، وقد رأيا مالا طاقة لهما على مقاومته، أنى كان قومهما. وأوعز لمســـاعده أن يكـــنس أمـــام المتجر ويغلق الباب خلفه، وأسرع إلى ضيفه، جلس قبالته وعيناه تحوِّمان حول الصندوق المموه، حتى إذا أنهى الضابط قراءته، تنهّد مرتاحاً وتمتم:

ـــ : يهوه يارب الجنود.! كم ارتحت لما قرأت عن يشوع بن نون.!!.

ـــ : وهأنذا تفرّغت تماماً لمزيدٍ من راحتك يا عزيزي كاهانا.

انبسطت أساريره وتفوّه برقّة:

ـــ : يالك من ساحرٍ يا عزيزي ليفي. أنشيتني إذا ناديتني بالاسم الأحـــب إلى قلبي من بين أسمائي كلها. إنني محروم منه يـــا ليفـــي، محـــروم. هـــل تفهمني.؟..

رقّت قسمات التاجر وقال مواسياً:

ـــ : هوّن عليك، نعرف قيمة إنكارك ذاتك، وتضحياتك موضـــع تقـــديرنا جميعاً، وإنك مثال الجندي المخلص ليهوه ويشوع.

فاجأ الضابط مضيفه بقوله:

ـــ : ومن تلك التي أرسلتها تتجسس أخباري..؟!..

ردَّ التاجر دافعاً التهمة بحذق:

ـــ : مثلك نتلقّط أخباره، ولا نتجسس عليه، و(نتيفا)عيل صبرها، وقد تأخر وصول "عليا = الصاعدين".

ـــ : ومن تكون نتيفا.؟..

ـــ : فاتنة (أوديسية)، يعتمد عليها "فلاديمير جابوتنســـكي"، فـــي مهمـــاتٍ خاصة، ألن تساعدها.؟..

ـــ : وكيف لا...! أعتقد أنني مكلف بذلك.

ـــ : نعم يا كاهانا، فتلك مهمتك التي ستحدد لـــك موقعـــك علـــى الســـلم. لابأس... سنتكلم في هذا لاحقاً. ستستحم للتو. وريث ذلك تجدني هيّأت لك مالم

تحلم به في المنام.

ــ : بادئ بدءٍ تستلم الوديعة.

ضمَّ الصندوق إلى حجره، محدقاً في وجه التاجر، فلم يقرأ في قسماته شيئاً على الإطلاق، فأبهم بدوره، ولم يبن في كلامه وضوحاً، كأنما يبادله الغموض بمثله. لكن (ليفي) خرق ثقل الإبهام فسأل:

ــ : وما قطفك من هذا الرواح.؟..

أجاب وهو يفتح الصندوق بحرصٍ ونشوةٍ:

ــ : ذهب أحمر. قامرت برأسي كيما أوصله إلى مأمنك. احسم عمولتك سلفاً، واحسب حصتي الكنيس والمحفل، وجيّرْ الباقي لحسابي.

بلع التاجر ريقه وكاد يغص به، وهو يرى أكياس الذهب، ويسمع خشخشته، فهمس مستعطفاً:

ــ : أما للصاعدين نصيباً منه.؟. سيواجهون ظروفاً صعبة.

أغلق الصندوق فجأة بعنفٍ، ونظر بعيني ذئبٍ إلى التاجر ونبر:

ــ : أدفع لهم فتقبض منهم.!... أليس هذا مرامك...؟!..

ارتبك وقد تفاجأ، واعتبر كلام الضابط وقاحة وجرأة عليه، ليستا في وقتهما، وبرغم ذلك اصطبر، فالغاية تدعو إلى حنكة وحكمة، وما علكُ الضابط إلا هبّة نزق آنيّة، فقال بلطفٍ:

ــ : الاستحمام سيريحك ويجلو سريرتك...هيا...

ــ : لدي رغبة ملحّة للتعرّف إلى (نتيفا)...

ــ : هي أول احتفائي بك الليلة. ستجدها مثل حمامة حين تفرك لك ظهرك في الحمّام..

ــ : فأين الحمّام.؟.

أشار التاجر بيده لصاحبه، وفتح باباً آخر في جدار المتجر وأردف:

ــ : لا تدع الحمامة (نتيفا) تنهكك، فلدي مفاجأة لك...

ــ : لا أحب المفاجآت، أخبرني بما لديك.؟..

ــ : عذراوان. كيليكية مخطوفة، وأرمينية سبيّة.

ــ : قلت عذراوان يا ليفي، فهل هما عذراوان حقاً.؟.

ــ : نعم.. فلم يقربهما سواي بعد.

انفجر الضابط ضاحكاً بمجون، وضرب على أليته، فتأوّه، وتخنّث، فأردف الضابط ولمّا يزل يضحك:

ــ : عذراوان لاشك. صدقت أيها اللوطي صدقت.

ضحكا وهما يتقدمان في صحن الدار. وأشار الضابط بيده مشترطاً:

ــ : أما الرابعة فأختارها بنفسي.

طفقا يضحكان دون تحفّظ؛ وهما يدخلان غرفة أنيقة الأثاث، خلع الضابط فيها ثيابه، ثم قاده التاجر إلى الحمّام، وهو يستعجل نتيفا.

***

كأنهم انتظروا هذه اللحظة منذ زمن، فأحاطوا به كالطوق، وأخرج العجوز داود البندقية من مخبئها أسفل العربة، تتنازعه المفاجأة والخيبة والخشية والشكوك، والأنكى أنهم وجدوا معها بضع طلقات، كالتي تباهى الضابط عثمان باختراقها أجساد المتنوّرين..!..

جُنَّ جنون الفتى السّكيت، وأصابع الاتهام تخزّه في كلمة شرفٍ، قالها بدل القسم؛ ألاّ يعاود الاعتداء على الضابط كمال، وظلَّ لائذاً بالصمت ينفذ العقوبة صاغراً؛ في خدمة الممسوسين، وما سأل عن مدتها، أو موعد انتهائها، موطداً نفسه على تحملها فلا يقول أفٍ مهما طالت أو صعبت، فمالهم..؟.. هل نسوا..؟!...، فالعيون تحاصره من غير أن ترّف..!.. وهاهو في مظلمة؛ ابتناءً على سابقةٍ لا سبيل لنكرانها، وقد مكّنهم من قرينةٍ لا يدانيها شك. فالبندقية سرّ كشفوه للتو؛ وماكان لأحدهم علم بها من قبل..!! وهم لم يعهدوه مقتنياً لسلاحٍ عدا سيفه قصير النصل، لذا كبر شكّهم به، وإن يقن خلو ساحته من الشبهة. ألا ما أشبه حاله بينهم الآن، بحاله تجاه نفسه، حين ترك ابن الوجيه زوج قمر يموت نازفاً.!.. يالها من عقدة ما برحت تعذّبه بأتون حقدٍ، كسا روحه حينذاك غبطةً إبليسية بفنائهِ؛ وإن لم يقتله بيده، ولم يشفع لنفسه نقمةً أنفدت عقله وتمييزه، وهاهم يقرنون سابقته مع الضابط.واكتشافهم البندقية؛ في نيرٍ واحدٍ، فمن سواه يعتدي على كمال، مادام الضابط عثمان غائباً..؟..

نده الفتى تباريح مهجته، وهو ينظرإلى شخصين اثنين، من بين الجمع الغفير المتحلق حوله، كأنه ينشدهما إحساساً غير الذي يجلده به الآخرون، وإنهما مهما نأيا عنه، فليس أقرب منهما إليه، ذاك الوجيه الذي ربّاه. فلم يعرف أباً سواه مذ تبناه، وتلك التي لو شقّت صدره لوجدت نفسها في قلبه.

كاد يصيح:

ــ : (سيدي.. أنا ما قتلت ولدك، فخلصني من هذا الضـــيم. ويـــا ســـيدة النسوة، لست من قتل زوجك، فمدّي إلي يدك؛ أو شعرة من جدائلك؛ فيكون لك نبل محاولة إنقاذ غريق ولو بشعرة.)..

جامدان مثل جدارين أصمين، يحولان بينه وبين أي فرجةٍ، ينفذ ســـكوتهما في نفسه كحدي نصل رهيف، وخيبته بهما جرّح قلبه وهـــو مفـــؤود. تراهمـــا يتركانه ينزّ تماسكه عصباً إثر عصب، مثلما ترك فقيدهما ينزف دمـــه قطـــرة فقطرة...؟!..

ــ : (صلدٌ أنت يا سيدي مثل أولاء الدهماء، وأنت يا سيدة النسوة صوّانية القلب، ولا مزيّة لك عمن سواك، وإلاّ ما معنى نظرتك المبهمة.؟!.. غبيٌّ أنا إنْ لم أُقرّ أنني أُبلغت قراركما الصموت؛ بأنكما في ريبة مني. أجل، أنا عندكما في غير المكانة التي قدّرتها لنفسي، إنه الفرق بين ما أظنّه بحـــالي، ونظـــرة مـــن يجهل نسائم روحي، ويالها من غصّة إن وسعت الفجوة بينهما..!!)..

تسرّبت في قاع نفسه مرارة كطعم قشر الرُّمَّان، فصهل المهر في رأســـه، وزأر السبع الذي يتوئم روحه، وجأر الثور الذي تقمّصه. نفرت عروق صدغيه والرقبة، ثم زمجرَ كأنه يفجِّر حنجرته، وبح صوته صائحاً ببراءته، معوضاً عن صمته الطويل، وما انقطع صراخه، ينزح المكتوم في صدره الكهف، وبلا توقّعٍ وضع نفسه مكان الدابة من العربة، وراح يدور بها في مكانها، فجعلها كقواديس الناعورة وسطول الساقية، ثم تركها تنقلب متدحرجةً بالممسوسين، وقعد بيـــنهم ينظر في الجمع، يحدّثهم بصوتٍ لم تلتقطه أذن قط:

ــ : (مصرون..!!.. إذاً بات لكم أهبل آخر؛ أيها الأهل الألدة.)..

***

هدج إبراهيم في مشيته، كشيخ أثقله الكبر والهم، وجلـــس مقرفصـــاً فـــي الطريق، واستمر نظره جائباً الأفق المهيب في سكون، ثم مالبث أن حلّق سابحاً في فضاءٍ انفسح طرفه فيه، يسمع أغنية رنّحته، واستقدمت مشـــاهد وطيـــوف ذاكرة، إبّان بلوغه وقد كان جوّالاً بخيول القرية، يرصد عند تخومها آيبـــاً مـــن معركة في استراحة محارب؛ فيشغله أمره، فيتلصص على مخـــدعٍ أو خلـــوةٍ، ويسترق السمع والبصر إلى تكوينات جسدين؛ يبتكران تشـــكيلات لا تضـــاهيها مدهشات الكون برمتها، وهاتيك الهمسات؛ شتّان بينهـــا وأصـــوات الكائنـــات الجميلة كافة، وحرارة أنفاسهما المتسرّبة؛ كبخار عـــين ميـــاهٍ كبريتيـــة فـــي زمهرير الشتاء، يُذيب الصقيع في رقعة تكفي لحمامتين أن تهدلا حباً، يرعشهما

جمر الروحين، نابذاً البرودة من المسامات فينتفضان مضمخين بـــنفح الزهـــرة للزهرة، تطيّب الأرجاء بمثل رائحة الأرض في أثناء قطقطة المطرة الأولـــى، وتأرّج السرو والصنوبر، وعبق وليدٍ لم تغسله أمه لأسبوع مضى، وبنكهة اللبن الخاثر؛ من غنم رعت تعاشيب غرّة الربيع، فترتفع من قيعان النفـــوس رايـــات اصطبار آن أوان هزّها عالياً وطيّها في آنٍ معاً، ذخر مؤونة الروح، لوحشـــة زمنٍ من جعبة المجهول المقفل، موارىً بحجب الغيب، مغلقة عليـــه قبضـــة لا تدركُ ماهيتها المدارك، فالغيب كالروح، وصفهما محال..!..

ويذكر ذاك الذي آب ولقيته كاسفة مغمومة، برغم رجوعه سالماً غانمـــاً، فصمت يتقرى قسماتها، ثم سأل إن كانت الطامة وقعت، ودنّس عسكر القيصـــر داره..؟

أومأت تخيّره أيقتلها أم تنتحر.؟.. فاستفسر وهو يرتجف:

*ـــ : هل ارتعشتِ..؟!..

ـــ : بل ارتعدت خوفاً وقهراً..

*ـــ : أصدقيني..

ـــ :ارتعشت اشمئزازاً وغضباً..

*ـــ : قولي الحقيقة..

ـــ : اختلجت حقداً وأسىً..

*ـــ : أريد أن أصدّقك..!..

انقدحت نار خاطرها مدركةً قصده، واستلَّت ســـيفه مـــن غمـــده، فقذفتـــه أمامهما، فنبت في خشب أرضية الغرفة مهتزاً، ونفرت كلبؤةٍ تفقأت مواجعهـــا ونبرت:

ـــ : إن كنت تشك قيد شعيرة، اغرزه هنا.

وكشفت عن نحرٍ يختلج منتفضاً. اقتلع سيفه وأغلق كفّه الثانية على نصله، ثناه حتى قوّسه، ثم ألقاه خلفها، سال دم كفه، فجعل راحة يده في كفِّها وهصرهما بصدره على صدرها، فتحلّب الدم يصبغ سترتيهما. أحاطت جيدها بساعديها مطرقةً، فطوّقها بذراعه الأخرى، وما عاد واضحاً إن كان الذي يقطر دمه أم دمها..!! وثب نحو الباب، وقف هنيّة، ودون أن يلتفت خاطبها:

ـــ : عَمَّدْتك بدمي، ولن أقربك وشرفي مثلوم. أبقي قسمي على كفي ريثما أعود..ذهب صافقاً الباب، ولبثت ساكنة هنيهة، ثم اقتربت من السراج، مشرِّعة

كفّها في ذبذبة ذبالته تظهر خضابه، أمعنت ملياً، ثم لفّت كفّها بشالها الحريـــر، راية عذريتها ليلة زفافها، وجلست ساهمة الوجه، نـــافرة التقـــاطيع، وكســـرت إحدى عينيها مدققة بحدِّ السيف، متخيلة زوجها، وقد غدا على سراطٍ أرهـــف من شفرة هذا البتّار، وفجأة جحظت عيناها، كأنها تسمع خَفْقَ نعليـــه ونحنحتـــه قبل أن يلج الباب، فيستقيم نصل السيف في استقباله وقد اقتصَّ من ثالمِ شـــرفهِ، شهقت لخبط الباب، والريح صرصرٌ، والذئاب تعوي، والكلاب نوابح، فانكمشت هاجعة، ثم سكنت ذاهلة، عندئذٍ انسحل الفتى عن فوّهة المدخنة ومضى.

***

سكت إبراهيم عن الغناء فجأة، وأطلق سؤالاً:

*ـــ : بِمَ يُنعت من ييسر النساء للرجال..؟!..

ـــ : لا أدري..

*ـــ : هل عاشرت نساءً.؟.

ـــ : أرملة رائعة.

*ـــ : والمقابل..؟!..

ـــ : دون مقابل. كانت تقول لي: هي حاجة منحها أحدنا إلى الآخر...

*ـــ : أتذكر ليلة مقتل الضابط ألكسندر..؟!..

ـــ : وأحفظ أغنية نعمان عن تلك المرأة..

* ـــ : أقسم أنني لمحت ابنتها "آية".

ـــ : ما عهدتك مهذاراً. فما الذي تهذي به..؟!..

*ـــ : "آية" عند التاجر يا صديقي.

ـــ : إن كنت محموماً أخذتك إلى الحكيم إدريس. فإنك تخرِّف!..

*ـــ : فلنتدبر النقود سريعاً دون علك وشطح.

***

طويلاً تبادل الضابط كمال و الفتى عثمان السِّكيت نظرات مجمّرة، وفـــم كلّ منهما حشوه كلام وأسئلة متداخلة، متزاحمة؛ كنحل تكتظ به خليـــة مغلقـــة، والناس من حولهما قطعوا الأنفاس، وتوجسوا بلبلة، بانتظار قـــرار الضـــابط، دونما اكتراث بالذي يفزر الآخر؛ وهمه القابع فيه مثل دمّل تحت الجلد، يكـــاد الإحساس بالمظلمة يفقأه، ولن يتهور أحدهم فيطلب صفحاً لعامدٍ متعمد، ولـــو أصابه لرقمّه في عداد الهالكين سدىً، خلافاً للمرة السابقة التي حُجِّمَت بحـــدود

العراك، وماكان السِّكيت ليدرك إن كان موقفهم هذا من حبهم كمالاً، أم حاجتهم إليه، أم نتيجة نفورهم من الضابط الآخر؛ وهو أثيره..؟!.. وتلك هي أداة الجريمة تشعل الريبة، وإنها لحقيقة جليّة، كتوقيع للمجرم على جريمة مماثلة؛ بتشابه غير وجهٍ في الحالتين.

كدَّ كمال ذهنه في هذا المنحى، وانشغل به عمّا سواه، ولم يبتر شكه بالسِّكيت إن كان مدفوعاً مسخّراً، أم أنه تصرف بدافع جوّاني..؟!..

سهلٌ عليه أن يأمر، فيثقّب العسكر جسده مثل غربال، أوأن يسدد بين تينك العينين غامضتي النظرات، وإن هي إلا طلقة واحدة، تُحدث نفقاً في الدماغ اليابس وتنتهي المسألة، ولكن ماذا لو كان تصرف بدافع افتتانه بقمر.!؟.. ألا يعني أنها كادت تكون سبب مقتله..؟ وإن نفّذ حكمه بهذا الشقي؛ ألا تكون سبب جعله قاتلاً في غير حرب...؟.. أيوصله سلطان عشقها أن يقتل من أجلها..؟!.. الحيرة تؤججه وتشتت صوابه... جفف عرق جبينه بمنديل "رقوش الحلبيّة".:

ــ : (أسعد الله وقتك؛ ما أعذب حبك، وكم هو هيِّن هنيء!..)...

انتبه الناس إلى شروده، وانتبه إليهم ينتظرون قراره، والعسكر ربما ينتظرونه، وإن لم يسمح لهم بالاقتراب، تاركاً للأقربين أن يروا القضية دون تأثير أحد.

ــ : (أؤنفّذ حكمي وأختم الحكاية بصفوي مع قمر.؟ لأفعلنّ... فالوقت مناسب، والظرف مواتٍ، لكن ما الذي يدلّني بعدئذٍ على علاقة الضابط بالأمر.؟. أأقتل هذا مقلِّماً مخلب ذاك..؟! أيهما غريمي.؟ أهذا الشقي بعشقه قمر، أم ذاك الشيطان.؟. ويالهذا السِّكيت ما أقواه بالصمت.!!..).

انقدحت نار خاطره ببارقة، قد تؤكد الإدانة، بيد أنها لا تحسم إن كان الدافع ذاتياً، أم هو مجرد مخلب فحسب..؟! دفع عن ذهنه هذا التهويش، ورفع البندقية مدنياً فوَّهتها من أنفه، حابساً أنفاسه بعد زفيرٍ تام، واستنشق طاقة رئتيه،أعاد الكرّة مرتين، فتأكد مما لا يقبل الشك، ألقاها أمام الفتى معلناً براءته، وأنها ما استخدمت منذ أمد، ومضى منهك الذهن، وفي رأسه سؤال مثل سيخ النار:

ــ : (من ذا الذي فعلها إذاً...؟!.)..

حين أُعلنت براءته، وشاف إعجاب الناس بغريمة الضابط كمال، وانتبه إليها تكاد تطير خلفه، وفي عينيها ذاك البريق المذهل، أيقن أنه دقَّ آخر الخوازيق في أمله بها؛ وإن اقتلع شوكة كادت تودي به على تفاهتها.

تجهّم والريح تعصف برأسه من كل جانب متناوحة، وطفق يجلد نفسه متسائلاً:

ـ : (وما الجدوى.؟).

شعر بالعبث يُشكّل مساره؛ويئد روحه في ابتئاس لا خيار له فيه. صاح متحشرجاً مخنوقاً تكاد تتقطع حبال رقبته:

ـ : قمر .!!..

التفتت، وتقدم يلقّم البندقية، توقفت مخطوفة اللون، استنفرت من حولها الفتيات كسرب حِدآن. قذف البندقية إليها فتلقفتها، وشقّ بنيقة سترته حتى السرّة، وأفرد ذَراعيه كالمصلوب، مغمضاً عينيه في حالة صعبة لا يدركها غيره، قال:

ـ : الخيول البائسة، تستحق رصاصة الرحمة..

انقذف الصبي حمزة خاطفاً البندقية منها صائحاً:

ـ : لا.....

وغرز ماسورتها في المسافة الفاصلة بينهما، وظل يناوب نظره بينهما ماداً يديه إليهما..

***

وكما يحدث أي شيءٍ دون بادرة مسبقة، انفجرت صرخة كادت تتصدع لها أركان الدار.!.. انسلّ ليفي من تحت أليفه، خارطاً تكة سرواله على وسطه، مهرولاً جهة الصوت، فخرج الضابط مهتاجاً، وبعضٌ من دمٍ حول فمه.

ـ : كاهانا.. ما الخطب..؟!..

لم يلق إجابة فانزلق داخل المخدع، ثم خرج يتلعثم:

ـ : كاهانا... إنك أكلت حلمة ثديها.

تفل دماً، وبزق مضغةً كحبة توتٍ، وجأر محتجاً:

*ـ : لم آكلها. إليكها. خذها..

ـ : ولكنك قضمتها.!!...

*ـ : أمي يا ليفي.. بي شوق دائم لصدرها، مشاعري مرهفة. كيف لا تقدِّر ذلك يا ليفي..؟!...

ـ : لابدّ من معالجتها..

ألقى إليه ذهبية مدمدماً:

*ــ : هذه تشفيها.

قبضها وتمتم:

ــ : أعطبت ثديها، وهذا تشويه يبخس ثمنها..

نثر حوله بضع ذهبيات هامساً:

*ــ : لم تدفع بها أكثر من هذا، فإن بعتها بـــ"متليك" فإنك رابح بها.

خرجت تولول والدم ينقط من صدرها، وما لبثـــت أن ترنَّحـــت وســـقطت مغشياً عليها، تَوَهْوَهَ ليفي وتأوّه قائلاً:

ــ : فقدت وعيها.!..

قذفه بذهبيتين وهتف مشمئزاً:

*ــ : لا تكن جزوعاً، فالذهب يصحّيها.

ثم تمطى نافذ الصبر، شاداً تكة سرواله، ثم تركها ترتطم ببطنه، وسأل:

*ــ : أين الأخرى..؟!..

***

وكان أن أُصيب عبد الله، وما لبث أن ألقوا القبض علـــى إبـــراهيم، إثـــر معركة قصيرة، وأعاد العسكر المسروقات، فباءت خطتهما بالفشل، إلا أن هـــذا ليس ما يشغلهما، وقد عاد رسول الوجهاء مؤكداً أنها "آية" ذاتهـــا، وأن التـــاجر طلب بها مبلغاً كبيراً؛ حين سمعوا به صمتوا والتوت أعناقهم، تثاءبوا، وتناعس بعضهم، وتشاغلوا دون ما اجتمعوا له، والجدة نور تراقبهم، حتى تململوا، ثـــم انفرط عقدهم، وبدؤوا ينتشرون. صاحت بهم فتوقفوا، دعتهم فـــاقتربوا، وقفـــت تنقر بعصاها مدندنة لحن أغنيّة تدانوا له، وتحلقوا حولـــها، قالت:

ــ : أسفي عليكم مرتين. مرة لأنكم كنتم ستنامون وعرضكم يُمتهن، ومرة لأنكم فكرتم أن تدفعوا لسارق لحمكم. عجبي.. كيف يشتري المرء لحمـــه مـــن ذئب افترسه؛ أو دبٍ نهشه..!!.. إبراهيم يا ولدي، اسمع.. أتجعل البنيَّة "آيـــة" حليلة.؟

أطرق غير متجرئ النظر إليها ولم يجب. زجرته قائلة:

ــ : إبراهيم يا ولد. لا وقت الآن لهذا الحياء الكاذب، هيا قرر في الحال، أن تكون رجلاً أو لا.

أعطى موافقته برأسه وعينيه، فأخذتْ علماً بذلك، وأشهدتهم عليه، ونادت فتيةً بأسمائهم، وجعلت حفيدها سليمان بينهم:

ــ : تذهبون لتعودوا بالبنيّة، أو يأتيني خبركم، وإنني منتظرة.

انطلق الفتية بأسلحتهم على صهوات جيادهم، وإبراهيم بينهم. قفزت قمر أمامها طالبة السماح لها بالذهاب معهم، أمسكتها من جدائلها وجرّتها إليها هامسة:

ــ : بل دعيني أستيقن أنك لست خنثى أيتها اللبؤة. ماعيب الفتى السكيت ها..؟

استلت سيفها فبترت جدائلها؛ وتركتها بيد الجدة، ومضت تضرب الأرض تكاد تدكّها؛ كفرسٍ ترمح غضباً.

وحاول بعض الرجال الخروج من المأزق، وقد زجّتهم الجدة فيه، إلا أنها لم تمهلهم، وحسمت الموقف بأن الثرثرة لم تجدِ طائلاً، وما برحوا يثرثرون طوال الطريق، نادت الحكيم:

ــ : إدريس... فليكن مولانا الشيخ جاهزاً، وليستعد نعمان لإتمام الزفاف؛ أولتأبين أولئك الفتية الأعزاء.

***

قال الضابط عثمان:

ــ : حسنٌ... وإنني منفذ تعليمات "فلاديمير جابوتنسكي".

ــ : بل زائيف يا سيدي كاهانا، حين نتكلم عنه بيننا نقول: زائيف.

ــ : كما تريدين عزيزتي نتيفا.. زائيف، وأنتم ستكونون بمكانة حجيج "يسوعيون"، وجهتكم "بيت لحم". زوّدهم بالصلبان يا ليفي..

وطفقوا يناقشون الخطة بحماس، والضابط منشغل أغلب وقته بأستير الثدياء عمن سواها وعن التفاصيل المملّة، وكانت "هدسة" منشغلة به عما حولها وعن الخطة برمّتها، وقد أفاقت أنوثتها مسيطرة على ملكاتها. انتبهت نتيفا إلى ذلك، وحاولت غضَّ نظرها بادئ الأمر، إلا أنها لم تصطبر طويلاً، ولم يغب بعد عن ذهنها، ما كان بينهما في الحمّام، فلفتت انتباههم بشيءٍ من الزجر، وادعاء الغيرة على المصلحة العامة، فاستدرك الضابط متعهداً سلامتهم حتى مشارف حلب، ثم تتولى "القديسة" نتيفا إيصالهم إلى "أرض الزيتون"، فيدخلونها حرفيين، وينتشرون فيها زرّاعين..!.. تنفس الصعداء أولئك الذين اقتصر

دورهم على الإنصات، واغتبطت نفوسهم مشدودة إلى لحظة خروجهم من هـذه الدار الحبس، وفي أذهانهم صور الخلاء فسيحاً، حيث يحطّون رحلهـم قـرب معسكر الضابط، لائذين به من الجياع وقطّاع الطرق والأوغاد...

طُرق بابٌ فأسرع التاجر إليه، وعاد ليهمس في أذن الضابط:

ــ :أحد رجالك يلحّ بطلبك.

انتفض الضابط مسرعاً، ومن فرجة الباب قرأ الخيبة على وجـه "الرجـل المخلّب"،

ــ : "أنينو" بَشِّر.؟

ــ : ارتجفت يدي وقد خمّنت أنَّ "أوغلان" رآني..

أمسك بتلابيبه وجَرَّه إلى الداخل صافقاً الباب بعقبه، وضـربه بـأخمص غدّارته على أمِّ رأسه فوقع. شخصت الأبصار، وأتاه ليفي مهرولاً وسأل:

ــ : مات.؟!..

*ــ : أَمِتْهُ.. قد سهّلت عليك أمره.

ــ :وهل أُجهز عليه.؟.

*ــ : وستجد دمه معتّقاً كخمرتك، فقد تركته مساعداً لكبير الطهاة أمـداً. أَحْسَبه صار مثل هررة المطابخ، عليك به.

انحنى التاجر ينبش جيوبه.

*ــ : ليفي..!!

استقام جفلاً يلهث:

ــ : هه...!؟!..

*ــ : أي سمٍ لديك.؟

ــ : خلطة تستعيذ العقارب منها.

دسَّ قنينة السم في جيبه، وحمل التاجر "التلمود" في الصـندوق الممـوه، مؤكداً على الضابط الخروج من باب المتجر، فـالأبواب الأخـرى مرصـودة مسحورة، لا يدري أحد مؤداها!...

صعد العربة على عجل، آمراً الحوذي أن يسابق الريح والـزمن، وخفيـة أعطى العسكري إشارة خفيفة للرجل الأثرم، ومضى الموكب ينهب الأرض نهباً وكان الجدل محتدماً بين كمال والرجال، وهم يبعدون عـنهم تهمـة محاولـة

اغتياله، وكان يطيل الصمت، لا يدحض حججهم، ولا يبدي قناعة بهـا، وهـم حيارى أمام كلامه القاسي القليل؛ وملامحه المغلقة على التفسير كسطحٍ مستوٍ، فانبرى له العجوز داود بنزق ولوم:

ــ : كمال.. أيها الضابط، لم أعهدك خبيثاً أو لئيماً، فتجعلنا نلهث لننال شهادة حسن سلوك منك. أسفي عليك...

واحتدَّ ضيف الله على غير عادته:

ــ : إنك تذلنا بتعنّتك . هذا لا يليق بنا، ولا نقبله منك..

وأوضح إدريس الحكيم باتزان وحزم:

ــ : أيها الضابط المحترم، منحناك ثقتنا بأغلبية، ونحن بطبعنا مخلصون.

أضاف الوجيه عبد المجيد:

ــ : نخلص بلا تحفّظ، نصادق بشرف ونخاصم بشرف، نحب بصدق ولا نكره مادام للمحبة فسحة. يجب أن تدرك ذلك أيها الفتى.

وألقى ضيف الله برميته:

ــ : أخرجنا من دائرة شكك، وابحث عن غريمك في حاشيتك وعسكرك، تنج من دوامة الشك. نصيحة يا فتى، وإلا فإن الفاعل في أمان، وقد يصيب منك مقتلاً في مرة قادمه، فاحذر.

ساد صمت كأن على رؤوسهم الطير، وبرق بصر كمال بريقاً كاشفاً:

ــ : أومباشي.. اجمع العسكر أجمعين.

***

وحين ترجّلت، دارت بينهم كأنها في حلم، وامتزجت ابتسامتها بضحكاتها بدمعها، امتزاج مطر الربيع بضياء شمسه؛ بطيوف قوس قزح، ثم وقفت أمام الجدة نور خاشعة، إجلالاً لذكرى أمها، والشاعر نعمان ينشد مرثيتها الملحمية، ثم مالبثت أن صعّدت مشاعرها فوق تأسيها، متخطيّة محنتها إلى فرحتها، تحفُّ بها صديقتاها "مريومة الكيليكية" و"هوريك الأرمينية"، وقد أصرت على اصطحابهما حين حررها الفتية، فلقيتا حفاوة ساعدتهما على تباريحهما والألم، وتولى الحكيم إدريس والجدة نور مداواة صدريهما.

***

وحين نزل الضابط عثمان من عربته، وكمال يحقق مع العسكر، أحسَّ بالعطب، فاستفهم متمكراً كأنه لا يعلم.!.. واقترب متلهفاً مخاتلاً، لا يفرق عن

ثعلب.

ــ : كمال يا بني، أيحدث ذلك لك في غيبتي القصيرة عنك..؟! لن أغفر لنفسي أنني تركتك للسفلة، من ذا الذي تجاسر عليك.؟. لم تجد الحاقد، أليس كذلك.؟. أرى أنك ما زلت تعاملهم بلطف..!!.. يا لك من طيّبٍ كطفلٍ غرير.!..

مشى مستعرضاً الأنفار عاقداً حاجبيه؛ ضارباً عنق نعله بسوطه، متطلّعاً في الوجوه، وتوقف أمام "أوغلان"، وبلمح البصر فجّر جمجمته بطلقة من غدّارته، وتابع هادئاً، وفجأة خطف بندقية فأردى صاحبها قتيلاً، ومشى خطوات فاستلّ سيف عسكريٍّ وغمده في بطنه، واقترب من كمال وهو ينفض يديه:

ــ : افنهم عن بكرة أبيهم، مادام أحدهم قد تجرأ عليك. أنت عندي بكل العسكر... وضع كفه على كتف كمال بحنوٍّ. ودفعه برفقٍ إلى خيمته؛ هامساً بوجوب تجاوز فورة الغضب،والتفكير بصفاء ذهن بمن يكون الحاقد.؟. ولزوم توسيع دائرة الشك، فتشمل الجميع بلا استثناء، حتى أطفال أولئك الأوباش، وإلا فإن الفاعل قد يكون لاطياً في زاوية أهملها الظن، ثم لِمَ لا تكون امرأة.؟...

وعند باب خيمته التفت مخاطباً الأومباشي:

ــ : أبلغهم عن إكرامية مجزية لمن يدلنا على الفاعل.

ودخل خيمته دافعاً كمال إلى جانبه بودٍ وتحبب، قائلاً:

ــ : الإكرامية ستغري المتستّر، وهذه أول البداهة. لا عليك. تعلّم مني وأجري على الله..!!...

***

ولما أنهى الشيخ الإمام عقد قران إبراهيم و"آية" فوجئ الناس بنارٍ تضيء الليل، أضرمها الفتى السّكيت؛ بحطبٍ كثيرٍ قضى والممسوسين وقتاً يكدّسونه، ثم ركض حاملاً "أبهى" وألقى بها بين يدي نعمان؛ ودفعهما أمامه مشيراً بماسورة بندقيته أن يعجّل الشيخ عقد قرانهما، ولما فعل بمباركة الجدة نور، أطلق في الهواء ما بحوزته من طلقات، ثم رمى البندقية في النار.

شدَّت الجدة نور جذعها، وخطت بهمّة، كأنما تخلع عن كاهلها فعلات الزمن، متوسطة الساحة، باسطة ذراعيها كجناحي بجعة بيضاء، خرجت لتوها من تحت جليد غطى وجه البحيرة. حرّكت قدميها بخفةٍ مرات، كفرس تحك

ظاهر التربة بقائمتيها فتقشطها، وما زالت تتطلع في الوجوه المهتابة، فمن ذا الذي يجسر على مداناتها.؟. أو ليست ممن يُرْتَعد لهيبتها الفائضة.؟. لكنها الآن وادعة، وقلبها عصفور أخضر، وهاهي ذي تتهادى دائرة بهيام، غامزة بحاجبها للعجوز داود، وماكان ليصدق أن تخصه دون سائر أترابه.!. فانبرى لها كسمندل خرج لتوه من نار ورماد، فتحرك شبوباً رشيقاً، ودار على رؤوس أصابعه، مشرّعاً ذراعيه كرخ عظيم؛ يظلل أنثاه، ويحجبها عن العيون البصاصة، فتتبختر على هديها "نور" الخالعة عنها نعت "الجدة" المقترن باسمها منذ أمد، فلا تعني لها الآن شيئاً، عاتقة أعماقها من تراكمات الغم؛ وجسدها من عبودية سنوات العمر، محررة قلبها من معتقل عتمة ليله الطويل، كذلك فعل "داود"، فراقصها بسيفين راسماً بهما علامات موحية بفروسية لم يعدمها، وهاهو يرتفع محلّقاً متجاوزاً الغيم على حواف قمم جبال يتخيلها.. يذهب في أعالي الفضاءات بعيداً، ملامساً الصبوات، وأعطاف الأمس وشرخ الشباب، ثم يتدهدى ويتهادى من حالق إلى هذي اللحظة الأجمل من الخيال، فالتهبت أكفّ الحاضرين بتصفيق كوقع المطر على نبت عطشان، وشعبان يماوج طيات :"الأكورديون " فينطقه ويُخرج من تضاعيفه أفراساً وفرساناً، تكاثفت طيوفهم في ذينك الراقصين، وهما في نشوة من ماضيهما. وماكانا عليه قبل عقود.

وتتالت الفتيات أسراباً كقطا وحمام، وانتظم الشباب قبالتهن، فأخلى /داود ونور/ الساحة، كاتمين لهاثهما ضاحكين، وحين اتخذت الجدة نور مكانها جليلة، وجلس العجوز داود بين أترابه، تحوّل الرقص طقساً مفعماً بمحاكاة التجارب وخلاصتها، والسلم والحرب، والأحلام ودفئها، وطموح المرء وتطلعاته، وتحليق الطيور والخيال، وماس الغيم قمم شاهقات الجبال، والنفوس وتساميها فوق المحن، وسفاسف منحدرات الضعف، فتصفو النفس إلهية الإلهام، وتشرئب صعداً، بما يشبه تماهي الخيول ووداعة الحمائم البيض وعبق عطر الأزاهير، بدا ذلك واضحاً بدخول الفتى السِّكيت، مسيطراً على الساحة ببراعة، كأنما وُلد وحبا ونما وشبَّ ههنا، وما وضعته أمه إلا راقصاً، فطفق يدور ويتفنن قافزاً، يدك الأرض دكاً، ويختال سابحاً، خفيف الوطأة، بديع الحركات متبدّح الخطوات، بادئاً بسيفين ثم ثلاثة، واثقاً مثل حصان، متيقظاً كصقر، متابعاً دونما كلل، وتعاقبت على مراقصته أمينة وسرب حسان، وما برح كالباشق، ثم كنورس يتهادى ثم ينقضّ، ومثل (طاووس)، وبغتة ينقلب عقاباً، واستخدم اثني عشر سيفاً بفمه وقبضتيه ومحجري عينيه وثنيتي ساعديه على عضديه، حتى أخرج الفتيات من الساح واحدة إثر الأخرى لاهثات، ولمّا يزل

يتلاعب بالسيوف كأجنحة من نار، ولما أحسّ أنه تألّق، جعل الختام مدهشاً، إذ نفض الأسياف جميعاً، فأتت منغرزة عند أقدامهن، كأنها شُكّت دقاً بمطرقة، وانحنى محيياً، منسحباً، مبقياً قلبه يرقص كرمى واحدة بعينها، ومضى إلى النهر وغطس. انشدهت "مريومة" وبدت "هوريك" مبهوتة وقد بهرها الفتى بما فعل، وطفقت قمر تقضم أظفارها عاضة شفتها السفلى وهي حيرى، أتبقى بين مثيلاتها من النسوة المتفرجات بخفر، أم تنخرط في صف العذارى الراقصات..؟! روحها تأبى ذاك نازعة إلى هذا، وكم تمنت لو راقصت الفتى السّكيت فتتحداه، وماكانت لتتركه حتى يسلّم؛ أو يسقط أحدهما في الساحة من إعياء، وأنى لها بمثله جديراً بالتحدي، فتصمد له لتثبت أنها امرأة بسبع فتيات جبلن من طين وماء، وكُوّنت من ورد ونار، مجنون هو، فماذا لو تحداها واشترط إن غلبها ألا تخرج من الساحة إلا بعقد قرانها.؟ وللحظة انشدّت إلى تردد صدى صوت الجدة نور:

ــ : (وما عيب الفتى السّكيت.. ها..؟..)...

وماذا إن غلبته..؟!.. أي شيءٍ تطلب وتشترط عليه.؟.. ومامن شيءٍ يكفيها..!! وأدركتها جلنار بـ(الأكورديون)، فشرعت تعزف عزفاً كوطيس مشتد، ثم تذيب أناملها في نغمٍ سماويٍّ عذب، وما تلبث أن تمزجهما، فتخلق صخباً وانسياباً حالماً في آنٍ معاً، والعيون ترمقها بغبطة وعطف، وأمينة تنظر إليها بإشفاقٍ، مدركةً ما يمور في داخلها من انفعالات ورغبات كالبرق والرعد، وياله من بحرٍ مصطخبٍ ينجزر وينمد؛ بمشاعر منسربة كالضوء، وأنوثة متضرِّمة في قدِّها المسكون حيرة وتضوراً، ودفئاً حميماً، تمتزج ويذوب هذا بتلك، مختلطة كنشوة السكر ومشاعر عظمة الجنون.

وحين صاح ديك الجدة نور، انصرفوا إلى مهاجعهم مع خيوط الفجر، وخرج الفتى السّكيت من الماء دانياً من الساحة، والنار جمر ورماد، تمتم:

ــ : إن هي إلا بسمة الجمال في جحيم الخراب..!..

تجوّل حولها والشمس تستيقظ كامرأة منتعشة ارتواءً، وعاد إلى النهر، فرأى قمرَ تتعرى كرمح نارٍ، ثم تغطس في الماء مثل لهب فانبهر..!!... وتكوّر على صخرةٍ فاغراً فاه، فأحس أن الصخرة ضجّت من لَهيبه المستعر، وخيّل إليه أنها مثل قمر، ومثل إحدى أساطير "نارت" العبقرية، وأنها تلين وتنتفض، وأنها نشقت منه، ولسوف تحبل، ولن تلبث أن تتصدع عن كائن يضاهي خوارق الأساطير، متناهي الكمال، إلا من رقّةٍ في قلبه بتهجّده للجمال، ولحظتئذٍ رآها تسبح إلى الضفة الأخرى حيث كمال، فَبَكَمَ، وما فتئ يتحاشى

ضوء القمر.!..

****

8

قُيِّدَت الحادثة ضدَّ مجهول، وغادر رجال الجندرمة على ملل، تاركين أمر دفنهما لراغب بثواب قبرِهما، ساعتئذٍ هرعَ الحوذيُّ إلى رفيقه مُطْمْئناً، وكانا قد بادراها؛ ثم تعاقب عليها العسكر؛ وعاوداها، ثم ذَبَحَها العسكريُّ، وخَنَقَ الحوذيُّ صاحبَها الأثرم، ومالبثا أن اختلفا على ما سلباه من ضحيتهما، فقد طمع كل منهما بأكثر من حصته، وماطل العسكريُّ في تعجيل القسمة، وشكَّ الحوذيُّ بنيّة صاحبه، فهدد تهديداً مبطناً، وأبدى الآخر لا مبالاة بما لوّح به ذاك المأفون؛ من خبثٍ ومحاولة تخويفٍ، لكنه لم يركن إلى عدم اهتمامه تماماً؛ فأطلق العنان لخياله، حابكاً الحادثة بغير ما وقعت، وأنه ربما ذهب بها إلى الضابط عثمان، فيشهد لديه أنه وقف على الحوذيِّ ــ مصادفة ــ يغتصب المرأة؛ فَهَبَّ لنجدتها إلا أن رجلها سبقه، ظاناً أنها خانته راغبة، وهاج به الدم فذبحها، فما كان من الحوذيِّ إلا أن خنقه وسلبه ماله، ويالها من جريمة شنيعة..!.. أما هو فلم يهن عليه أن يرى ذلك بأم عينه، فانهال عليه ضرباً، وها هي حفنة النقود التافهة، التي دفعت ضعيف النفس هذا إلى القتل، وليس مستبعداً أن يكون مهووساً، ولا مندوحة من حماية الآخرين من حمقه وجنونه، وافترقا وكل منهما واغر الصدر، ممتلئين ضغينة وحقداً، وزاد حقدهما تأججاً؛ ضنك حاليهما، وقد جُندا قسراً وسخرةً.

***

ــ : خازوق...!.. لم أتوقعه ولا في المنام..!!...

قال التاجر ذلك وقد حمس القهر قلبه، فلم يكن ليصدّق ما حدث. انتابته حمّى فهذى مستصعباً أنهم غلبوه، وهو ختّار لا يُجارى بغدرٍ واحتيال، إلا أنه كتم غيظه، ممتثلاً لرجاء "غولدا وأستير" ونصيحة "إبراهام وصموئيل" أن يتكتم

على اقتحام الأغراب إحدى بيوته السرِّيّة، فهو وإياهم محظوظين بانتهاء الكابوس عند اختطاف فتيات تافهات، وليس ما يفصل بينهم في مخبئهم والدار التي اجتاحها الغرباء سوى ذاك الجدار، وإنها أهون الشرور إذا ما قيست بعواقب انكشافهم وفساد خططهم. وبرغم التياعه أظهر تسليماً وسكينة أمثلين، وأبدى (لنتيفا) وصحبها أريحيّة. فسلامتهم أهم عنده من كل ما عداهم، وفي خلوته حدّث نفسه بأنهم ــ لحسن حظه ــ أغبياء كعهده بمن على شاكلتهم، فلا شيء كان يحول بينهم ونساء داره الثانية كافة، وتساءل:

ــ : (فما الذي جعلهم يكتفون بثلاث..؟!.. والمحيّر أنهم طلبوا واحدة بعينها، لولا إصرار ابنة الكلب على اصطحاب "الكيليكية والأرمينية.."...!..

ما دلالة ذلك..؟! شيء غامض يبدو لغزاً...؟!.. نعم إنه كذلك، فما هو..؟! وما معنى أن يعرض أحدهم مالاً لأعتق فتاتهم..؟!.. اللعنة... ثلاث حسناوات خسارة فادحة، تباً لي من جبان. رعديد. فلولا رضوخي لبأس بعضهم لحصلت على تعويض ما..).

وكان الضابط كمال قد لمس في كلام رئيسه، بعض ما دفعه إلى التفكير وإعادة النظر، إذ بِمَ ينفعه اهتمامه بمن هم حوله؛ إن قتله أحدهم، وظلَّ القاتل طليقاً من بعده، لا يطاله جزاء؛ أو حتى ملامة؟.. وما الذي يفيد القتيل إن فرموا القاتل فرماً؛ أو صلبوه وتركوه للجوارح تنهش لحمه..؟!؟...

نفض رأسه ودعك عينيه حائراً، وطوّق رأسه براحتيه مشتت الفكر، منشغل البال ولم يتأكد الضابط عثمان مما فعل كلامه في تفكير بغيضه، بقدر ما تيقّن أنه محا أَثَرَ اقتناصه، فقد قطّع "ليفي" جثة القنّاص "أنينو" وحرقها في بيت نار الحمّام، وتخلّص من "أوغلان" فبدا غيوراً على الانضباط وحفظ المقامات، فلا يتجرأ نفر على رئيسه لاحقاً. وحدّث نفسه بأن لابأس من التصاق التهمة بالفتى السِّكيت، فلمثل هذا اكتنفه.

وفي الوقت ذاته، خلص الفتى السِّكيت إلى أنه لن يدع لشيءٍ سطوة تكبّله وتشدّه إلى ما فات، ولن يهمه شأن كائن من كان، ودون تردد توجّه إلى نزل الوجيه عبد الحميد، وأبلغه أنه في حلٍّ من التزامه نحوه.

ــ : ولكني تبنيتك وربيتك يا بني..!..

ــ : خلف الله عليك..

حلّفه أن يرجع عن قراره، فابتعد وما التفت، كأنّه ماسمع صوتاً كان يلبيه

قبل أن يختم العبارة..! توقّف لحظات رافعاً هامته، وشهق برأسه شهوقاً طاول الفضاء، حيث الصقور والعقبان:

ــ : (إذاً لن أرعوي عن مباشرة أمرٍ استهواني..).

وتابع سيره يدّك الأرض بخطاً ثابتات، مقترباً من الضابط عثمان، حتى حاذاه، لَحَظَهُ فابتسم دون أن يلتفت إليه، وتركه يشاركه رصد رتل عربات حطّت رحلها مابين خيام العسكر وأطراف نزل الناس، والتاجر يستطلع المكان كلّه ويرقب درب البلدة بعيون لم تعرف النوم لليل مضى، بينما عامله يعلن بصخبٍ:

ــ : "با..زار. با..زار."..

هتف الضابط في سرّه مغتبطاً:

ــ : "عفارم ليفي..عفارم...!!.).

وضع يده على كتف أثيره، وما زال يرقب المشهد، وبعاطفة جياشة وحزم همس:

ــ : قد جئت؛ ولا رجعة لك يا فتاي، وقت مناسب وحظك جالس.

وعهد إلى الأومباشي أن يأخذه إلى الحلاق، وأن يتدبر له كسوة تليق بمرافق القائد وحارسه الخاص، ثم صرف نظره عنهما، إذ لاح على الدرب رهط رهبان وراهبات، بأكسية أجاد ليفي اختيارها بقلنسواتها والصلبان اللوامع، ثم تلتهم أرهاط زواهد وزهّاد...

مشهد بعث الجذل في نفسه، وهو يرى "الصاعدين" يخطون خطواتهم الأولى ليكونوا في كنفه، فتزداد حظوته بهذا الاعتزاء، وبفتاه مارد القمم الذي سيجيبه على الدوام:

ــ ("شبيك لبيك.").

-: تمام أفندم.

بهذا أعلن الأومباشي عن جاهزية الفتى عثمان السِّكيت، فصفّر الضابط إعجاباً وصاح:

ــ : "ما هول..!..خوش..!..عفارم..!.".

ثم شكل على عضده رتبة "جاويش" وأمر الأومباشي أن يؤدي التحية له، ففعل مخيولاً..!..، وقبل أن ينصرف أعلم رئيسه متلعثماً أنَّ "أنينو" مفقود. فأمر أن يقيّدوا حذاء اسمه عبارة "أكله الذئب" غير آبهٍ بوجوم الأومباشي واللوثة التي

ألمَّت به، ومشيه متصلباً، وقد اخشوشبت ساقاه..!..

قهقه بطراً، والناس ذاهبون إلى التاجر، وقد نشر البضائع وجعل الأقمشة مثل رايات تخفق فتلفت بألوانها الأنظار، وفرد الخوابي والأكياس، بينما الموكب يقترب، وناقوس يدق، وهم يرطنون بترنيمات عميقة الرنّات، وفي المؤخرة عرباتٌ ودوابٌ تزحر بما تحمل، وبرغم ذلك فإنها تضاهي افراس الوجهاء والضابطين، فاطمأن التاجر لمرآهم، وانهمك متشاغلاً مع المتبضعين القلائل، وما فتئ يرنو خلسة نحوجماعته، يتعرف إليهم بحللهم الجديدة واحداً إثر واحد، فذاك هيلل وبجانبه صموئيل، وتلك غولدا وجيئولا، وهاتيك أستير، وأولئك يغال ومائير وإبراهام ودانين و...

وأنصت يسمع تهامس الناس، يدفعهم فضولهم والفراغ الطاحن؛ ليقتربوا يتساءلون مثرثرين:

ـــ : تراهم مهجَّرين..؟

ـــ : أو أنَّهم فرّوا من استبداد قيصرهم..!..

ـــ : ليسوا من الطينة نفسها.

ـــ :كأنهم رعايا قياصرة عديدين؛ من أمصارٍ شتى..!..

ـــ : فإلى أين يمضون..؟

ورفع التاجر عقيرته مهوّشاً:

-:أيقونات.. شموع.. مباخر.

طفح وجه الضابط حبوراً، لما يجري أمام ناظريه، وبأثيره الضال وقد جاء إليه راضخاً كارهاً مشيته، راغباً أن يماشي الضابط، ذئباً كان أم تمساحاً، كما سمع عباس الممسوس ينعته كلما رآه، ناعقاً كما الغراب:

-:عثمان.. تمساح.

تأبط ذراع الشيخ الإمام جذلاً، لا يلوي على شيءٍ، وخلفهما "الجاويش الجديد"، وقصدوا لمّة رجالٍ يزجون الوقت:

-:كأنها خرجت من "اسطبلاتها" للتو.

-:لعلهم أحسنوا علفها، أو أنها ما كابدت كخيولنا.

-:فمن أين جاؤوا.؟.

تمتم الضابط ممتعضاً:

-(ابن حرام.!. كأنه يعلم بإبدال دواب الجندرمة هذه، بدوابهم الهزلي.!.

تراه يعرف فرق السعر الذي قبضه ضابط الجندرمة من الحاج أمير.!؟).

وازداد مقته لضيف الله؛ هذا الخبيث الخبير بأحوال الخيل، وحدّث نفسه:

-:(جحّشنا يا ليفي، فهاهم "الغوييم" كادوا يكشفون ما غفلنا عنه.!. كيف فاتني تنبيهك إلى ذلك.؟. صحيح ما أوصيتني به أيتها الخزرية الفذّة: لا تغرّنك الرؤوس وإن تجمّلت، فهي إما فارغة، أو رعناء، لذا أقدحها بزنادك ولا تركن إليها، واذكرها فإنها تنسى).

وقطع عليهم استرسالهم، فدعاهم للتعرّف والترحيب بالجيران، اعتذر ضيف الله دون مواربة؛ برغم تبجيله السيدة العذراء، وتذرّع داود بأنه مبطون، وتشاغل إدريس الحكيم بمداواة العجوز مبدياً إيمانه بالسيد المسيح، وأبدى الوجيه أعذاراً واهية، ولغا لغواً لم يعتده، ولا يليق بمقامه، وهو يرى الفتى السّكيب قد بات خارج كنفه.!.، وتنطّع الضابط عثمان قائلاً:

-:حسبتكم تبادرون لدعوتهم إلى مأدبة، وأنتم الكرماء، أوليس هذا بعض واجب المقيم نحو القادم إليه.؟.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض، ولم يقدر ضيف الله إلا أن يقول:

-:كلامك لا غبار عليه، لولم تجوّعنا عامدا، ثم.. ما الذي منعك عن الواجب حين قدمنا إليك.؟.

امتعض ولم يجب، فهذا نهجه حين يُغلب، فلا يُظهر حرجه، بقدر ما يفعم الآخر بشعور مرارة الإهمال، ومضى كاتماً حنقه، رافعاً عقيرته، محدّثاً الشيخ الإمام، علّهم يغتاظون:

-:مولانا.. هيا بنا ندعهم إلى وليمة تقيمها أنت.

جفل الشيخ وقفز كضفدع قائلاً:

-:أنا.!. لست حمل الـ..

-: لا عليك. مقامك الرفيع نخدمه بما نقدر عليه، وعلى شرفك نقيم أفخم مأدبة.

وقف ضيف الله شاتماً، فنهره الحكيم إدريس، لكنه أكمل:

-:أغضبك ما قلت، ولم تتأثر بما يلاوصكم ذاك التمساح العجيب.!.

-: أهدأ يا رجل. فلا جدوى..

-: بل تسكت أيها الخرف.. العمى.!. يدعو الأغراب إلى ولائم ومـــآدب، ونحن لا نجد الكفاف، فلتبل الكلاب على سلطنة يموت فيها الناس جوعاً.

-:احمد ربك يا رجل.

-:يبدو أني أخطأت حين طاوعتك يا عبد الحميد.

-:أنادم أنت.؟.

-: وأيما ندم.!.

-:أجادٌ فيما تقول.؟.

-:نعم.. فالموت ولا هذا الذل.

-:إذن عد من حيث أتيت.

-:هكذا إذا.؟!. قم دلني على الطريق، تدبّر لي زوّادة العيال، فأكون داعراً إن بقيت قبالتك ساعة من الزمن، هيا دلّني إن كنت تعرف الطريق، أقسم أنكـــم لا تعرفون أين نحن الآن.

قام العجوز داود وتنهّد بحرقة متمتماً:

-:اللعنة عليهم أجمعين.. ضيعونا. لا تلومـــوا ضـــيف الله، فالرجـــل لـــم يستوعب أن يفقد ابنته، قد كانت زينب الجميلة، وردة روحه.

-:هذا لولم نفقد جميعاً أعزاء على قلوبنا.

-:صحيح.. لكن المسكينة ماتت ميتة شنيعة.!.

حوقل العجوز وتبع صديقه ضيف الله، وبقي الآخرون في وجوم.

* * *

وصل الضابط عثمان في رهط من الرجال، فقد لبى دعوته بعـــض مَـــنْ صادفهم في الطريق:

-:جئناكم مرّحبين بإلحاحٍ من مولانا الشيخ الإمام، أما هـــؤلاء الأفاضـــل، فهم رسل قومهم إليكم، وأنا القائد عثمان بك؛ على أبواب نيل "الباشـــويه" عمـــا قريب.

وتمّ التعارف حسب ما خطـــط: (القـــس..، الكاردينـــال... المطـــران...، البطريرك..، الشّماس..، القندلفت...، الأب... الخوري...، الأم...، "والقديســـة نتيفا"، و....).

انتبه عبد الله إلى أنّ التاجر يحدّق فيه، فأومأ لأخيه توفيق، وأسرعا آخذين معهما إبراهيم وسليمان، وهرعوا ينذرون صحبهم، واختفوا قبل انكشافهم، في حين انشغل التاجر عنهم، فقد خامره الشك بإحداهن، وكاد يتأكد من أنها مملوكته "مريومة الكيليكية"، وقد رأى عرجان مشيتها، قبل أن تندس بين جمع نساءٍ، وظلّ يرقبها غير تائهٍ عنها، وهمّ أن يناديها، لولم تتحرك النسوة جميعاً مقفيات مبتعدات، فأنشده فاغراً فاه، وهو يراهنَّ ظُلعاً، فررن فرار دجاجات عرجاوات، من حدأة لاح لهن ظلّها، وهي تحوّم فوقهن، حتى ولجن النزل، وافترقن مختفيات.

-:إذاً هو النخّاس.؟!.

أومأت مريومة راجفة مؤكّدة أنه هو بالذات.

-:اخلعي ثوبك، هاته.

تبادلتا الثياب، وخرجت قمر قاصدة البازار، مصطحبة الصبي حمزة، فصادفت الضابط كمالاً، وانقضت لحظات قبل أن يرد تحيتها، فوقفت تنظر إليه، بينما هو شارد يحدّث نفسه:

-: (قد يكون عثمان على جانب من حقٍ فيما قال، وصحيح أيضاً أنه وغد منحط).

اقتربت تناشده:

-:نحن في خطر أيها القائد كمال، فلنعجّل بالرحيل، دعنا نغادر هذا المكان. بينما همس الضابط عثمان لأثيره الجاويش السّكيت، غامزاً بكمال:

-:انظر إليه كيف أنه يمشي ببطء، لعله يفكر مثل مشيته، فرأسه مسبوت؛ شأنه في ذلك شأن قومك البلهاء، انظر.. ما للقديسة "نتيفا" تحدق فيك.؟!.

وربت على كتف أثيره رامزاً بشفته، مبتسماً بمكر.

* * *

قالت قمر:

-: لم تجب أيها القائد كمال.؟!.

طال تطلعه في وجهها مفكّراً.

-: (لأي غاية ترمين أيتها المحيّرة.؟!.).

-:كمال.!.

-:من ذا الذي أطلق عليّ النار.؟.

شهقت وضربت بكفها على صدرها:

-:تسألني .!؟!.

غرز نظراته في عينيها فكاد يطرفهما، وبرغم الوجع الذي هصر روحها، تمالكت نفسها فلم تصفعه، بل مدت يديها، حتى كادت أصابعها تلامس أنفه:

-:لو كنت عرفته لانتزعت حنجرته بهاته الأظفار، وقدّمتها إليك مقشّرة مثل تفاحة، وتسألني يا كمال.!!.

دفعت حمزة متكئة على كتفه، تخنقها عبرة بكاءٍ مختلطة بغضب موّار، وابتعدت تظلع، متوقعة أن يوقفها ليتاسف لها؛ أو يسألها عن سبب عرجها، فيشعرها بحنوّه عليها، لكنه لم يفعل، فنغّص عليها أمنيّة صغيرة أمّلتها منه، فسدر بصرها بغشاوة دمعها، لكنها لم تخطئ وجهتها، فالهدف يلمع في ذهنها دونما انقطاع، كبرقٍ متتالٍ من استمرار احتكاك غيومٍ دكنٍ، كتماحك غيظها وغضبها منه وممن دنّس هوريك ومريومة، وفعل بـ "آيه" ما يشينها. ذاك هو. دهقان من دهاقنة وقته، استتر ببيعٍ وتجارة، مخفياً وجه النخّاس؛ كانز المال، من اتجار بالأنفس والأجساد، ولكلٍ هذا ستفشّ به خلقها وغليلها.

-:تظلعين يا قمر.!؟.

-:لا عليك يا أبي، احتطبت شوكاً، فدخلت واحدة في قدمي.

-:فجعلت من حمزة عكازاً.؟.

-:نعم يا عماه.

وتركتهما غاذّةً السير، ترفع الصبي أكثر مما تتوكأ عليه.

-:لو أنك زوّجتها.

-:حسرتي من الدنيا. ألا تجعلها كنّة لك.؟.

-:ليت أحد الأولاد أكبر منها.

-:صحيح. هذا صحيح. انس أنني حدّثتك بذلك، وإلا جعلتني مسخرة للناس.

-:ما سمعت منك شيئاً لأنساه، اطمئن. وإذا لم تكن أعين الرجال عُميت، فسيأتيك من يطلبها.

-:ليست ممن تنتظر من يطلبها، أدركت تماماً أن الجنس ملح كل الرجال،

لكنها تروم الحب، الحب بكل زخمه، شفّافة قمر يا ضيف الله.

-: إنها إنسانة حقيقية، قد تتعذب طوال عمرها، قد تنزل قبرهـــا بائســـة، لكنها إن صادفته صعدت السموات بسلالم من ورد، سلني أنا.

-:إيه.. يا صديقي.. أنا من يُسأل قبل أن يسأل في هذا البند بالذات.

-:من نكون حين نجد منتهى اللذة في تقليب المواجع.؟. هل تعرف.؟. قل إن كنت تعرف. قل.. أليس ذلك بمستوى أسرار الروح.

طفر الدمع من مقلتي العجوز، ناشقاً ما في أنفه، متمسّكاً بذراع صـــاحبه، كمن وجد ملاذاً من شدّة، وتابعا سيرهما والعجوز يلهج:

-: ما أخطأنا إذ أسميناك "ضيف الله"، يوم نزلت إلينا من الجبال.

-:أتذكر.؟. قلت لكم: ليس لي سوى هذا الطلب.

-:وزوجناك روحك. أجمل نساء الكون، وسلمناك أفراسنا، وصرت فينـــا أعزّ منا علينا. تستأهل، أصيل أنت.

-:ألأنه أسمعهم صوته أسموه شاعراً.؟.

-:"من.؟.

-:نعمان، أشعر أني أعمق منه شاعرية.

-: وأنا.. أشعر أني أملك الدنيا.

-: كيف.؟.

-: بالحب.

-: أنت صعب.!.

-: وأنت قريب بعيد، مثل الشعر العظيم.

وابتعدا يجامل أحدهما الآخر، وإن كان كل منهما يحرث عميقاً فيما يقول، اقترب إدريس الحكيم، وفي فمه كلام أطال تأجيل البوح به، ولمّا هـــمّ ليقولـــه، بلعه على مضض، ومضى.

* * *

ولما وقف على رأس الوجيه عبد الحميد، سأله:

-:أحقاً فعلها ذاك العاق، فخرج عن طوعك.؟.

-: لتلتة أيها الحكيم، خرط.

-: هه.!!.

-: إياك. فحين تشكك بأمرٍ، أنت الوحيد الذي لا يفعل ذلك اعتباطاً.

-: سأكذّب عيني إن أقنعتني بسبب ملازمته الضابط.

-: لا ينقصك ذكاء لتعرف أنه طموح.

-: لكن وضعه عندك، أفضل من أوضاع العسكر. أليس ذاك حالهم.؟!.

-: كأنك ما سمعت قول الروس: الجندي الذي لا يطمح أن يكون جنرالاً، جندي خامل.

-: ذلك لو كان جندياً.!. ألست وجيهاً.؟. يليق بك أن تكابر.!.

-: إن لم تجد غير هذه الثرثرة، فالأفضل أن تصمت.

-: بل لدي.

-: إذاً أسمعك.

-: سأعيد الأولاد.

-: وهل حان وقت ذلك.؟.

-: لن أخجل منك ما دمنا وحدنا. الأولاد لا يلقون عندي مأكلاً وملبساً لائقين. اختلف الوضع عما كنا عليه.

-: كلامك ملهوج، فلا تخرق التقاليد، وسيصلك مني ما يليق بأن يبقيك في أعين الناس كفيل أولادي.

ضحك إدريس ضحكةً مختزلة بأسىً، فنهره الوجيه لائماً بتقريع حمّال وجوه:

-: كأنك نسيت من تكون.. أيها الفارس الحكيم.!.

-: ما نسيت قط، ولن أنسى. إنما ضحكت لأنك تنهى عن أمرٍ وتأتيه.

-: أنا..!. كيف.؟.

-: لم يسبق لكفيل أن أخذ مقابل رعايته أولاد علية قومه. منذ "حليمة السعدية".

-: مضطرون، ولا تأخذني بواسع معرفتك، واحذر التكلّم في هذا، ريث أن نصل إلى حيث يزعمون أننا سنستقر.

* * *

وما كان الحاج أمير هيناً، لكنه بُهت لجرأتها، واضمحلّ ما خامره من شكٍ فيما رآه من عرجها، وما تبديه فيما ترويه، وخشيتها من أن يسمع أحد ما يدور بينهما، فهي تفاوضه على ابن زوجها –هذا اليتيم– مقابل كسوة وقوت أولادها الخمسة، تيتموا وهم زغب الحواصل، وإنها ملتاعة، فهو مطيعٌ، لكن الظرف قاهر، وهي مقطوعة من شجرة، فإن لم يأخذه، فإن أخوته يموتون جوعاً، فإن قبرتهم إثر بعضهم، قتلت نفسها عقبهم، دون أن تؤكلهم بثدييها، وإنه مدرك بشهامته إباء حرة.!.

وزن الصبي وتملاّه، متخيلاً كيف أنه لو عالجه من دماميله، ونظّفه وداراه، ثم باعه في سوق استانبول، حسب ذلك خلال لحظاتٍ، فوافق وأعطاها ما طلبت، وإن تردد حيال هذا الطلب، وأنقص من صنف آخر.

استأذنته لتخلو بالصبي فتوصيه على طاعته بما يرضيه، وتودّعه للمرة الأخيرة، أوليست أمّه التي ربّته وإن لم تلده.؟.

ذكّرت حمزة بما اتفقا عليه، ثم حملت ما استطاعت، واستعانت بمن ساعدها، ونشجت باكية فراق الصبي، ثم أقفت تظلع في مشيتها، والصبي لاهٍ بما وضعته في حجره من أطعمة.

* * *

وخاب رجاء رشادٍ في الحلول مكان الفتى السّكيت عند الوجيه، فتركه وقد أغضبه وحرّك كوامنه:

–: (لمَ تتكّرت لي يا ولد.؟. ألم آخذك قطعة لحمٍ أحمر؛ من بين الحرائق وجثث عائلتك.؟. وقت دمّر عسكر القيصر نصف القرية، وأحرقوا نصفها الآخر؛ ومنها بيتكم، فصرت لي بديل الولد، ولم أكن قد خلّفت بعد، ورحت تنمو بيننا، وما من أمرٍ أخفيناه عنك، لم تبدِ قبولاً بالتي اخترتها لك، ومذ صارت "قمر" كنّة البيت، ما عاد يفرحك أو يحزنك شيء، صرت تسكت ولم تصرّح، حدسي نغزني، برغم أنك ما اقتربت منها، اشهد، وأنك كنت عفيفاً وهي في العدّة وبعد انقضائها، وكم تقت وقتذاك لو أنك تكلّمت أو لمّحت، وكم كنت سأفرح فلا ندعها تغادر البيت، فيكون لي "حفيد" منك. جعلتك يدي، سلّمتك خيولي والبقر، وما ظلمتك وإن قسوت أحياناً عليك، فعلام كان سكوتك، ولمَ تحرّك لسانك أخيراً كحدّ السيف.؟!. وما الذي دهاك وصيّرك "شاطراً" إذ صلب عودك، والأولاد مازالوا في حاجة الفتوت؛ ولم يقفوا للحياة على أرجلهم بعد.؟. كيف لم تلحظ وأنت اللمّاح أن الزمن أوهنني، وأني كليم الفؤاد؛ وحاجتي إليك

تشتد.؟. ألا ما أكبر فجيعتي بولدي البكر وبك.!.).

ولج البريّة مبتعداً، مفلتاً دمعه ينذرف لتفتّق مواجعه على بكـره القتيـل، وموت زوجه الأولى كمداً، آنذاك تجبّر فلم يره أحد يبكيهما، والآن حزّ في نفسه حاله وهذي الغربة، فكسّرت همومه قيودها، وفرّت من أعماقه العاتية، هاربـة من معتقل أطال حبسها فيه ونبس:

-: نعم فللطاووس قلب أيضاً.

واغتنم رشاد الأزمة، فأتاه قاطراً حصانه، ترجّل وهمّ بالكلام، لكنه تهيّب، فظلّ متنحياً صامتاً، إلى أن سأله الوجيه دون أن ينظر إليه:

-: ما الذي أتى بك.؟.

-: الناس في حاجة كبيرهم.

-: ما الخطب يا رشاد.؟.

-: مشاجرة ياسيدي.

عندئذٍ تنّبه إلى أصوات الطلقات، تصله خافتة، فأدرك أنه أوغل في البريّة وتوغّل في غور همومه، مسح مقلتيه وعقف شاربيه مستعيداً هيبتـه، ونظـر فرأى مثار النقع، وبرغم ذلك تكبّر مترفعاً وقال:

-: مشاجرة. يفضّها سيدك رجب؛ أو ابنه سليمان، هيا اذهب إلى أحدهما.

-: هي معركة يا سيدي، التاجر الحاج أمير و...

امتطى حصانه فعدا هذباً، ولما وصل كان الضابط كمال والوجيه رجـب والعسكر، قد فصلوا بين الطرفين، وسأل:

-: ما الذي حدث.؟.

* * *

كانت قمر قد أخفت الكسوة والقوت، وظلت ترقب التـاجر حتـى غـادر المكان، وصار على مقربةٍ من نزل الرهبان والزّهاد، سمعت استغاثة حمـزة، فاستنجدت بدورها منبّهةً أهله والفتيان، وفوجئ التاجر بهم، فأشـهر سـلاحه، وتبادلوا إطلاق النار، ولما رمى الصبي نفسه في حضن امرأة أخرى صائحاً:

-: أمي.. كاد يخطفني.!.

عرف أنه خدع، ولن ينفعه ادعاؤه أن أم الصبي قد أبدلته بمتاع وحاجات، أو أنها باعته إياه، لكنه عرف عبد الله وتوفيق ممن هاجموه، وتأكد من إبراهيم

وسليمان، وتيقن من أنه رأى "مريومة الكيليكية"، فتلك هـنّ النسـاء لا ظـالع بينهن. ليس كابوساً أو مناماً، فأبدا تسليماً، وهمه أن ينفذ بريشه، وقـد قطمـت هوريك أذنه وصفعته صارخة:

-: أيها النخّاس.. خنزير أنت.

لحظتئذٍ لمحها الضابط عثمان، فأدار وجهه وابتعد متخليـاً عـن حمايـة صاحبه، فالأمر فوق أن ينتصر لـه، متذكراً كيف قضم حلمة ثـديها، والتجـأ التاجر إلى خيمة "القندلفت"، وحال الضابط كمال وعسكره، دون وصول أهـل الصبي والفتية إلى غريمهم، وتدخّل الوجيه رجب مستقوياً بمرأى الوجيه عبـد الحميد يقترب رافعاً يديه مبسوطتي الكفين، مشيراً إلى وجوب أن يثبت كلٌ فـي مكانه، ريثما ينجلي الأمر، ويرى فيه وأنداده رأياً صائباً، برغم أنه مـا فتـئ منشغل الفكر بمن تكون تلك الشرسة التي قطمت أذن الرجل.؟!.

وكانت الجدة نور ترى المحشر مختلطاً، وأن الفاقـة والقهـر والغربـة، جائحات عصفت بالخلق، من غير رجعة إلى فكر وروّية، ودفعـت لأن يـرى المرء في حادثة تخصه، أو لا شأن لـه بها، حجة يفش بها خلقه، منفّساً عـن ضيقٍ رتع في الصدر، وهل بينهم من لا تغمر روحه بلـوى الغـم والكمـد.؟. أليسوا من رأوا سنوات جعلت الولدان شيباً.؟. ومنهم من لم يعرف غير مـوت الأحبة والترعيب، وحيثما اتجه واجهته مراعب بددت أنسه.!.

-: (كنا نتنفس الموت مع كل شهيق، ونعرف أن في الموت حصـة لكـلٍّ منا، وإن لم ينلها بعد. قد حلمت متمنية ألا تكون ميتة شنيعة، تخيفنـا شـناعته أكثر من مخافته. وأنا أيضاً أخافني، ليس موتي، إنما موت الأحبة، إنهم جعلـوا أن تشرق الشمس على المرء حلماً، وأن تغيب وهو حيٌّ أمل دونه الأماني، وأن تشرق وتغيب دون أن يفقد حبيباً أعز من معجزه.!.).

وخرج "القندلفت" ساحلاً سلاح التـاجر، ورمـاه بـين أقـدام الـوجيهين والضابط، متصنعاً صفاء السريرة، وثغره ينم عن بسمة طافحـة بـدعوة إلـى تهدئة الأنفس، وما إن لمحه ضيف الله، حتى أُخذ، فاقترب مندهشاً، ولما تأكـد هتف:

-: مائير.!!.

صُعِقَ الرجل واهتز، سدرت عيناه وكاد يقع مغشياً، فاستدركت "القديسـة نتيفا" متقدمة برصانة وتماسك بالغ، وحولها الرهبان، وخلفهم الزهاد، والأسلحة

مخفيّة في الأردية، ونبست بما يشبه الهمس:

-: فليسا محك الرب إذ أخطأت، والقندلفت يعذرك إن شُبّه لك، فليس بيننا من يحمل الاسم الذي نطقت.

ودنت من الصبي حمزة في حضن أمّه، فمسحت على رأسه متمتمة أن يشفيه يسوع الابن روح القدس، ثم رنت إلى الضابط والوجيهين ونبست:

-: الأمان أيها الأفاضل، فالتاجر يدعى "الحاج أمير" كما علمت، وبذا هو أقرب إليكم؛ بل هو منكم، أجرناه ولسنا مع الخطأ، فإن شئتم رفعنا عنه الاستجارة، إلا إذا جبرتم خواطرنا، فيكون لكم فضل لسنا ننساه في حجنا لمهد اليسوع بيت لحم.

تفعل امرأة مالا يفعله عدة رجال ومعهم بضعة مثلهم في بعض الأحايين، فكيف وهي فتّانة، حليت وسامتها بكساء لا يحجبها، بقدر ماهيّبها في أعين الرجال، مخاطبة رشدهم، مشنّفة آذانهم بذياك الرنيم في صوتها.!؟.

نمّت عيون الرجال عن اقتناع مشوب بعدم حماس لأي إجراء، سوى فضّ المشكلة عند الحد الذي وصلت إليه، فالموقف معلّقٌ، ولا مناص من كلمة تحسمه وهذا ما أناطته العيون بالوجيه عبد الحميد، فأخذته الحيرة، ثم وجد في الشيخ الإمام ملاذاً.

-: ما فتوى مولانا.؟.

-: كلمتان. المسامح كريم أولاً، وثانياً: إن جنحوا للسلم، ولا أزيد.

وتمّ فضّ الاشتباك، وتردد أنه بقدر ما هُلع أهل الصبي، فقد لحق بالتاجر ما يكفيه، فهذا بذاك.

-: لا.

صاحتها الجدة نور وسط دهشتهم، واحتمالات ما يكون منها، وهي من نسفت توقعاتهم مرة إثر مرة، آتية بما لا يحسبون، فالعيون شاخصة إليها، ولهواتهم جففّها تنفسهم من أفواههم، كأن أنوفهم ضاقت عما يكفي صدورهم من هواء يبرّد لهفهم، وزادتهم شداً إليها بإشارتها لهوريك ومريومة، كي تلبثا حيث هما، مومئة للحكيم إدريس أن يتقدم معها، شادّة للأمر حزامه، مصرّة على مداواة التاجر وتضميد جراحه.

-: ولكن في البلدة طبيباً أيتها الجليلة.!.

-: وفيها جندرمه أيضاً، وبرغم ذلك الأمور مشينة، الظلم بشع وكوابحه مترديه.

ودخلت خيمة القندلفت، آمرةً الحكيم أن يؤدي واجبه، فيخرج الرصاصة من فخذه؛ ويضمّد أذنه، وهددت التاجر بفضائحه، أو يعوّض الفتيات الثلاث، بما يهوّن عليهن حيفاً ألحقه بهن.

ضاق صدر ضيف الله بالمجريات، وأسقط في يده، إثر تدخّل الجدة نور، فأخذ صاحبه العجوز، وابتعدا مسايرين النهر منفردين.

وبعد لأيٍّ خرجت الجدة من الخيمة، وأمام الملأ وضعت كيس نقود في يد كل من الفتاتين، واحتفظت بكيسٍ يخص "آيه". ثم صحبتهما داعية لانفضاض كلّ إلى شأنه، فانشرح صدر قمر، وسارعت توزع الغذاء والكسوة عليهن وعلى الممسوسين، غير مؤثرة نفسها بشيءٍ، وخصّت حمزة ببعضها، ثم أرسلته إلى كمال ليلقاها عند صخرة الشط.

وبينما عربات التاجر تغادر نزل الرهبان، ظهر الضابط عثمان وحارسه بحذرٍ، وحرص ألا يزيد ظهوره الطين بلّة، فليس يناسبه أن تتعرف إليه أيّ من الفتيات، اللاتي فتّق عقده معهن، وأذهب حارسه يدعو كبراء الرهبان إلى الوليمة المزمعة، فأتيح له الانفراد بـ "القديسة"، فواجهته متعصبة:

×-: لن نطاعمهم.

-: ليس وقت التزمت.

×-: ولا مبرر للمعصية.

-: هو طعامي يقدمه "عوبديا" كبير طهاتي.

×-: هكذا إذاً.!. يا لك من جنديّ مخلص وداهية.!.

قال:

-: تقتلين مائير بالسم.

نبرت:

×-: بل تقتل ضيف الله.

همس:

-: أتشهاكِ.

نبست:

×-: تثير شبقي.

-: إذاً مائير يُقتل.

×-: ويقتل الآخر.

-: بعدئذٍ نلتقي.

×-: ستجدني متلهّفة.

أفضى ضيف الله بسرّ مائير لصديقه العجوز، فهو تاجر الذخيرة في أدويسا، وكان قد ساومه لينضمّ إلى المحفل، مقابل ذخيرة بلا ثمن فرفض، وبحث عنها فجوبه بوجوب حصوله على موافقة مائير، فهو راس شبكة، ما توانت عن محاولات إيقاعه بحبائلها، ولأنه أصرّ رافضاً، دفّعوه ضعفي الثمن، وأعطوه الصفقة الأخيرة التي لا تنسى، وهي سبب مقتل ثلاثة وأربعين من أشاوسهم، حين خرجوا لإغاثة قرية، استباحها عسكر القيصر، فكان بارودهم فحماً مطحوناً، وطلقاتهم خلبّية، وياله من ثمن فادح.!.

*-: وكان ذلك سبب لجوئي إليكم. بدوت خائناً بين أهلي. يا للمرارة.!.

-: أمتأكد منه.؟.

*-:ألم ترَ أنه أشرم.؟.

-: بلى.

*-: فأنا منَ شرم أنفه.

-: كيف.؟!.

*-:دع الحكاية إلى وقت آخر، ولا تنسَ أنك الأوحد الذي سارررته، بما لم أبح به لغيرك.

-: ولِمَ ظلمت نفسك.؟!.

*-:ما كان لأحدٍ أن يصدّق.

-: والآن.. ما تراك فاعلاً.؟.

*-:الأمر مريب يا صاحبي ومعقّد.

-: إذاً.. ليتك تنسى.

*-: ولكنه "مائير" المجرم، وأنا متأكد.!.

-: تحفظ، فقد اقتربنا من الناس، ولنتحرز.

واقترب الوجيهان من الجدة نور، فسألها عبد الحميد عن الفتاتين، فأجابت:

-: ابنتاي يا عبد الحميد.

-: لكنهما..

قاطعته بلا هوادة:

-: قد سمعتَ ما قلت فاحذر. وإني ألتمس بهما حسنة، تذهب سيئة أن يكون بطني قد حمل صاحبك العاق هذا. هيا.. خذه وابتعدا في الحال.

* * *

وجلس كمال قبالتها تحت الصخرة، متفرّساً بملء عينيه وجهها، لكأنه لم يحفظ قسماته.!. إنه يقرأ في كتاب سحرٍ وأحجيات، وأذهلته جرأتها، وشدهه تدبيرها المحكم، وأكبر حصانة قلبها منْ خوفٍ وخشية.!. ويالها من متفرّدة.!.، لو قرأ عن مثلها لأعظم خيال الكاتب، غير أنها حقيقية، هي ذي أمامه كسرٍ اكتشفه.!. أربكته خواطره فتساءل إن كانت هي التي يمكن أن يركن إليها.؟. وفي اللحظة ذاتها دوّخته صورة أمّه، معلنة رغبتها بأن تكون "رقوش" كنّتها.

سألته عيناها أن يبتّ في أمر قلبها، أو يعلن شح وجيب قلبه نحوها، فلم يجد بداً من التسويف، موحياً بالتمهّل ريث أن يصلوا حلب فثمة أمورٌ اختلطت في ذهنه، لا يريد أن يشركها في خوفه منها، قالت:

-: كمال.. أبي لن يخلد، فأبقى بلا أحد.!.

ومضت خائضة في النهر، علّه يغسل نفسها من زوبعة تأبى الاستسلام لها، ثم غطست ناظرة إلى السماء من تحت الماء، متصفّحة كم هي نقية.!.

وانصرف الكبراء عقب الوليمة، وقد ضيّق ضيف الله على القندلفت طوال الوقت، فلم يجد معه فتيلاً، تجاهل وتشاغل ونكر، ثم زاغ وراوغ ومكر، تحدّث ومازح وتضاحك، وهو منخلع القلب، يغرقه في يمٍ عميق، فيجعله كجرسٍ بلا رنين:

-: (إنني هو... والآن "القندلفت"، وإني ثريٌّ ثراءً لا يتخيله جمعكم هذا، جنيت من دمائكم ودماء جند القيصر ذهباً، وإني في طريقي إلى غسل أدراني، ثم أنبثق من جديد، فلا تعرفني سوى أمي، أتملّك فأتزعّم، فأكون قارون زماني بجبروت يشوع بن نون، فابتلعْ نخامةً تعرفها عني، فلن يصدّقك أحد).

وأمضى العجوز داود ليله مشوشاً، لإصرار ضيف الله وتأكيده، وصارعت

قمر سهادها، كأنها ليلة لا تنقضي، تفكّر بالعجوز والدها، وبذاك الذي اختـــاره قلبها، ويتمنّع، كأنه لا يدرك أن لحظات حبٍ معه، دونها الرجال أجمعهم:

-: (فيا إله الخلق وفيهم المحبون، لِمَ ابتليتني بهذا الامتحان.؟.).

وقبيل انزياح جهمة آخر الليل، خرج عثمان من خيمة "نتيفا" حذراً، ومـــع شروق الشمس، ذهب إلى التاجر، لغايتين ليس يبوح بهما أمام ذاته، مراوغاً أن يغطي إحداهما بالأخرى، فالوديعة أولاً، ثم الاطمئنان على صحة هـــذا الـــذي جعله مخبأ ثروةٍ، ما فتئ يهيل عليها لتصبح تلّة، كذلك ليقف على حذافير خبـــر الفتيات الشهيات الثلاث، وخدعة الآفة الشنيعة "قمر" المشتهاة. غير أنـــه مـــن حرصه خبأ حتى على نفسه، سرّ ابتعاده عن المكان، في هذا الوقت.

وحين عاد كان هؤلاء قد دفنوا "ضـــيف الله"، ودفـــن أولئـــك "القنـــدلفت"، فاحتجب عن العيون، معتزلاً لا يتكلم، يأكل بنهم، يشرد فلا يرتد، يعايش الوقائع كما يتصورها، فلا تظهر لأحد، يجول ويصول، يشير بيديه، ويغمـــز بعينـــه، ويمطّ ويقلّص شفتيه، ثم يتجهّم ويبتسم، مطمئناً إلى الأمور التي يراهـــا أولئـــك غاية في السوءِ، إنما تسير –حسب زعمه– على خير ما يروم، ولينفلق "كمـــال وأوباشه"، فهم لم يعرفوا كل المرائر، فالأدهى إن لم يخذله دهاؤه، مازال فـــي الآتي.

وما لبثت القافلة أن استأنفت مسيرها، يتقدمها الضابط كمال، وعلى مسافةٍ تبعتها قافلة "القديسة" نتيفا، وفي البعد بينهما تحرّك موكب الضابط عثمان بأبهة دون سلطة، وادعاً يقظاً في آنٍ، يرقب تلك القافلة بعينٍ، راصداً الأخرى بعينـــه الثانية.!.

9

وطئت الشمس سنام السماء، وتفيّأ ظل كل شيءٍ بصاحبه، كأنه يحتمي من هجيرها به.!.، فانكمشت الأنفس وفتر نشاطها، كذبول شتلات خضر الصيف قبيل غرسها، فكشط الإرهاق جلّ ما اختزنته قلوب المتفائلين، وسوّاها بتلك المتشائمة، وتذكروا وقوع "الشيخ شامل" في الأسر، ومن ثم نفيه، وإن تركوا له اختيار منفاه، فلأنهم يريدون إبعاده كيفما اتفق، فاختار الحجاز لبقية حياته، وتذكروا ما كان من الحاج مراد، وكيف سُلطت السيوف على الرقاب، ووجّهوها إلى النحور، يقتلونهم ويدفعونهم ليقتتلوا ويقاتلوا عنهم هناك في الآفاق البعيدة، فيذهبون ولا يعودون، فيستقدمون حلفاء لهم ومرتزقة من كل حدبٍ وصوبٍ، يحلّونهم بدلاء في الأرض والبيوت.

سآمة ما سلم منها إلا الذين تحصّنوا بما اعتقدوا، فلا ينفذ إلى بياض صدورهم سواد ما يلقونه، وهاهم سلكوا هذا السراط بلا بديل، فليس من سبيل سواه، وما من خيار، وبرغم ذلك لا يتركونهم بأمان.!.

أما تبعثر الخلق في شتى الاتجاهات على مدى الطريق، جعل الأذهان تفطن إلى كثرة تستجير من الرمضاء بالنار، وتنشغل فوق همومها بالذي وراء هذا الفرار الكبير، فإلى أين هم ماضون.؟!. أئلى خطب، أذهب أولاء أشتاتاً.؟!.

متسولين وشحاذين ملحين، يسألون بلجاجة ويستجدون، وآخرون يعرضون ما تبقى لهم، يقايضونه بلقيمات، وثمة خيام عليها بيارق حمر، يلجها خلسة من يرغب؛ ويؤمّها العسكر بحرمانهم تحت جنح الليل.!.

تسرّبت العتمة إلى نفس الضابط كمال، وفي الحين ذاته تكشّف له ما يلفّع بلده وناسه، فقد تناهى إليه أنهم قالوا:

-: حلب.!. يا لنبئها الفظيع.!!.

ولمس بعض المتأمّلين أحوال المتسوّلين، فأدركوا أيّ متعسة فرّ منها المساكين، وهم إليها يمضون.!!. يا للمسخرة.!.

وما نال السائلون ما ابتغوا، بقدر ما نكأتهم جلافة العسكر، يبعدونهم رفساً، وبأعقاب البنادق شاتمين:

-: "بيس ميلّتْ".

وحوقل بعضهم بأسىً:

-: الموتى لا يشيلون أمواتاً.

-: لا يدفع إلى المرّ إلا الأمرّ

قالت قمر:

-: يا حسرتي.. كلام ضعفاء، وتعلل من لا يملك قوت يومه.

وأبدت دون مواربة، أنها عاجزة عن الإتيان بنافعة، فالأمر أكبر من أن تقتسم رغيفاً بينها وبين أيٍّ منهم، فكلا القسمين لا يسد رمقاً.

* * *

وما كانت حكاية "سدوم" لتردع "هيلل ويغال"، ولا بؤس الناس من حولهما منع "جيئولا وغولدا" عن فعل الشذوذ، كما لم يحل كرب البشر والموت بينهم، دون تمتّع "أستير ونتيفا" بالضابط عثمان، تتناوبان عليه، أو يستمتع بهما في آنٍ معاً، وفي بعض الليالي يختلي مع "هدسه" فيشبع ولعه بصدرها العظيم.!.

وانعزلت قمر بعض الوقت، وراحت تنظر فيما ائتمنها عليه كمال، مقلبة صفحات ذاك الكتاب، وقرأت:

-: (... وأخبرت "تامار" وقيل لها: هوذا "حموك" صاعد إلى "تمنة" ليجزّ غنمة، فخلعت عنها ثياب ترمّلها، وتغطت ببرقعٍ وتلففت وجلست في مدخل "عينايم" التي على طريق "تمنة"، لأنها رأت أن "شيله" شقيق زوجيها الأخوين اللذين ترمّلت عنهما؛ قد كبر، وهي لم تُعْط له زوجة، فنظرها "يهوذا" وحسبها زانية، فمال إليها وقال: هاكي أدخل عليك، لأنه لم يعرف أنها كنّته، فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل علي، فقال: إني أرسل جدي معزى من الغنم، فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله، فقال: ما الرهن الذي أعطيك. فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك، فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه، ومضت

ولبست ثياب ترمّلها، وفي وقت ولادتها، إذ في بطنها توأمان وضعتهما فكانا "فارص" والآخر "زارح"...).

-: (ماهذا يا قمر.!. ألا تخجلين.؟. ولِمَ الخجل.؟!. إنما تقرئين وتعرفين... ويالك من أفّاك نجس يا عثمان.!. أية أفعى في رأسك، وأي أفنعة تستر بها حقيقة وجهك.؟. مخيف أنت؛ لا يؤمن جانبك. ألا ما أشبهك بالأفعوان، يبقى السم في رأسه، وإن هدأ إلى حين. فنحذرك مهما أظهرت من نعومة، ومهما كانت سلطتك، فإنا نصبر عليك، ولا نثق بك.)

وأخذتها كثرة القبور المتناثرة على حافتي الطريق، والكواسر والجوارح تملأ الفضاء، وتحجب خط الأفق المديد، وروائح أجياف تفسد الهواء زاكمة الأنوف، ثم انشغلت عن نفسها بحال صديقها الصبي، فهو لم يبك لكنه كبت، ووحده حمزة الصبي لم يقنع، وقالوا:

-: إنه لا يصدق أن يموت الجبّار ضيف الله، دون مقدمات.!.

وقالوا:

-: لأنه ما أدرك بعد جبروت الموت.

ولم يخرجه من وجومه حنان أمه وعطف إخوته، فالأمر في رأسه كالنجم الطارق. كان يحسّ بتوفيق وما يكمن في نظراته الكتومة، وليس فيها ذاك التسليم، كما في عيون أمّه وأخيه عبد الله، فكان يلجأ إليه في سمره وأصلان، وكثيراً ما ساهرهما، وقضى الليالي ساهداً في حضن توفيق، يسمع وجيب قلبه، وكم داهمه السؤال الكبير، فيهمّ أن يطلقه، لعله يلقى إجابة تذهب عذابه، أو تؤكد هويسه، وتجلو الشك باليقين، وكان يخاف التأكد مما وسوست به نفسه، وما يتخبّط في رأسه الصغير، حتى إذا ما غلبه النعاس، نام وهو مهموم، وسرّ معاناته أنه أحبّ أباه، وشذّ عن تعلّق الصغار بأمهاتهم، واجداً بأبيه خير متراس، فسيرة حياته فوق المألوفة أضرمت خياله، وعلّقته بسير أبطال الأساطير، وما ملّ سماعها، حتى أضحى "سوسروقه" الخارق مثله الأعلى، ذاك اللامحدود، ابن "ستناي" من نطفة على صخرة، تصدّعت عن كائن لا مثيل له، ربما إلا آخيل، كما حدّثه أصلان، وكم تأسّف لنقطة ضعفه في ركبتيه، كما لآخيل نقطة ضعف في كعبيه، وظل السؤال يشغل باله:

-:أيهما السلف الفعلي.؟. وهل المصادفة وحدها جعلتهما متشابهين.؟.

كانت غصته بموت أبيه مؤثرة، فلجمته عن البوح بما يفكر به؛ وزادته

انشداداً إلى مَنْ هم أكبر منه، فهو لم يعش طفولته كأترابه، فعانى من غربته بينهم، يتهمونه بالتعالي، وينعتونه بما لا يفهمه، وفي قراره نفسه لم يكن ذلك يزعجه، ولعله كعصفور تخيّل نفسه بازاً، وكم اعتدّ باسم أمّه "ستناي"، ففي ذلك ما يقرّ به من بطله المثل، وأنى لأترابه أن يحسّوا بخوالجه، ووعيه أموراً لا يدركونها، وليس فيهم من يجيد ركوب الخيل كما درّبه أبوه؛ ومن ثم أصلان، هذا النزق إلا في معاملته للأطفال، يجذبهم إليه بصرامته المحببة، يخاطبهم كما لو كانوا رجالاً، يعوّض فيهم النقص، ويرمم في قلوبهم، ما تعرّض لخدوش أحدثتها الظروف. يعرف متى يزجرهم، ومتى يبدي رضاه، لكنه لا يزيد، ولا يطلق مديحاً فضفاضاً، إذ يكفي أن يعرفوا أنه راضٍ عما أنجزوه، ولعله حفر في أذهانهم ثوابت الموروث، وعلّمهم الكثير. إلا الصبي حمزه، فقد جعله في مكانة لم يخص بها سواه، لا حاجزاً بينهما، ولا موعداً للقائهما، يراه بمكانة الابن الذي طالما تمناه. أصلان الذي نغّصه تعلّق قمر بكمال، كاد غير مرة أن يشي بها، فيردعه نفوره من الدنايا والوصاية، ولاعه انتهاء آية إلى إبراهيم، ولم يحسد قط نعمان وأبهى بقدر ما غبطهما، وما تلبث مغبّة بقائه دون أليفة تؤرقه، فهو أكبر العزاب، ألهته عن عمره غيريته، وفقره نكّد عيشه، فهل للفقر أن يلجم قلبه عما فُطرت عليه القلوب.؟. أليس من حقه أن تكون ثمة أنثى ملاذه.؟. علق جموح قمر في تفكيره، وهو يحسّ أنها الأسرع إلى خياله ساعة الصفا، هو الجانح الميّال نحو التفرّد. لكن كمالاً اقتلعها من باله وتركه كاسفاً، وتبدّت له أمينة باتزانها ودماثتها، وجلنار بتهتكها، وألفت الفارعة وتعفرتها، وجلبهار بتبرّجها المغري، وفاطمة الشجية على الدوام، و...

-: (... إيه أيها الكهل الشبوب. نسيت فؤادك ردحاً فلم يعشق، وشغلت بقومك أن قالوا في الملمات: من فتىً.؟. وتعمى بصيرتك إن التفتوا إليك، غررتك المدحة، فتذهب وأنت يقن من أنك قد لا تعود. وها قد ذهب من عمرك أنضره. أمروءة هذه أم حمق.؟. وإجابتك دائماً أنك هكذا خُلقت.).

خطر له أن يقصد الجدة نور، ولكن... أيطلب مريومة الظالع.؟. أم هوريك الأليفة.؟. برغم أنه لاحظ من مريومة تودها، وسمع تلميحاً من آيه بأن عين البنيّة عليه، ونفسها تهفو إليه.

-: (إذاً مريومة يا أصلان. ولكنها... تباً لحظي.! أما هوريك فمثل عود الخيزران، وفي عينيها بريق وزرقة بحر عميق. إذاً هي، بيد أنها... تباً لحظي مرة أخرى.!. ولكن.. لا بأس إن سألت الشيخ الإمام، عساه يحلّها لي. إليه في

الحال). ثم ثناه البلبال، فتريث متسائلاً:

-: (المرأة أم اللقمة أولاً يا هذا.؟.).

فترت همته؛ وإن لم تهدأ نفسه العاصفة. تمنى لو يصبح "جاويشاً" مثل الفتى السّكيت، فإلى أي من الضابطين يذهب.؟. أئلى عثمان، وقد ينفر منه الناس.؟!. أم إلى كمال.؟. وقد يعلو معه؛ أو يهلكان ويدقّ الضابط التمساح عنقيهما.!.

-: (بئس هذا وذاك، فلن تبقى "أصلان" يا أصلان إن رحت إلى أيٍّ منهما.!. صياد أنت، وما حويت كلباً سلوقياً أبداً.!.).

همز حصانه، فعدا به نحو رهط الوجهاء، وليكن عبد الحميد، أو رجب، أو عبد المجيد، أو حتى سليمان. فجأة شدّ الرسن، فلجم حصانه فشبّ شبوباً عارماً، ثم استوى على قوائمه؛ يبحث التربة بحثاً، قبل أن يسكن ذاعناً لا يتحرك.

-: (خادم يا أصلان.. له يا رجل.!. ما الذي دهاك.؟. تباً لك وللمرأة وللقمة العيش معاً.).

وبّخ نفسه واتهمها بالهوان، ثم عاد واستنكر مكابرة ليست بموضعها وهادن ذاته إذ لم يزلقها في عيبة، بيد أنه ظلّ لائب القلب إلى قلبٍ يوحّدهما التحنان.

جادل أعماقه جدلاً عقيماً؛ فغايته لا تدرك في ساعة هيجان؛ مهما جاهد وحشة الوحدة.

كاد يقتنع أن العشرة تولّد الألفة، وتحقق المودة، فتأتي المحبة، كنمو الجنين، وكما تشبّ للنبتة غصون تزهر فتثمر، وتخيّل مريومة ولطائفها، وفي أخذة عنفوان اهتزّ عمقه وهتفت سريرته:

-: (وأين هذا برمّته من العشق.؟.).

واجه نفسه دون مواربة قائلاً:

-: (ما كنت تخرج إلى الصيد إلا وقصف الرعد يبرق، والأمطار تنهمر، فتغنم وترجع والليل مدلهمٌّ. كنت تجسّ نبض الرجولة في شخصك، فعلام تخفض هتمك إلى ضعة الاصطياد بالفخاخ والدبق.؟.).

وجد عواطفه عصيّة على التطويع. حاذى عربة الشيخ الإمام، يعلّم الصبية

والرجال القرآن، وخلفها عربات يغصّ بعضها بشيوخ وشباب، وفي بعضها نسوة وفتيات، تلك هي فاطمة، وذاك هو عمر بن الحكيم إدريس، هذا المنقطع إلى الدرس، لا يكل ولا يكتفي. الأصوات تردد إثر قراءة الشيخ في حماسةٍ؛ وفي استكانةٍ وراحةٍ عميقة، وضعتهم ضمن برزخ عزلهم عما في أعماقهم من وساوس وأحزان، فذاك عباس الممسوس، وجلبهار الغاوية، ورمضان اللص، ومحمود الغِرّ إلى حدّ المسكنة، والوجيه عبد المجيد. وألفى نفسه يردد معهم مهمهماً، ثم صار يسمع صوته، ردد بانكماشٍ؛ ثم فصاحة وبحماس.

أفاق من أخذته، فهصره مرآهم، هتكت الأهوال قلوبهم، فسكنهم الكمد، ولوّعهم فراق الديار، ومحقت المآسي هفيف أرواحهم، برغم أنهم ما فطروا على تهويلٍ واختلاق المنغصّات، وليسوا ممن يذرفون الدمع كيفما اتفق، لكنهم مزجوجون بديجور لا قبس فيه، كنفق لا آخر له، فلاذوا بعصام آي الذكر الحكيم.

وافقه إبراهيم فيما هجس، وأنهم ظلال موتاهم، ودخان احتراق قراهم، وأثر عائلاتهم. شهودٌ على الإفناء، وأدلّة التطفيش والتهجير، وهم محار الهول وأصداف المراعب وقواقع الإهمال، وكناية طيور البطريق المبددة في القفار.

هزّ نعمان رأسه موافقاً متأسياً، ولم يحاورهما، فهذه بدهيات يجترّانها ولا طائل. مختلفاً عنهما، فلا يقع بشرك الأمر الواقع، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وليس هيناً ما قام به من رأب صدوع الأنفس، فأبهى شحنت شاعريته وأرهفتها، وأحسّ أنها ركن يلجؤه؛ يلتحم به من وجع التشريد، مستلهماً من قسمات وجهها، وتضاريس قدّها، جغرافية أرضه وأركان البيت، فانبثقت أشعاره بتدفقٍ حارٍّ، وليس دافئاً فحسب، وسرعان ما ألفها الناس، وجعلوها أغنيات.

وما برح الإسكافي يعقوب يردد بصوته المشروخ، عقب دفن ميت ما:

-: حذار من الرضوخ للشدّة، فهي إلى زوال.

رتيمة تذكير يقولها المتماسكة نفوسهم، للذين عقصوا خيوط الأمل، كلما مدت الأمراض كلاليبها، تنتزع أرواح الغوالي.

هتفت الجدة نور إثر دفن الميتة:

-: لعلها استراحت، والويل لموتى الأحياء. لست أسامحك بحليبي يا رجب.!.

وجمعت صبية وصبايا، تحدثهم عن أسطورة تقول:

-: (إن الخالق قسّم الأرض على البشر، وأبقى مساحة هي جنته في الأرض، تعانق البحر وتتسلق السفوح، ماضية على بساط أخضر، تزيّنه قمم بيضاء هناك وهنالك، فينتشر الجمال رائعاً في ربوع المنطقة. وأنه أحبّ أولاء الناس، فأعطاهم جنته الأخاذه تلك.).

حكت الأسطورة مرات، وهم يمرون بهضاب، ويصعدون سفح جبل، ثم يستبطنون وادياً. طريق طو.. يل طويل، وسير بطيء. أيام وأسابيع متشابهة، لا سبيل لاتقاء ثقل وقتها الممطوط إلا بالصبر، أو التحايل على وطأتها، فيتحلق الشباب والرجال من الأعمار كافة، وغالباً ما حضر الشيخ وكمال والوجهاء، مستمتعين بحكايات لقمان الحكاء البارع، يجذبهم مثيراً اهتمامهم، بتعابير وجهه، وحركات يديه، وتكوينات جسده، وتلوين صوته وهاهم يقضون ليلة بين أنفي جبلين، فيحدثهم بأسطورة جبل إلبروز:

-: (وإنه شيخ الجبال.. كأنه شيخ من شيوخ قبائل عريقة، أحب "معشوقة" المختالة بحلتها الخضراء على الدوام، تسبي الألباب، والشيخ الجبل المعمم أبداً بالثلج؛ المسوّر بالقوة والعزم، ينظر من عرشه إلى محبوبته البهية بشوق، يمنعه الكبر عن الاقتراب منها، وبجانب "معشوقة" هناك، كان جبل آخر ينظر في عينيها كل يوم، يكاد يلامسها عن قرب، وكان يدغدغها بجداول مما تشتهي لترتوي، وسرعان ما سرت الشائعات، وهي لا تتبع من فراغ، بأن هذا الأخير يحبها وتبادله هي الحب، ثم قيل إنهما يتواصلان، ولم لا..؟. ألّيس الحب كالروح، كلاهما يسكن الجسد.؟. ومثل كل حكايات العشق، حصل أن نمّ هذا لتلك، وهذه لذاك بالخبر، فوصل إلى شيخ الجبال المثقل بعمته البيضاء، ووقاره المحترم، وسمعته النقية كالصدق، فارتجف غيظاً وغضباً، لكنه جعل لغيرته وردة فعله؛ حبكة أقرب إلى اهتمام من هم حوله، فاهتزت لذاك الغضب الأرجاء كلها، وأحدثت رعدةً في أوصال الأرض، فتشققت أوداهاً ووهاداً وفجوات، وأومأ إلى غريمه الجبل، فقسم جسمه إلى قطع خمس، بعد أن استطاع غريمه أن يضربه ضربة.. هكذا.. قسمت عمته إلى فلقتين، ولم تصب منه مقتلاً. واستلّ الشيخ سيفه، فطعن المحبوبة اللعوب في الصدر.. تصوروا كيف تراخى ذاك الجسد الجميل، الذي كان أبداً ينتصب فاتناً تحت الشمس، ومع الزمن تجمّدت قطع جسم الجبل الغريم بخمس قمم، وأمسى شيخ الجبال مقسوم الشفة إلى شقين. أما "معشوقة" ذات الأنوثة الطاغية، فتفجّرت من صدرها، ينابيع يعجز الوصف عن الإحاطة بمواصفاتها أو يسلّم أنها بطيب رضاب

"رؤى الردفاء" وهذه سيدة العشق والجمال، أنثى متفرّدة بين النســـاء، عشـــقها شاعر غجري وعشقته، فكواهما لسع الألسنة التي لا تأنف الرذيلـــة، وبالوقـــت نفسه تمزق سمعة عشاق تساموا في عشقهم فوق المـــألوف والسفاســـف، فـــلا يلتفتون إلى مدعيات العفة، وهي منهن براء.

تلك الينابيع باتت تشفي أمراض الناس، وبالأخص العشاق، وتبكم اللاتـــي يتمضمضن بسمعة هذه وتلك، لتغطية عهرهن، وللأسطورة تفرّعات، ككحايـــة "سعدونه" الملقبة بالحميرة، لاحمرار وجهها كلما كذبت، وهي نادراً ما صدقت. وحكاية كبرى القوادات خاطفة "زمك زمان"، وحكاية حشيمات الغفلة؛ التابعات رهط عفيفات المصادفة، أمثال (آفة فيزوان، وآفة نواف، وآفة رندوكه) حكايات ماتعة انتظروها على مر الليالي والأيام، ولعلمكم فإن تلك الينابيع أكيدة الفائـــدة بالتجربة والبرهان، ولنسمع الآن الشاعر نعمان.).

* * *

وفي البكور خرجت مريومة تستطلع المكان. أشجار الجوز والكرز وكروم العنب والزيتون، وهذا النسيم الرطب بالندى، ولون تربة الأرض، وصـــخورها الصفوان. نظرت هنا وهناك، ركضت في الجهات الأربع، صعدت أنف الجبل، وثبت من صخرة إلى حجر، وهي منذ البارحة تشم رائحة أمّهـــا فـــي الأرض، مرة إثر مرةٍ، مشغولة بهذا العبق، وله في دمها أثر. تملّـــت المكـــان، أحســـت بشيءٍ في قلبها يتقصف ويتفرّع في آنٍ، ينتفض ويطير، يصهل كمـــا المهـــرة الأصيلة، حمدانية المنبت، علت قامتها سامقة كشجرة سروٍ متناسقة، متأصلة في المكان، وهي كغرسة أعيدت بعد لأيٍّ إلى منبتها، وطفقت تركض ظالعاً وهـــي تلهث، كادت تقع متدحرجة حين همّت بالتوقف قرب "الأومباشي"، تسأله لتتأكد:

-: أومباشي.. أين نحن الآن.؟.

-: على مشارف "كلّس" شمال حلب. لم تسألين.؟.

صوتت لفلاح وزوجته في بطحاء، انتشر فيها الحرّاثون وراء محـــاريثهم، وانزلقت نحوهم في المسيل الواسع، تسأل عن اسم الديار، وجاءها الجواب:

-:إنها ضيعات "عمر جيك"

ارتمت يغالبها الإغماء، بهظها قلبها فرحاً بعد غربة مرة، وبرغم ذلك مـــا فترت بسمتها، وثغرها يصدر ما يشبه ثغاء الشاة، وما يماثل بغام ظبية، ولـــيس أنيناً، وبعيد الظهر كانت مع من تبقى من أهلها، جدها لأبيها، وأختها الأرملـــة.

أمها ماتت بعد أن خطفوها، وبعيد أن طفش أبوها إلى القارة الجديدة، وأخوها لم يعد مذ ساقه رجال الجندرمة إلى الخدمة العسكرية، هو ذا محـــراثهم العتيـــق، وفي الحظيرة معزاة وحمار وبغلة، وهناك دجاجات ينبشن روث المزبلة.

-: وبعد يا مريومة.؟.

أطرقت، ولم تجب عن سؤال الجدة نور، فقال جدها:

-: مريومه ابنتنا.. وإن كنا لا نجد ما نقتاته، فلهم أكثر المحصول، ولنـــا التعب من بعدهم والجوع. سئمت العيش وأكاد أكفر بالسلطنة والسلطان.

ابتعدت الجدة نور خطوات، ثم استدارت لتتكلم، فوجدت مريومه في أثرها تحضنها:

-: أمي نور.. هما سرّان، أفضي بهما إليك.

-: مريومه يا بنيتي.. إني أسمعك.

-: الضابط عثمان.

-: ما به.؟.

-: هو الذي...

-: قد علمت من هوريك بالأمر. هه.. ما سرّك الآخر.؟.

-: قلبي يا أمي نور.

-: من.؟.

-: أصلان.

أرسلت بطلبه، جاء على حصانه دونما إبطاء.

-: أتصاهرني ببنيتي مريومة يا ولد.؟.

وعقد الشيخ الإمام قرانهما، وقدمت الجدة نور، ثوب زفافها للعروس، ثـــم سألت أصلان:

-: أباقٍ مع مريومة؛ أم نأخذكما معنا.؟.

نظر إلى المحراث، وتطلّع نحو أرض المسيل، محدّثاً جدّ زوجته:

-: أرى أن سكة الفدان قد صدئت أيها الجد.

-: وكيف لا تصدأ، ونحن لم نحرث الأرض هذا الموسم.!.

-: إذاً دلني إليها، فلم يدركنا الوقت بعد.

ضمّت الجدة نور مريومة إلى صدرها قائلة:

-: أترك لك –يا بنيتي– رجلاً مقطوعاً من شجرة، فازرعيه في قلبك، كما يزرع أرضك.

استدارت نحو أصلان وقالت:

-: تركت لك بنيتي المحبة، فاقتلها عشقاً يا ولد.

قالت هوريك ممازحة:

-: تركت لهما مالم ينله غيرهما يا أمي.

-: وماذاك يا بنت.؟.

-: ثوب زفافك الحرير.

-: حين تفضين ليس بسرٍّ كسرّها، لك مني ما يلزم زفافك وليلة الدخلـــة. مريومه.. أصلان، أريد أحفاداً بعدد شعاب هذا الجبل.

* * *

وكان نعمان في البكور والضحى والهاجرة والأصيل، وفي الغسق والعتمة والسحر، وكلما ضاقت صدور الناس حرجاً، وحلكت ســواداً، متقهقــرة فــي الظلال القاتمة، ينشدهم وأبهى تغني لهم أشعاره:

-: (يا شعبي.. لست أنت من يُشبّه بالفولاذ.

إنما الفولاذ هو الذي يُشبّه بك.

إذا صدئ الفولاذ يمكن إعادة البريق إليه.

أما إذا اسودّ وجه الإنسان فلا يمكن تنظيفه أبداً.

أيتها الريح لمَ هذا الضجيج كله الذي يراكم الأفكار.

سوداء على صفحة الروح.؟.

تلبدي ما شئت أيتها الغيوم الدكن فوقي

فمن سمائي يُطل هلال مضيء.).

* * *

أوضحت "نتيفا" أنها حصلت عليها من "فلا ديمير جابوتنسكي"، ولم يكــن ذلك سهلاً البتة.

-: ومن وضعها.؟.

-: المرجّح أنه "أشر غنزبرغ".

-: إلي بها

-: اعلم أن القتل هو جزاء كل من توجد بحوزته صفحة منها. اسمع بعض ما جاء فيها.

-: [مستعدون أن نعدم "الـ.." إعداماً يخفي خبره عن الناس جميعاً، ولا يدري بهذا أحد، حتى المحكوم عليه نفسه، فيظل على جهلٍ من مصيره المدبّر له حتى يلقاه، فيموت بالوقت الذي يُحدد له، فيبدو كأنه ماتَ ميتة طبيعية، أو من مرض ما..].

كاهانا.. ألم يقشعر بدنك.؟.

-: نتيفا.. يجب أن أقرأها.

-: ولكن "أستير" تكاد لا تفارقك.

-: وما علاقة "أستير" بالأمر.؟. نتيفا.. كيف تخاطبينني بهذه الطريقة.؟!.

-: مهلك.. لا أريد وضع سرٍّ لي عندها، أو عند هدسه الوطباء.

-: بل قولي إنك تغارين منهما.

-: بلى أغار. ولن تقرأ سطراً دون ثمن.

-: وما الثمن.؟.

-: أقرأ معك كل ليلة فقرة، وتبقى معي وحدي طوال المدة.

-: موافق.

-: إذن رتّب أمورك لنبدأ الليلة.

<u>الليلة الأولى</u>: [لا ينبغي لنا أن نتردد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة...].

<u>الليلة الثانية</u>: [هذا الذهب قد جمعناه مقابل بحارٍ من الدم؛ والعرق المتصبب، وقد حصدنا مازرعنا، ولا عبرة إن جلّت وعظمت التضحيات، فكل ضحية منا، تضاهي "ألفاً" من الغوييم...].

<u>الليلة الثالثة</u>: [الغوييم قطيع غنم، ونحن ذئابهم..].

<u>الرابعة</u>: [سنمحو من أذهان الناس، جميع ما وعوه من وقائع القرون الماضية، مما لا نرى فيه الخير لنا، وسنلغي حرية التعليم في جميع الوجوه،

وتقضي برامجنا بأن يعمل ثلث الناس في التجسس على الثلثين الآخرين..].

الخامسة: [جواسيسنا من مختلف الطبقات؛ العليا والسفلى، ومن رجال الإدارة العاكفين على اللهو والأطايب، ومن محرري الصحف والكتّاب والناشرين، وباعة الكتب، وموظفي الدوائر والدواوين، ومن الذين كثر اختلاطهم بالجمهور، عن طريق الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، كأنهم بوليس بلا سلطة، يشاهدون ويسمعون وينظّمون التقارير..].

السادسة: [الحاجة إلى رغيف الخبز كل يومٍ، تُكره الغوييم على أن يخلدوا إلى السكينة، ويكونوا خدّاماً لنا طائعين..].

السابعة: [نكنس الأديان الأخرى جمعيها، ونحن دائماً حريصون على ألا نبوح بأسرار ديننا لغيرنا...].

الثامنة: [نضع في أيدي الناس ضروباً من مادة الآداب المنشورة بالطباعة، وهي غاية في التفاهة والقذارة والغثاثة..].

التاسعة: [نكثر من المحافل في بلدان العالم جميعها، ونشجع الغرور والفردية..]

العاشرة: [إن القدرة الحقيقية لا تسالم حقاً من الحقوق، حتى لو كان حق الإله، ولا يستطيع أحد أن يدنو منها..].

الحادية عشرة: [نعمل على زيادة صرف أذهان الجماهير، بإنشاء وسائل المباهج، والمسليات والألعاب الفكهة، وضروب أشكال الرياضة واللهو والغذاء، للملذات والشهوات، والإكثار من القصور المزوّقة، والمباني المزركشة، ثم نجعل الصحف تدعو إلى مباريات فنيّة رياضية، ومن كل جنس، فتتوجه الأذهان إلى هذه الأمور، فتنصرف عما هيأناه، فنمضي بالناس إلى حيث نريد..]. وعلى مر الليالي ظلت نتيفا تتفنن بضروب الإثارة، مبتدعة لكل ليلة فرادتها، فلا تكرر ما أتته في سواها، وفي الليلة الأخيرة همست له:

-: الليلة لك.. تصرّف كما تشاء، فقط أريدك أن تهمس لي بكل ما تعرفه من شتائم وسباب وأقذع الألفاظ، أسمعني الكلمات البذيئة همساً.

* * *

وكلما قصرت المسافة، بدا كمال لائب الفؤاد، والشوق مثل العطش، يلهب روحه توقاً لأهله وحلب، وما فتئ يردد جهاراً وفي سرّه:

(يا قلب صبراً جميلاً إنه قدر يجري على المرء من أسرٍ وإطلاق

سمعته قمر يرددها، فأنصتت تتملى المعنى معجبة، وبالآن نفسه منقبضة مضطربة، غير قادرة على إخفاء قلقها، مما راح إليه بذينك البيتين من الشعر:

-: (تغلبك الأنثى التي فيك يا قمر، وتنسين أنه بشر، في قلبه ركن لأهله.!. وجهك مرآة روحك، وهاهو قرأ ما دار في رأسك، فترينه يبذل ما بوسعه كي يقنعك أنه وجد فيهما سلوى تخفف الكرب، نطق بها مجرّب ذاق لوعة الظلم والغربة.

إيه.. يا الجدة نور.. يا من دعكتك التجارب غضة، وأنضجتك امرأة غنية الوجدان، فلاحظت ما ألمّ بهوريك، عقب افتراق مريومة عنها، وأنت لا توارين ولا تعدمين لباقة.).:

-: هوريك يا بنيتي، ألن تفضي إليّ بسرٍّ صغيرٍ، كما فعلت الغالية مريومة.؟.

-: أمطت لك اللثام عما في قلبي يا أمي.

-: عسانا نمر في طريقنا على منبتك، فتجدين أهلك.

-: قد بعدنا كثيراً عن "ضالفوريك" .(حين سبوني يا أمي، لمحت حرابهم تنغرز في صدور الغوالي، قطعوا أثداء أختي، وبقروا بطن والدتي، ومزقوا أوصال أبي وجدي، وأسقطوا أخي الصغير، من سطح الدار، على حرابٍ مشرّعة كشوك القنفذ إلى أعلى. وحده أخي "يراونت" احتمى بالجبال، يقاوم معَ الرجال كتائب الحميديّين. ضربونا بالمدفعية، بينما "البنباشي كيوسا" يردد قرار الصدر الأعظم "كوتشوك سعيد":

-: إن أنجع وسيلة لإنهاء قضية هؤلاء، هي القضاء عليهم.

رؤى جهنمية لا تغيب عن ذهني. جمعوا القتلى والأوصال المقطّعة، والمطعونين والمنازعين، وأحرقوهم حرقاً. مازالت رائحة اشتواء لحومهم تملأ خيشومي.).

ضمتها إلى صدرها، وربتت على كتفها، وفي مقلتيها دمعتان جامدتان كحبتي برد:

-: أصابنا مثل بلواكم يا بنيتي. القتلة هم القتلة حيثما كانوا. فليلطف الله بمن يجعلونه بعدنا وبعدكم.

-: أمي.. لمَ لا يتوحّد الطيبون، كما يفعل الأشرار.؟.

-: لشدّ ما أخشى عليك مما أعرف. فالذي مضى لم ينتــه، وربمــا كــان أسهل مما هو آتٍ.

-: أمي.. ليس فيّ ما يزيدني ألماً، فقد أنغلوا قلبي وخرّبوا عمــري، وإن كان لي ما أطلبه، فرجائي ألا تشعريني أنك تريدين التخلص مني

-: لا.. لن يحدث. اطمئني.

-: (إيه يا أنت يا نور.. تعدين البنية بأكبر مما تقدرين، فعمرك يذوي دانياً من منحدر سفحه الآخر. لو أنك تنفّذين ما دار في خلدك، لضمنت لها الخيــر، وأنّى لنا أن نجمعهما، والشيخ الإمام أكد غير مرة أن "لا إكراه.."). جال ذلــك في خاطر العجوز داود، وهمست قمر منقبض قلبها:

-: (بعدك أبقى بلا أحد.!.).

اختلت بنفسها يخنقها عجزها عن نفع والدها. قد غفا فلعله يرتاح، بعــدما خثّر دمها في عروقها، إثر صيحة ألمٍ حادة؛ انثنى لها وتلوى، وبقــي إدريــس الحكيم إلى جانبه، حتى كاد الليل أن ينجلي، وما غمضــت لهــا عــين. قلّبــت صفحات الكتاب متلفتة إلى أبيها وقرأت:

-: (أدوني صادق ملك أورشليم. هوهام ملك حبرون. فرآم ملك يرمــوت. يافيع ملك لخيش. دبير ملك عجلون.. اختبؤوا في مغارة في مدينة مقيدة، فــأمر "يشوع" جماعته أن يغلقوا المغارة بحجرٍ كبير، حتى يموتوا، وقد فعلوا ما أمر، ومن ثم فتحوا المغارة، وأخرجهم أحياءً، لأن "يشوع" أراد أن يذلّهم، فأمر عدداً من رجاله، أن يضعوا أرجلهم على أعناقهم، ففعل الرجــال ذلــك، ثــم قــتلهم "يشوع"، وعلّقهم على الخشب، وبقوا معلقين حتى المساء، فأنزلوهم ووضعوهم في المغارة، لتكون قبراً دائماً لهم، ووضعوا حجراً كبيراً على فم المغارة..).

نقزت مقشعرّة، وظلت قلقة وقتاً غير قصير، وأنّى لها بكمال لتخبره بمــا انبثق في ذهنها، فحجة ألكسندر وعثمان للتخلّص من أولئك الفتية، تلفيق وحجة واهية، ما كان لها أن تجعلهم درياً وإعدامهم رميــاً بالرصــاص، وهــم جــلّ المتنورين، والحرب قذفتهم نصف قرنٍ إلى الخلف، وإفناء أولاء يحتاج لجيلــين قادمين كي يتم تعويضهم. إنه إطفاء سُرج النور، لتزداد حلكة الغيهــب فتنعــدم الرؤية، وتتقهقر الأحلام إلى دهاليز الكوابيس.!.

سيطر هذا على تفكيرها، وجعلها تتغاضى عن وضع والدها، وراحت فــي

الغلس توقظ الصفوة صائحة:

-: إننا عرضة لمؤامرة ضمن مؤامرة في مؤامرة أكبر.

وانطلقت إلى كمال موضحة ما سطع في ذهنها وسألت:

-: ما غايتكم، وإلى أين تمضون بنا يا عسكر السلطنة.؟. أتلى مغارة مثل مغارة "يشوع".؟!.

صمت مطرقاً، حتى حسبته لم يكترث بكلامها، لكنها أصغت إليه تماماً، وقد فرد صفحات للكواكبي وقرأ لها:

-: (المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلهما، والحق أبو البشر، والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبّوا، وإن دعوهم لبّوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت.).

أتدرين أني بت على يقين، من أنهم دبّروا قتل قائل هذا الكلام، ولم يمت حتف أنفه. وأنهم سيدبّرون قتلي إن علموا أني أنقل لك كلامه.؟. ظلّي حذرة يا قمر.

سمعهما عثمان متجسساً، شعر بالفخر مغترّاً أنه رجل المهمات الصعبة. أولم يكن في مجموعة لاحقته في القاهرة، ودسّ بيده السمّ للرجل في فنجان القهوة، ثم عاد وكوفئ، ثم نال ترقية لتخلّصه ممن ساعدوه بطريقة بقيت سريّة، وحسبت له فذة عبقرية.؟!.

تركهما ومضى إلى "جيئولا"، يؤنس وحشتها، ويدفئ دثارها، مبيتاً لكمال زلّة تذهبه، فلا يقف على رجليه بعدها.

وطوى كمال صفحاته الأثيرة، وتعمّد الصمت طوال الوقت.

أدركت أنه رمى على عاتقها مهمة جسيمة، حدّقت إليه مصوّبة البؤبؤ في البؤبؤ، وليس الكلام بأبلغ مما وصل العين من العين.

وأكبّت تقرأ بنهم، قبل أن يطرأ طارئ فينكشف أمرها، أو تضطر إلى إعادة الكتاب، وهو أمانة عندها، وتمعنت دهشة:

-: (... وأمسك ثلاثمئة ابن آوى، وأخذ مشاعل، وجعل ذنباً إلى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط، ثم أضرم المشاعل ناراً، وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون...).

-: العمى..!!.

شهق والدها وحشرج، هبّت إليه، أمسك يدها واجتسّ رسغها، ابتسم لامساً وجنتها، ثم قطّب، ابتسم ثانية ثم تجهّم، فرد قسمات وجهه فانقبضت، جعل طاقته برمّتها في عضلات وجهه، فلاحت انفراجة كسلى على أساريره، حينئذٍ نبس:

-: ضيف الله كان واثقاً من كلامه عن "مائير"، وهناك غموض رهيب؛ فثمة من دبّر ميتتهما في الليلة ذاتها، وإلا فإنها مصادفة جدّ عجيبة. ثقيل عليك ما تسمعين، لكنها أمانة احرصي عليها، لعلكم تمحّصونها ذات مرة. قمر.. ظلّي شامخة، ولا تتخذي لك رجلاً، إلا أن يكون نضراً في القلب؛ من رتبة الحب ومرتبة الشغف، وقلبك في هذا وحده الحكم. أملقتنا الخطوب فلا تفرّطي بنبضة من قلبك. بنيتي.. فرسك "سيمازه" أصيلة مثلك، فلا تدفعي بها إلى مهانة. قمر يا غالية.. اعلمي أن "نور" عشقي الأول، فانظري إليها ترين بعضي فيها، قولي: هذه التي مات أبي وهو مغرم بها.

تمتم بالشهادتين، وانطفأ ألق الحياة في محياه. لم تبكه. ظلت ذاهلة برهة، تنظر إلى الجسد المسجى؛ كجذع سنديانة رمته ريح قاصفة، وتقرّت على قسمات وجهه مالا يمحوه الصمت، فما كان بينهما أكبر من النسيان. طبعت قبلة على جبينه العريض، وتملّت تينك العينين، كأنّ مشاعرها تلج هاته الأحداق إلى الأعماق، قبل أن تسبل عليهما الجفون، وهمست وهي تقبّله عند حبل الوريد:

-: "نور" سرٌّ عمرك ولم ألحظه؛ وأنا منك كحبل الوريد.!!. يا لجبروت العماليق.. أيها الرجل البسيط.!!.

10

وقعت الواقعة، وحدث ما ظلّت تهجس به منذ أمد، صمتت مسلّمة منذ لحدوه، وما برحت تردد في ذاتها المقفرة:

-: (ها أنذا بعدك بلا أحد.).!.

عزّاها، وذكر أنه افتقده، فقد كان أميناً؛ أنيساً طيب المعشر، وأغدق عليه من حسن الشمائل الأجمل، ونسب إليه مالا تعرفه حتى قمر.!. بعضهم تلفّت إليها غير مرة، يكاد يقفز من أفواههم وعيونهم السؤال:

-: (أكان منه هذا، ونحن لا ندري.. عجبٌ عجب.!؟!.).

تابعته منصتة، وعلى طرف فمها بسمة مبهمة، تكاد لا تظهر، برغم أنها تتزّ سخرية، لا يتوه عنها من يدرك مبالغة الضابط عثمان، لاسيما أنه يغفل اسم أيٍّ ممن قد يُسأل عما يقوله، بينما أقسم وأغلظ الأيمان، على دقة ما يروي، وأشهد الشيخ الإمام مراراً، فلم يخذله، ودون أن يجزم، طفق يردد:

-: بلى.. نعم.. صحيح. أي نعم.

وتابع الضابط مؤكداً أنه ما أتى إلا بغيضٍ من فيضٍ، وحثّ السامعين على ذكر محاسن موتاهم على الدوام، وبين فينة وأخرى يباغت الشيخ الإمام، سائلاً:

-: مولانا.. ألا تشهد.؟.

فنقز من إغفاءته، مجيباً:

-: أشهد.. أشهد..

ثم استحلب لعابه متمتماً:

-: .. أنْ لا إله إلا الله.. أستغفر..

وعاود التماس إغفاءة تكاد تتبدد. وكادت قمر تنفجر ضاحكة، حين أردف الضابط، أن المرحوم أوصاه بها، ثم إنه لن يكتم مكانتها الحميمة في نفسه، وفيها شبه عجيب من أمّه.!.

اصطبرت، وسمعها من بجانبها تنبس:

-: يا لك من مدلّس.!.

فما والدها إلا واحداً من بضعةٍ يطويهم الموت كل يوم، سواء فقيد أهله، أو من لم يبق من شجرته أحد. وإنها تتقززٍ لقذارة يديه، فتلك أصابعه تقطر دماء الذين قتلهم غيلة، كوحشٍ لا يجارى فتكاً، وها هو يخرط مثرثراً، وهي تضغط اشمئزازها، كي لا تبصقٍ في وجهه أو تتقيأ:

-: (تجمّل بما أُتيح لك أيها الضاري، فليس بين الوحوش قاطبة، أشد توحشاً، من آدميٍّ فقد إنسانيته مثلك. بئس حقيقتك؛ وبئس غايتك يفوح دنسها جيفة، كذوب أنت، ومحال أن أثق بك، ولأنك الأقوى فخذ امتدادك، وإني الأنقى؛ ولي أبعادي الأعمق، وشتان يا ذا المخالب). وذهب بعضهم إلى الإعجاب بموقف الضابط المتواضع، وغرّهم لغوه المتتابع، مكبرين أن يشارك في عزاء رجلٍ من عامّتهم، وتهامس بعضهم:

-: الكبير كبير، والتواضع زينة الكبراء.!.

ولفت انتباههم كيف أنّه ألحّ موصياً، أن يسمى مولودهم القادم باسم "داود".!. وكيف أنه لمّح أن تكون قمر وفيّة لذكراه، فتعطي اسمه لسّبطه منها، فهو بديد الحفيد، فنصيبها آتٍ لا ريب عما قريب، ولشدّ ما شدهم إذ ناداها:

-: يا أم داود.

فأثار زوبعة تساؤلات –لماذا "داود" بالذات.؟!. طرحوا ذلك ببراءة وريبة وطيبة واستنكار وثرثرة، وبعض الهزء أيضاً.

وتماسكت دون القيل والقال، مخفية ضجرها من كذبه ووجوده بينهم، حريصة على تخبئة أساها في حبة القلب. صحيح أنّ مرحها قد انجذر، بيد أنها لم تركن إلى الحزن المتفطّر، فليس لها على من هم حولها أن يحتملوا كربها، وفيهم ما يكفيهم ويزيد، وها قد ماتت طفلة بالتجفاف، ولحق بها عبد الغني الممسوس، ذاك الذي فقد عقله، مذ مزّقت قذائف عريف ألكسندر، زوجه وابنته وولديه وأخته، وهاهو نوح، لكأنه ثكل ببرذونه الأبرش، ولسوف يمضي حفتاً على قدميه، إلى ما شاء قدره.

اقترب ووقف قبالتها صامتاً، حتى قدّر أن أغلب الموجودين يسمعون ما يختم به مواساته، وبرغم أنه تداهى إذ أوحى أنه أخفض صوته، إلا أنه تكلم بنبرة لم تفت أحداً:

-: لا بأس سيدتي.. فإني مرجئ مسألة مالٍ تركته وديعة عنده، فليس الآن وقته. أشاطرك افتقاده، ولك البقاء من بعده.

حوقل.. ثم زجر الحوذي ليبعد العربة، فلن يصعدها تقديراً للفقيد، وطلباً لمثوبةٍ من تفكّره بالموت، وطفق يردد:

-: (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر..).

ابتعد ولم يعد صوته مسموعاً، أو أنه سكت دون ما بدأ.!. لكنه كان يدحض أقواله كلها، مفرجاً عما كتمه:

-: (كبّلتك بدينْ تعجزين عن ردّة، فيكون مهرك، وأنالك صاغرة، فإن أبديت حرداً، قسرتك بأسلوبي؛ وهذا مشتهاي ومنتهى مبتغاي، ولا مفر.).

والقلّة من حولها في حيص بيص، أولاء الذين همهم أمرها، وحسبوا أنهم أقرب إليها من غيرهم، وما بعضهم إلا فضوليين، جذبهم ذكر الوديعة، يرنّ رنيناً متنوّع الإيقاع، تردده الحواس جميعاً، ارتدّ لمعان بريقه عن مرايا صقيلة، في مخادع أُجيد إعدادها لضروب من الطقوس الخصوصية، وهاهو رمضان اللص ذو الأمزجة العجيبة، يقترب مندسّاً بينهم، لعل أذنه المرهفة تلتقط ما ينفعه، فهو أولى بوديعة الضابط وبمال أمثاله، الذين يكنزونه دون حاجةٍ أو إفادة، ولكثرة ما ردد مقولته هذه، صارت قناعته الرئيسة الراسخة فأمسى لصاً انتقائياً، مشروعة أفعاله، له في الحياة مثلما للساعين فيها من نصيب.

ولم تلبث الشائعات أن تناثرت.. العيون في ومضها تسأل، والآذان بانتظار حرفٍ يُنبس، فبحيرة الحزن الراكدة لُجبت بحجرٍ رماه الضابط فيها، فترك الرؤوس والأنفس مضطربة، ومضى لا يعبأ بالذي أحدثه؛ بل إنه مغتبط لعسعسة البلبلة، وقد دسّها في كلامه معسولة.

أية وديعة تلك وما مقدارها.؟. ومثله لا يحكي عن "براغيث ومتاليك".!. قيل إنها ثروة طائلة، وقيل إنها ما خصصته السلطنة لنفقات المسير. أين تخفيها النمرودة.؟. أكنت ووالدك تتشدقان بغير ما تأتيانه في الخفاء.؟.

هاقد افتضحتما، ويا لخزيكما.!. هكذا إذاً.!!. فالأب صاحب الضابط ذي المال، وابنته صاحبة الضابط ذي الفتاء. جاهٌ ومالٌ، وشابٌ بأول العمر.!. يا لنا

من غُفّل.!. سقط برقعك يا قمر، وأميط اللثام عن لحية والـــدك البيضـــاء. فيـــا لسواد وجوهنا بعيبكما.

-: (أين أنت يا وحيد قلبي.. أواه يا كمال.؟!).

رأت الصبي حمزة فأومأت له، نظر إليها فبكى وطفش.

-: (حتى أنت يا صغيري.!.).

-: ما الذي تناهى إليّ يا قمر.؟.

شعرت كأنه أنشوطة المشنقة انحلّت عن رقبتها، بعد أن كـــادت تخنقهـــا، حضنت الجدة نور ونشجت.

* * *

رضخ الضابط لرغبة "تتيفا" وصحبها، فخرير الماء في الجدول الصـــافي، مغرٍ إلى حدٍ لا يقاوم، والمكان مناسب لإحياء طقسٍ – بتكتمٍ يتطلبه ظـــرفهم – يعوّضهم عن عيد "الهانوكاه"، وقد فاتهم الاحتفاء به.

ناور مرؤوسه كمالاً، وأوجد ممرقاً لإصدار أمرٍ باستراحة في المرج قرب الجدول، لكن ارتفاع نقعٍ من جهة الشرق، ثم ظهور كوكبة فرسان علـــى التلـــة القريبة، والتفاف جريدة من المسلّحين، وتقدم رعيل خيّالة من الشـــمال، ومـــن خلفهم بدت شرذمة مشاةٍ، وفي الجنوب وقفت ثلة متأهّبة، ودرداب طبل عـــلا، كأنما ينذر بحربٍ ومقارعة، كل ذلك لفت الانتباه، ودفع إلى توترٍ وعدم ارتياحٍ. فهاهم في حالة حصارٍ، ثم سمعوا:

-: يا.. هوو.. أنتم هناك. عيروا آغا يأمركم باستئناف سيركم، والخـــروج من أرضه في الحال.

حاول الضباط عثمان تأليب الناس، واستنفر عسكره واضـــعاً الشـــر بـــين عينيه، شاتماً عيرو آغا، خصمه اللدود، بأقذع السباب، لكنه خنع إثر اطلاعـــه من "حمو" ابن الآغا، على كتاب صريح بتوقيع وختم والي حلب، يمنع العســـكر من الحلول بأرض الآغا.!.

انزوى مجترّاً سخطه، وتراءت لـــه أفاعيله المتكررة، وقـــد أذاق الآغـــا وجماعته المرائر.!.

ولم يستطع الضابط كمال إقناع "حمو" بشيء، إلا أنّ الوجهاء التقـــوا ابـــن الآغا، فأبدى تعاطفاً، متأثراً بأحوالهم المزرية، فنقل صورتهم إلى والده، ثم عاد

بالجواب:

-: أما أنتم فعلى الرحب والسعة، وأما العسكر فـــ.. لا.

حمي وطيس النقاش، واحتد الخلاف، بين رأس العسكر وجماعة الوجهاء. ووجد كمال نفسه على الحياد، في نزاعٍ حادٍ؛ بين صفته الرسمية، ومـــا تمليـــه عليه، وبين خلجات الوجدان وما تأخذه إليه، وكان الفصل بين النـــاس وطـــوق العسكر، يحتاج إلى قرارٍ من صاحب قرار.!.

وآل الحلّ إلى الضابط عثمان، فسأل عن "ضيعات فوزي بك" فأحيط علماً أنها المتاخمة، وسيكونون فيها مع الغروب، إذا أغذّوا الســـير دون تلكـــؤٍ، ولا شيء يجعلهم يتباطؤون بشدّ الرحال.

فنظر ناحية قافلة "تتيفا"، ودمدم:

-: (لكأن الحظ يحالفكم أيها الأعزاء، بقدر ما يجافي أولاد الكلب هؤلاء.).

وجرّ الناس أرجلهم المتعبة إلى هناك، والشمس تمارس طقسها المـــألوف، منسحبة بتؤدة عن أطراف النهار.

* * *

-: هي ذي حالتي يا أمي نور.

-: هكذا إذاً .!.. سليمان... تعال.

أتاها عجلاً، فأعلمته أنها تريد الحكيم إدريس على انفراد.

وانفردا في عربتها، وأمضت الدرب معه مستفسرة، تسأل مستفهمة تنصت مستوعبة، تستوضح.. تستمع. فأدركت معرفته بحال جثـــة الميـــت مســـموماً، ووجدها مطرقة متسارعة الأنفاس، سادرة العينين، تداري كآبة داست تجبّرهـــا ووطئته، وصمتها مطبق عميق... فتركها ومضى دون أن يفهم ما تنوي، وظلّ راغباً لو سألها سؤالاً ليس سواه. ولمّا يزل منشغلاً بحال الجندب النطاط لأتفـــه الأسباب، وبعض الطير تُقتل حاضنة بيضها، راقدة عليـــه والخطـــر يحيطهـــا محاصراً من فوق وتحت، وباقي الجهات.!!.

وتضيّقت الشمس غرباً، تستعد لقضاء الليل والمبيت الحالم؛ أو السهر مـــع حبيب الروح والقلب والعين. تتحفى عن أقدام مخضبة بحناءٍ ليلة العرس، تبدّل ثوبها، فتستحم بمنقوع أوراق شجر الجبال، حملتها معها مخلوطةً بقرمزٍ وتوابل الشرق، تعطر به جسدها، وترشقه على عتبات مخدعها المترف.

* * *

-: وأنت.. أيها الماء.. أي سرٍّ فيك.؟!. رقراق سلسبيل، تناتل النبت على جانبيك، تنوّع وتشكّل أشكالاً وتلّون، قصب ونعناع المـــاء وســـماق، والبقلـــة الحمقاء، وأقاحٍ تمجّد مبدعها، ونجيل مجدول، وعشب غض، ومرج لا تضاهيه سجاجيد قصورِ الأكاسرة والقياصرة والأباطرة.!. الطرخون حيثما كان والنفل، وحشائش وأزاهير لا تخطر على بال؛ عصيّة على الخيال.!. وفـــي الخصـــور الهادئة شبه الراكدة، يستحم النّيلـــوفر ورودا وأوراقـــاً جـــدّ عريضـــة، طفـــت مستجمّة. إنه يعشقك يا نهر، فحياته منك وفيك، يتبرّج لـــك ويـــزيّن نواحيـــك، وعلى حافتيك تتباهى نبتات الحلفاء والبردي، ترنو إلى الصفصاف والـــدردار، وأعشاش طيور على الأفنان، سجع القمري يهاتف زقزقة عصـــافير، وتغريـــد تنغّم به طير تنوّع شكله ولونه، وبعوض يطنّ وذبـــاب وجنـــادب وفراشـــات، وضغيب أرانب تتربّص بها بنات آوى، وضباح ثعالة تحاور ثعلباً هناك، كأنما تدعوه ليتيقظ لبطيطة بطات سمان؛ غائصات عائمات فيك جماً وضحلاً.

ويدعو إلى العجب، نقيق متقطّع متناوب متواتر مختلط متواصل، متوحّـــد محتد، كأنه لمخلوق خرافي هائل، تزداد شدّته كلما اقترب المرء منك. عجيبـــة شبابيطك وحيّاتك وسلاحفك، وأعجب منها ضـــفادعك المخضوضـــرة. أيمكـــن عدّها.؟. أهي آلاف.؟. أم أنها أكثر من الحصى.؟.

سألوا عن اسم النهر، فتفاصح "الأومباشي" قائلاً:

-: تلك هي الضفادع تجيبكم.

فبدا كلامه مسخرة، لم يغضب. إنما دعاهم أن يضبطوا إيقاعها.

-: (قويق.. قويق.. قويق..).

-: بلى.. إنه نهر قويق.

تناقفوا مقلّدين، وأضحك بعضهم بعضاً، وراحـــوا يتراشـــقون خائضـــين، مراقبين طائر القِرلي، وهو يخطف صغار السمك بحركة رشيقة، ثم يذهب إلى حيث يزدردها مطمئناً.

وأمسك بعضهم السرطانات، قاذفين بها إلى الشط، مراقبين مشيها الغريب إلى هذا الجنب أو ذاك.!. والأومباشي يداعبهم:

-: أيها العلاجيم.. كأنكم ذكور الضفادع والبط.!. حذار أن يجرف المـــاء أحدكم، فيصل قبلنا إلى حلب.!.

وراحت النسوة يملأن الأكواز والجرار، مستمتعات بمجمل ما يحيط بهن،

ونبهتهن جلبهار إلى بقبقة أوانيهن في الماء، وعقعقة ذاك الطائر المسرع بطيرانه فوقهن وفي أنحاء الأجواء، ومدى تشابه الصوتين:

-: بلى.. إنه طائر العقعق.

تنفّست أمينة بعمق وهتفت:

-: تبقى الحياة جميلة مهما كان.

وتنهّدت "أُلفت" متحسرة وقالت:

-: لو ما بلّدوا مشاعرنا، ومسخوا أحاسيسنا.!.

ودغدغت قمر عزلة هوريك قائلة:

-: إن لم يكن من وقت للسرور، فلا وقت أيضاً للحزن. نفّسي عنك أيتها الجميلة هوريك، وها نحن معك نحاول الرضى بالنصف المملوء من الإناء.

قفزت أمينة إلى قمر تعانقها بلهفة وود، لكأنها عليلة برئت من مرضها للتو.

***

آنئذٍ بدّلت قافلة " نتيفا" وصحبها مكانها، ملتفةً شمالاً، منعطفةً حول مجرى النهر، وإلى بعدٍ، لا تسمع خلاله إحدى القافلتين أصوات الأخرى، وتلك هي تستقر قرب قصرٍ موقعه غوطة غنّاء، بين أشجار الدغل المحيط بـ "قناق" فوزي بك.

اطمأن الضابط عثمان إلى أن "البك" فهم رسالته، وهو بهذا قرن القول بالفعل، مؤكداً صدق حماسه المفرط، كلما جمعهما المحفل.

بينما أمضى الناس مساءهم يشوون الأسماك، وكميات هائلة من الضفادع، وقد هدتهم هوريك إلى طريقة تحضيرها، فجعلتهم يتخمون بعد ضور...

وهناك، أقام "البك" احتفالية لنتيفا وصحبها، وأوقدوا "المنورة –الشمعدان"، ولبسوا القفاطين والمعاطف الثقيلة، وأردية عباءات "الظلت"، والقلانس الوبرية السميكة والزنانير، وعلى رأسهم الحاخام، بقلنسوته المثبتة على مقدمتها حلية ذهبية، محفور عليها "مقدس الرب"، مخيطة بخيوط الحرير البنفسجية، يحفّ به الحزّان ونافخ البوق وخادم المعبد وحارسه، فأخذ من خزانة –قدس الأقداس– التلمود وسفر أستير، وقرأ منهما على رؤوس الجمع، لكأن المكان تحوّل إلى "كنيس".!.

وفي الجانب الآخر أعدوا مائدتهم الخاصة، من "المنّ" مما خبؤوه من

إفراز ذاك النبات السكري، وأضافوا إليه "السلوى" من طيور السُماني والفِري، وقد وفّرها فوزي بك بكميات كافية، بينما علّق "شُوحِيط؛ المأذون له بالذبح"، ذينك الكبشين، ورأساهما إلى أسفل، فذبحهما وغطى آثار الدم بالتراب، وتولى مساعدوه السلخ والطبخ، فبذخت المأدبة حافلة بالأطايب، فخر "البك" بها، لكن متعتهم منقوصة لتخلّف الضابط عنها، فوافقوه مجاملين، وتلمّست نتيفا له عذراً، فهو يغطي عليهم، ويلهي الأعين عنهم، فموقفه دقيق الحساسية، ومهمته عظيمة الصعوبة.

وأطنبت أستير بمدحه، مثمّنة مقامرته بحمايتهم، ريثما يبتعدون عن وجار الضبع.

قال صموئيل:

-: ضبع وجراء وجيف، هكذا هم، نخنعهم؛ بل نطهّر البسيطة منهم.

ردّ هيلل:

-: ولكنهم أغلبية كثيرة.

-: حين نعطب الرؤوس، لا أهمية للحثالة المتبقية في القعور، فنسخّرها للخدمات الوضيعة، أما العليا فلا يرقى إليها إلانا

كبتت (نتيفا) غيرتها؛ إذ لمست في كلام أستير مؤايدة، لكنها لم ترتح لطريقتها في الإطراء، وتمنت لو جاء ذلك من آخر، ولحظت أستير غيرة غريمتها، فناكدتها وجعلت من سيرة "كاهانا" مآل حديثهم، على أنها أقربهم إليه، وهي فرصة لم يفوّتها "البك"، فزايد ممتدحاً الضابط واصفاً إياه بالصديق، أما فعله فلا يتعدى الواجب، وإلا كيف له أن يكون من جنود (يهوه)، مخلصاً ليشوع وتعاليم التلمود.؟. وحمس حتى كادوا يحسبوه حبراً من أحبارهم الكبراء.!.

* * *

-: ... نعم.. هذا ما أكّده قبيل أن يسلّمها.

بذا ختمت قمر مكاشفتها، فوجم الحاضرون، ونظر حمزة وتوفيق أحدهما إلى الآخر، وفي عيني كلٍ منهما نمٌّ صريح عما كبتاه طوال الفترة المنصرمة.

وتكررت في ذاكرة توفيق لحظات قصقصها ذهنه من مجمل أحداث ذاك اليوم المشؤوم، فبرزت له لحظة نادى أبوه ذلك الرجل:

-: (مائير.!.).

دقّت الجدة نور بعصاها، فطبطب الديك جناحيه، وصاح صيحة واحدة، ثم اعتلى طرف الخيمة، محركاً باصرتيه في الجهات، واستمرت الجدة بدقاتها، كأنها تزيح شكاً عن يقين. لحظتئذٍ أشاحت هوريك وجهها رابطة خيطاً بخيوطٍ، صورٌ تقاوم النسيان، تجرّح الذاكرة وتخدش الوجدان، تفتق ما كاد يندمل.. سلعة في ماخور التاجر النخاس.. قضم الحلمة.. وليلة القبض عليها، إثر محاولة هربها من "قناق" أحد البكوات.. الحراب المشرّعة كشوك القنفذ.. بطنٌ تُبقَر.. جنينٌ يندلق ساقطاً كومة لحمٍ يختلج هنيات.. الحبل السري يتأرجح بين رحمٍ ومحتواه. كان ذكراً.!. وكان أبوها وافقها أن يسموه "هوسيب"، و "سيرانوش" إن كانت أنثى. وتكاثفت في مخيلة الحكيم إدريس، مجمل حيثيات السويعات التي سبقت وليمة الضابط، باسم الشيخ الإمام. تلك التي حمس مصراً على إقامتها، وموت ضيف الله على إثرها، والحرج الذي عرّى مفاصلهم لعين متقصدٍ، بأن يضعوا صليباً على قبر "القندلفت"، أو لا يضعون.!.، كانت إشارات متتالية، إنما الملامة على صفاء سريرة، وطيبة قلب إلى حد الغباء.!. أواه من الظن بالآخرين كحسن الظن بالنفس.!.، إلام النظافة في زمن لوثته القذارة.؟.

وقتئذٍ كان الإسكافي يعقوب يجوب المكان، رافعاً عقيرته بقولٍ طالما كرره:

-: أيها الأنقياء من البشر، تزنزوا بجذوركم مثل الشجر، وقت الأعاصير والمحن.

سأل رشاد:

-: أيها الحكيم. أمتأكد أنت.؟.

-: سترون العلامات ذاتها على الجثتين.

-: جثتان.؟!.

-: أي نعم، فإن كان ضيف الله مات مسموماً، فإن مائير –القندلفت– مات بالسم أيضاً، وبالتالي فإن تلك الأمارات إن ثبتت، تجعلني أصر أن القاتل واحد. وثب توفيق كنمرٍ غاضب وصاح:

-: الويل له.. سأقتله، ابن الحرام.

أمسك به رشاد وعبد الله، وأجلساه، وطلبت الجدة نور أن يهدأ، ثم قالت:

-: دعونا نجعل الخيوط تتجمع في عقدة واحدة، فلا سبيل للتهوّر، والأمر برمته يحتاج إلى دهاء.

هتف الصبي حمزة:

-: تذكرت.. إنها هي. أتتنا هناك وسألت. لم أعد أذكر عمّ سألت.

-: عمن تتكلم.؟.

-: نتيفا.

-: القديسة.؟!.

-: لم تكن قديسة. أقصد لم تكن ترتدي حلة القديسة.

-: متأكد يا ولد.؟.

-: نعم، وأقسم.

-: ما معنى ذلك.؟!.

قال سليمان:

-: هذا خيط آخر.

سأل إبراهيم:

-: أتذكرون الشمعدان والكتاب.؟.

نظر بعضهم إلى بعضٍ، وفي عيونهم ماهو أوضح من الكلام.

قال إدريس الحكيم:

-: لو تسنى لي معرفة إن كانوا مختتنين.؟.

ردّ رشاد:

-: هل أراقبهم إن اغتسلوا في النهر.؟.

-: حاول.

-: ما الذي ذهبت إليه أيها الحكيم؟

-: أشك بنصرانيتهم.

-: ليس يهمنا ذلك في شيء.

-: ولكنه خيط قد يحل اللغز.

-: علمتني الحياة أن حل الألغاز، تزيد تعاسة الضعفاء أمثالنا. يعرفــون..

ولا يقدرون، وفي ذلك متعسة.

-: ما الذي قلب الأوادم إلى وحوش.؟. وما الذي جعل القتل هيناً، وصـــيّر الدم مألوفاً.؟. وإزهاق الأرواح فعلاً يومياً.؟.

ردّ الحكيم إدريس متأسياً:

-: كأنها علل شيطانية. أتساءل: أهي حرب خفيّة.؟. مريعـــة تلـــك التـــي تناهت إلي، في سفري إلى وارسو وإزمير وبوخارست وأدويسا.

سأل رشاد متعجلاً:

-: وما ذاك.. أفصح.؟.

-: الأطفال الذين أخذوهم من أهليهم، وضعوهم في مراكز تدريب سريّة، محوا فيها ذاكرتهم الطرية، وجعلوهم آخرين، جنوداً أجلافاً يحبـــون بنـــادقهم، يبيدون الخلق، بمن فيهم ذويهم، كأنهم يصطادون الأرانب.!..

أكد سليمان أنه قرأ عن مثل هذا، إبّان دراسته، وأنهم بعثوا من هؤلاء، إلى أولئك، ومن تلك البلاد إلى غيرها.

-: إنهم مسوخ لا يمثلون أصولهم.

-: تقول ذلك جزافاً، بينما يمشي أولي الأمر بالنميمة، فيوغرون صـــدور المجني عليهم، على أصول أولئك المسوخ.

-: هذا يعني أنهم يعترفون بحقيقة أولئك الأدوات.!.

-: ليس اعترافاً بالحقائق المخفيّة، وليس لردّهم إلى أهليهم. إنما..

-: اللعنة.. شرٌ جاسوا به شراً.!. إنها الفتن ونعر العصبية.

-: قد يكون بين العسكر ممن حولنا، من هم منا.

-: وربما بعضهم من ذوي هوريك.

-: ومن أهل مريومة، ومن بلد الضابط كمال. ربما..

-: ليسوا كلهم على ذاك المنوال، فثمة آصـــرة تـــربط غـــالبيتهم بآبـــاء وأمهات.

-: صحيح.. فمنهم من له أهل يعرفهم، ويقتله الشوق إليهم.

-: "القابي قول" لا يعرفون سوى أنهم عبيد السلطان.

-: ولِمَ تذهبون بعيداً.؟. دونكم تبديل أسمائنا.

-: وهل نسيتم السّكيت.؟. ذاك هو.. انشقّ عنا، وأمسى أداةً طوع الضابط التمساح.

نبر سليمان غاضباً:

-: سافل. رخيص. حقير.

نظرت الجدة نور إلى حفيدها، نظرة إشفاق مترعة بهزءٍ ومرارة، ونبست:

-: أحقاً.!.، وكيف إن دللتك على من هو أحقر منه.؟. قلبي يحترق أيها الغرير، وفي فمي وحل.

همست أمينة في أذن قمر:

-: أخشى أنها قصدتك، فالسّكيت على غرامه بك، لم تأبهي به، ولعلها ترى أن ذلك سبب ضياعه.

-: الحق معها إن عنتني حسب ما تهجسين، لكنها قصدت ابنها الوجيه.

استدرك إبراهيم قائلاً:

-: بعدنا عما بدأناه، والمشكلة قائمة.

-: بل نحن في صلبها، فهذا من ذاك، ولعلنا لمسنا ما أرجأناه طويلاً.

امتلأ فم الحكيم إدريس بسؤال ملحاح كبير، رغب أن يوجهه إلى الجدة نور، لكنه تريث فأرجأه.

-: والآن... ماذا ترون.؟.

أعلنت قمر أنها ستقرّ للضابط بالمال، فحدّجتها عيون ثبّتتها الدهشة!

-: نشّفت أرياقنا، أيتها النمرودة، والمال عندك.؟!!.

-: لا مال ولا صداع يفجّ رأسه، وإياكم أن تصدقوا خرطه.

-: فكيف إذاً تقرّين به.؟!.

-: أيّدوني، وسترون حقيقة مغيبّة.

قالت الجدة نور غامزة مبتسمة:

-: ثقوا بها، فهي شموس لا جدل، لكنها صادقة.

-: والضابط التمساح ليس سهلاً.!.

-: لذلك أريد الضابط كمالاً معنا.

سأل إبراهيم:

-: أية أفكار شيطانية تحرّك رأسه نحوك يا قمر.؟.

-: ها نحن نسعى لنعرف ذلك. حمزه.. اذهب إلى الضابط كمال، أخبره أننا قادمون بأثرك.

كان رمضان اللص، نوى أن ينهي المسألة، قبل أن يقرر أولئك الحمقى، إعادة الوديعة، إلى ذاك الضبع الأغبر. فتّشَ ونبش، قلّب كل ما حوته خيمة قمر، استشاط وشتم، أعاد الكرّة دون طائل، فحنق وتسلل مقهوراً.

وكان الوجهاء وبضعة عشر رجلاً متحلّقين، والشيخ الإمام يشرح، وعمر ابن إدريس الحكيم يقرأ، عن سراقة بن عمر، وسلمان بن ربيعة الباهلي، وكيف أنهما حملا الرسالة من أم القرى، إلى ذاك الشمال القصي، جلس رمضان متطرفاً ضجراً، بينما الوجيه عبد المجيد يسأل عن الهجرة إلى الحبشة فأسهب الشيخ وهم منصتون، فانسحب بهدوءٍ. مشى. حبا. زحف، راقب، غافل ودخل الخيمة، نظر باحثاً عن موضعٍ لم تصل إليه يده، فوجد أنه ما قصّر في المرة السابقة. تناول بعض ثيابها وآثارها، قلّبها، شمّها، ضمّها، عضّها، استنشقها، شعر بنارٍ تتقد في كيانه، اختلج محموماً، خرج كيفما اتفق، تعقّب شباناً تسللوا خلف النهر، حيث رايات حمر فوق بعضٍ من عشرات الخيام هناك.

***

وكمن وضعوا قدميه في حذاءٍ ضيّقٍ، وجد كمال نفسه بينهم محرجاً. اتَّضحت الصورة أمامه بتفاصيل مرعبة، فوقف مشتتاً بين نوازع فكره وقلبه وبزّته التي تكبله، فبدا متصدعاً مشطوراً، وإرادته منغلقة بأغاليق عصية، فما الذي يفكّ أغلاله ويدفعه لإطلاق مشاعره، فيعمل بأفكاره.؟..

وإلى هذا رأى نعمان أن العقبة الكأداء في بداية تفككها، ولا بأس، فكلٌّ منشغلٌ بما يهمه، ولعلها الحياة أفاقت عائدة إلى مجراها، تروح بالناس إلى مشاربهم في تشعباتها. هناك تستحم جلنار مغنيّة، وفتيات يتنظّفن مرددات معها:

-: (في الجدول الصافي اغتسلي.. في الجدول الصافي

حذار من عيني الراعي البراقتين.. حذار حذار).

وجوقة البياطير انزووا في خصر منعطف النهر يستحمون منتعشين، وعزيز مروّض الخيل، ذاك هو.. ينسى نفسه وينظف حصانه "الكبردينـي". يغسله، يضمّخه بنبتاتٍ خاصة. وأولئك عدة أنفار يتحينون الفرصة الأنسب ليفروا إلى أهليهم في جنديرس ومنبج وجرابلس...

هذان وذاك وهؤلاء، كلٌّ مشغول بحاله، وتلك زوجة ضيف الله تحاور مشاعرها المغمودة، يتراءى لها الأبهى.. الأجمل.. الأصفى.. الأنقى، الأقرب والأبعد، أواه.. قد مات.. ذهب بلا عودةٍ.. تلك حاجاته وسرج حصانه، وها هي ذي عيناه تحدقان، فيهما قوة ألق محرج، نظراته جذّابة تبعث الخدر فيمن تقع عليه، تحرّض على نعاسٍ لذيذٍ. عشقته عشية قدومه وأحبها، تعايشا عمراً؛ وما أثقل عليها بشيءٍ، لم تعرف لِمَ جاء ومن أين.!. ولم تقطع عليه شروده المتكرر. تنتابها الآن ندامة، فهي لم تعرف اسمه الحقيقي قط.!. أتى ضيفاً، وها قد مضى مثل نسيم لطيف. سألته مرةً علام يطيل النظر إليها ويطول شروده.؟. ظلَّ محدّقاً في وجهها؛ ثم ابتسم دون أن يتكلم، وبعد لأيٍّ قال لها دون أن تسأله:

-: (واجهتني أسباب الموت كلها، كل منها يفني رهط رجال، وبأم عيني رأيت أنواعه، كل نوعٍ مرٌّ زؤام. وها أنذا أراك سبحان من أبدعك، فكيف لا أتفكّر بالذي أحسن ما خلق.؟!).

لا شيء مما قالوه أو قرروه الليلة، يبدّل من حالها، وما نووا لا يقدّم ولا يؤخر، فالضيف نسيم الروح نأى، وما من شيءٍ يعوّضها فقده.

-: (نعمان.. ما هذا.؟. هذيان.!. حقيقة.!. أم هو جنح خيال.؟. أهي بذرة قصيدة يكوّنها خيالك.؟. أم هي صورة تراها وكلام تسمعه.؟. أرأيت وسمعت فنسجت من لدنك ألوانها.؟.. أنائم أنت أم يقظان.؟.

أو ليس ذاك الضابط عثمان.؟. يبدو حذراً، يسرق نفسه ممن حوله، ويدفع كبير الطهاة قبله، تلفهما الظلمة فتخفيهما. ومن ذاك وتلك.؟. عاشقان يبحثان عن لوذةٍ.!.

ساهرون ونيام. لاهون ومتعبدون. صامتون وباكون. متألمون يئنون ومرحون يثرثرون. أهذه رؤيتك أم رؤياك في صحوة أم غفوة يا نعمان.؟.

وما بال أبهى تتقلّب.؟. تحثّك لترقد متدثراً، تنبّهك إلى برودة آخر الليل. أتحلم أم هي مشغولة بواقع الحال.؟. إذاً ليست رؤيا خالصة.. إنما الحياة في مسارها، كما الماء في مجراه.).

دثَّرته فوسَّدها ذراعه، فأغمضت عينيها حالمة أن تطفل.

***

سامرهم الضابط عثمان ونادموه، وكان محطّ الأنظار، متيقظاً يسمع الهمسة ولا تفوته حركة، حريصاً على مكانته، مؤدياً ما يدعّم أبهته، ممتثلاً

للشعائر، جدٌّ رهبوت، وإن علاه بعضهم درجات على سلم الصعود، وما فتئ يؤكد لنفسه، أنّ الاستقرار في حالة ما، لا يعني عدم اختراقها مزاوغة.

وبدا واضحاً لكمال أنَّ لجوءهم إليه، أكد مكانته عندهم. سرّه هذا، وحريّ به أن يظهر شهامة حيال ذلك، بيد أنه ردد في داخله:

-: (الشهامة والشجاعة لا تفترقان، والشجاعة والسعادة لا تترافقان).

حاول تذكر أين ومتى قرأ هذه العبارة، ووجدها معبّرة تماماً عن حاله الآن، فلم يتخذ موقفاً حاسماً، وأمضى وقتاً مستمعاً، يصبُّ لهم الشاي. تحدثوا متحمسين، أبدوا اندفاعاً، ومضى بعضهم إلى حدِّ الانفعال على حافة التهوّر، ولم يعد في حاجةٍ للتأكد من أن عثمان عالَ عليهم عَوْلاً جائراً، وها هم يحسون بالمظلمة إحساساً مريراً، واطمأن إلى صدق مشاعرهم، لكنّ أغلبهم لم يرجح العقل، فوجد نفسه يمتص فورتهم رويداً رويداً، فإن جاراهم فالعاقبة عليهم، أكثر مما يمكن أن تأتي لهم، وفي هذا رأى بعضهم أنه غير متحمسٍ لهم كما ينبغي. توقعه بعضهم مندفعاً، فلم يرقهم أخذه الأمور برويّة، فخابت بعض آمالهم، كأنهم ما انتظروا إلا أن يشهر سلاحه، فيلقّمه، ويضع الضابط عثمان إلى سارية، يعصب عينيه قائلاً:

-: (حكمنا عليك بالإعدام رمياً بالرصاص).

"طاخ.. طاخ.. طاخ."، ويخرّ صريعاً، فيلتفت إليهم قائلاً:

-: (ارموه للكلاب).

ويمضي ماسحاً بندقيته، نافخاً في ماسورتها، لا يلوي على أحد.

ومنهم من غالب نفسه وإن تململ، فلا يكون ما يندم عليه فيما بعد، فالتريث معقل من خطل، أو هكذا عللوا أنفسهم، ثم إنه ليس بأخٍ أو شقيق، أو ابن عمٍ لازم ملزوم، فلا يُطالب بما للجذع على الفرع، أو ليس هذا التعليل أهون من خيبة الرجاء.؟.

لاحظت قمر برودة منه لم تعجبها، ولمحت غلالة عدم الرضى في عيونهم، نمَّت عن انكماش قلوبهم نحوها، فتحيّرت مُحْرَجَةً، وشطّت مشاعرها إلى حدِّ أنه ليس الذي أمَّلتهم به.!.. تصارع داخلها وحمي أوارها، وانفلت جموح عواطفها:

-: (ما الذي تفعله بي أمام أولاء العميان.؟!. إني جعلتهم يغبطوني –إن لم يحسدوني– لانحيازي إليك. أتدعهم يتقوّلون إن الحب أعماني عن عيوبك.؟. أو

أن المشكلة كشفت معدنك. لِمَ وضعتني وإياك موضع شماتة وشك.؟. أية خيبة؛ بل أية فجيعة تهدّني وتدمّرني؛ إن كان قرارك سلباً.؟.. حين مات أبي بتُّ بلا أحد، فهل حقاً بتُّ بلا أحد حتى أنت.؟.. فإن لم تكن كما أنت في قلبي، يطير عقلي، انضمّ إلى الممسوسين، أنوح كما لم أفعل، أُقيم مأتماً وليعزيني الناس بك وبقلبٍ أحبك. أم ترى أقتل نفسي فلا يدري مخلوق أنك السبب.؟.. قل شيئاً، لا تبقَ كسيفٍ في غمده.. تجرّد.. المع.. أسمعهم صليلك، لا تدعهم يرونك مثل الضابط عثمان سواء بسواء. اجعلهم لا ينظرون إلينا تلك النظرات الشزر، كأنهم وقفوا علينا بفعلةٍ شنعاء.!. اجعلني أندم على شكي، ارفع رأسي فإنه يتطأطأ. تكلم.)

قالت الجدة نور داقة عصاها، دقات نفاد صبر:

-: أراك أطلت التفكير أيها الشاب.؟.

حينئذٍ تهيأ كمال متأنياً، وبصوت جهوري قال:

-: أغلب الظن أننا بحاجةٍ لمزيدٍ من التمحيص.

-: أهذا ما تراه.؟.

-: وأتوق لمعرفة رأيك.

-: دعني أعرف طريقة تفكيرك.

-: لا بأس.. يبدو أنَّ مَنْ أوْصل الأمور إلى هذا التعقيد، لم يتسرّع، بقدر ما جّهزها على نارٍ هادئةٍ، بعناية فائقة، ولم تأت خبط عشواء. ما قولك.؟.

-: أكمل.

-: حسنٌ.. لعل مواجهته تكون صائبة، إذا ما رتبناها بالأسلوب نفسه.

-: ما قلته يرضي العقل إلى حدٍ كبير، فالذي دبّر ما حدث، ذكي لا شك، تراه أمعن نظره فيما يفعله، في حال كشف أيٍّ من خططه.؟.

-: الاحتمال كبير. وإلا فإن احترازنا ليس خسارة.

قال عبد الله:

-: إنك تعرفه حق المعرفة، أليس كذلك.؟.

ابتسم كمال وعقّب بهدوء:

-: نعم أعرفه، وربما لا أكون عرفته جيداً. لذا أقترح أن نعيد النظر بمجمل ما نعرفه عنه؛ من غير أن نهمل صغيرة، ولا تربكنا كبيرة.

هزَّ الحكيم إدريس رأسه مؤمّناً مؤيّداً. وسأل إبراهيم على حين غرّة:

-: أيها الضابط كمال، أصدقنا.. ألست تكرهه.؟.

ردّ كمال بوضوح:

-: لم أستطع أن أحبه.

-: أتعتبره عدواً.؟.

-: دعونا نبحث إلى أي مدى جعل من نفسه عدواً لنا.

ضربت قمر على جبينها وأطرقت خجلاً، وفي حلقها غصة ألم، تلوم نفسها على ما دار في رأسها، عن هذا الذي ما نطق إلا بعد تمحيص ورويّة.

سألتها أمينة همساً:

-: ما الذي جرى.؟.

-: حمارة أنا.. تسرّعت.

دقت الجدة نورٍ بعصاها على طرف المنضدة وأعلنت:

-: فلنبدأ.

تحركوا وهمّوا، وكادوا يشمّرون عن سواعدهم، تنحنح بعضهم، وتحسس أحدهم سلاحه. لاحظ كمال ذلك، فصبَّ الشاي للجدة نور وسألها مبتسماً:

-: لن تقبلي أن نبدأ بخطأ. أليس كذلك.؟.

ردّت كوب الشاي إلى موضعه ونبرت:

-: أوضح.

-: وجودكم في خيمة ضابطٍ، ليس محبذاً، لا سيما أنّ التهم جاهزة لدى الذي لا داعي لذكر اسمه، ولستم غافلين عن عيونه من حولنا. هذا عدا تأويلات وجود إناث ههنا. أليس كذلك يا قمر.؟.

هبّت نحو الباب قائلة:

-: إني آخر من يحق لها أن تتكلم.

همّت بالخروج، فمدّ ذراعه كحاجزٍ دونها والباب، وهتفت الجدة نور عن قناعة:

-: رؤية أنثى خارجة من عند عازب في ظرف كهذا كارثة.

هبت أمينة لمرافقتها، فنبرت الجدة نور بهما:

-: يقول من في نفسه مرض، إحداكن قوّادة.

صراحة الجدة نور جارحة، كما يراها الحكيم إدريس، إلا أنها لا بدّ منها، فليس الوقت يناسب أية مجاملة، وقعدت قمر قرب الباب كاسفة ساخطة تلوم نفسها، واستدرك رشاد محاولاً تجاوز العقبة:

-: إذاً نلتقي عند الحكيم إدريس.

وأضاف كمال:

-: أو عند الجدة نور إن استدعى الأمر.

حسمت الجدة نور الموقف بقولها

-: عندي، وعلى هذا اتفقنا.

قال الحكيم إدريس لكمال:

-: دعنا نستعيد الثقة بأنفسنا، ونبرهن أن في ضعفنا ثمة قوة كامنة.

رتّب كمال خروجهم، وجعلهم يذهبون في اتجاهات مختلفة، فلا يثيرون شبهة، وأوكلوا لعبد الله المراقبة، فلم يهدأ، دائراً حول الخيمة، متحفزاً، قابضاً على سلاحه، مستعداً أن يغرز سيفه قصير النصل في يربوع أو نملة، أو الضابط عثمان نفسه، فعند الجدة نور تتم الآن مناقشة الوضع، ورسم خطة.

***

11

الطريق طويل طو.. يل، بطيء ممل ثقيل، وهو أثقل وطأة علـــى أولاء، وما برحوا لأيامٍ خلت، ينتظرون وصبرهم يتساحق ويتآكل، أن ينطق الضـــابط عثمان تلك العبارة، فبقدر ما تحاشوها، صاروا يريدون سماعها. فليتلفظها كمـــا يشاء، وبالنبرة واللهجة التي يختارها، المهم أن يقولها، فخطتهم برمتهـــا مبنيـــة على استجرارها من بين أنيابه، وإلا.. ما من سبيل للتحرش به.

-: سأذهب إليه.

-: لا. اربصي.

-: فاض بي.

-: اصبري.

ذهاب قمر إليه من تلقاء نفسها، قد يجعله يرتاب، وهو أكثر حـــذراً مـــن عصفور الدوري، وليس مستبعداً أنه ينتظر ذلك، وربما بيّت ما لا يتوقعونـــه، وهيّن عليه أن يتواقح، أو يدعي أنها جاءته، عارضة عليه نفسها بدل المال، أو لشبقها وفحولته.!.. أما إن شعر، أو شك قيد شعرة، فلا يتوقع أحد كيف تنعكس ردّة فعله، ومن المحتمل أن يقلب الأمور عاليها سافلها، أو يتراجع بغمضة عين قائلاً:

-: (وهل كنت مجنوناً لأودع "متليكاً" عند ذاك الـــ...).

توفيق.. يا صاعقة ساكنة قدّك، فاض بك، فسألت محتداً:

-: وأبونا القتيل.!؟.

صبروه يا ناس، فهذا الفتى دمه أحرّ من زيت على نار، والسكوت علـــى اغتيال والده يعكّر بؤبؤيه، لكن حماوة الأجواء وبرودتها بين آنٍ وآن، تميّع الدم وتخثّره بين لحظة ولحظة، ولا أحد يأبه يا فتى، تفتت.. تجمّد.. ذب.. تبخّـــر..

تجلّد، سيان.. فالباب دونك مغلق مقفل، والمفتاح عند الضابط عثمان، وعثمان لاهٍ ساكت، وسكوته مريب ملغوم يمزّق الأعصاب، والأعصاب عارية ليس يسندها حديد، وهي لم تقدّ من صخر، لذا تتوتر وتنشدّ، وانشدادها يثير غيرها، وغيرها ينتظر حجة، والحجة هينه جاهزة مثل الهم على القلب، فما من مستبدٍ إلا وفتاويه في جيوبه، وموقفك مهما علا على قمم الحق، لا مناص له من تهدئة.

ألا ما أقوى شكيمتك أيتها الجدة نور، ومعك الحكيم إدريس ورشاد، تتحمّلون نزوات هذا النزق وذاك، فلم يكن أحدهم يوماً كالشيء أو النبت أو الحيوان البليد، لذا لا خلل بما تمَّ الاتفاق عليه، وإدريس الحكيم يجاريكم، برغم أنه يغلي في داخله، وكم ودّ لو تحرر من الحكمة المسربل بقيودها ووقارها، مثلما يتحرر من ثيابه، فيفلت جموحه كما الزعّارة صعاليك زمانهم، فيجعل الضابط الحرباء يحسد عباساً الممسوس، لكنه محكوم بالحكمة مذ تعاطى التطبيب، وها هو يملأ السؤال فمه، يلح عليه كسعال جاف أثارته حنجرة ملتهبة، يريد أن يوجهه إلى الجدة نور، وما لبث أن ابتلعه، ربما للمرة المئة، ولكأنها قرأت سؤاله في إنساني عينيه، فازدادت إصراراً على ألا يعرف ابن أنثى، ما خلّفه موت "داود" في أعماقها، وكيف لم تظهر دمعة في عينيها عليه، كأنهم لا يعلمون أنَّ الحبَّ كلما كان كبيراً، ازداد الحرص على إخفائه، فهو بخصوصية ماهية الروح.

-: ماذا.؟.. أنفار يهربون.. عال.!!. كيف فرّوا.؟. رُعيان غنم أنتما، أم ضابط وأومباشي.؟.

ها هو يكررها للمرة العشرين. أيكون حانقاً إلى هذا الحد.؟. أم أنه وجدها حجة يلعب بها متسلياً بأعصابهما.؟. لكأنه من جماعة تحت الأرض؛ من الصعوبة بمكان تمييز جدّه من هزئه.

-: ضابط آخر زمن.

طاشت قمر لمرارة السخرية، وكادت تصفع كمالاً، وما زال يتقبّل الإهانة تلو الإهانة.

-: أتفعل شيئاً لأجل كرامتك، أم أردعه.؟.

-: صبراً يا قمر.

-: صُدّع رأسي بصبرٍ لا جدوى منه مع هذا النمس.

مرّت أمامه ذهاباً وإياباً مرات، لعله يناديها فيفقأ الدمّل، لكنه جعل مرورها أُلهية يروّح بها عن نفسه، وهي فرصة لإيلام كمال، فـزاد جرعـة الإهانـة، والأومباشي ما عاد يستطيع دوساً، تورّمت قدماه، إثر شدّه إلى الفلقـة، يجلـده بسوط ذيل ثور، وظل يجلده حتى لهث وعرق، متخيلاً أنه يجلد كمالاً، ثم أمـر الجاويش ألا يتركه حتى يتقطع السوط على تينك القـدمين المـدورتين كخفـي بعير، أو ينفر الدم منهما.

اقترب كمال من رئيسه، فبادره دون إمهال:

-: فرار العسكر مسخرة.

-: ولكنهم لم يفروا.!.

-: كذاب. أين هم إذن.؟.

-: أكلهم الذئب.

-: العمى.!. كيف.؟.

-: مثلما أكل "أنينو".

-: أنينو.!. ما قصدك.؟.

-: الذئب ضارٍ مفترسٌ، وأنت أدرى. مساكين. ومسكين أنينو.!.

عصفت برأسه أحداث تلك الليلة، وتشمرخت في مخيلته:

-: (أعرف هذا الجرو شيئاً مما جرى.؟.).

بدا مأخوذاً، فلم يمهله كمال؛ فالضرب المتوالي يزيد الدوخة.

-: أتذكر أنَّ لي عندك أمانة.؟.

-: أمانة.!. أية أمانة.؟.

-: كيس الذهبيات.

-: أتهذي يا كمال.!؟.

-: أنسيت.. أم تتناسى.؟.

-: ليس صحيحاً ما تقول كي أنسى أو لا أنسى.

-: أظنك تذكر ليلة رأس العريف.

-: ليلة سيئة.

-: إذاً تذكر الأمانة.

-: لا بأس.. هي لك، ولكن ستعينني يا كمال.

-: على ماذا.؟.

-: الأمانة ومخصصات المسير، وبعض مالي تركتها عند داود.

-: داود مات.!.

-: ابنته لم تمت، ساعدني فنستعيد المال كله.

-: وكيف أساعدك.؟.

-: تشهد أني تركت الذهب وديعة عند أبيها.

-: كيف أشهد على ما لم أقف عليه.؟!.

-: تشهد على كلامي. أم أنك لا تثق بي.؟.

-: بل أثق.

-: "عفارم". ذكي.!!. لم يفتك أننا نقترب من حلب. لو تدري كم اشـــتقت إلى جناب الوالي.!.

-: (أيُّنا الثعلب، وأيّنا ابن آوى.؟. كل منا يلعب لعبته.!. براعة أم خبـــث ومكر ودهاء.).

-: كمال.. نتبادل الأمانات. أسلّمك وتسلمني.

-: وماذا أسلمك.؟.

-ولو.!. الكتاب والشمعدان، فندخل حلب كما السمن على العسل.

-: والذين هربوا.؟.

-أكلهم الذئب. أترى أني ظلمت الأومباشي.؟.

-: ليتك تعفو عنه.

-: أومباشي "عكروت" عفوت عنك.. هيا افرح. كمال أوقف القافلة.

أبدى كمال طاعة وحماسة؛ لم يعهدهما الضابط عثمان منذ أمد. سرّه ذلك، فبالذهب يتم كشف معادن الرجال...

-: (وما أنت سوى صعلوك يا كمال، يا بن صانع الطرابيش والنابلسية.).

قال ذلك في سرِّه، ودهش وهو يسمع قول مرؤوسه:

-: لئن رغبت، أرسلت العسكر يأتونك بها.

-: (يا للذهب من طاغية.!!. يفعل كما السحر وأعظم، فلا يصـــمد أمـــام

إغرائه قلب ادعى نبض الحب. وأي حبٍّ هذا الذي زحلقه طمعٍ.؟. لن تستطيع إنكاراً بعد الآن مهما حاولت، واصبر قليلاً، فإني محطمكما معاً).

دار ذلك في خلده، ثم ابتسم مقترباً مجهراً قوله:

-: أئلى ذاك الحد تحسبني جلفاً.؟!. لا تليق معاملة أنثى بالخشونة التي تقترحها. ألا يرضيك أن أكون لطيفاً معها.؟.

-: (ماكرٌ أنت، حتى لو ظهرت بنعومة ريش النعام، وإني أُحِسُّ بلسانك أحدّ من موسى الحلاقة وشوك القنفذ.).

دار ذلك في ذاته، وردّ مراوغاً:

-: منك نتعلم اللباقة.

أرسل عثمان حارسه ليبلغها رغبته بمقابلتها. تمنى الفتى السِّكيت لو ذهب إلى الجحيم في الحال، مقابل أن يُعفى من هذا المشوار. لم يبدِ تردداً، لكنه مضى مبهوظاً بما حمل. سأله كمال وهما في طريقهما إليها:

-هل الوديعة كثيرة.؟.

-: ليست قليلة.

-: هل لي أن أسأل.؟.

-: ها أنت تسأل.!.

-: ما الذي جعلك تضع مبلغاً كبيراً عند ذاك الرجل.؟.

-: اعتبارات كثيرة، أولها خشيتي على المال منك ومنهم.

-: مندهش أنا مما أسمع.!.

-:يا رجل..!!.

-: صدِّق.. كلامك شدهني، أو أني لم أفهم.

-: حين "جحّشت" وتحالفت معهم، توقعت منكم كل سوء، وهداني تفكيري وأنا متألم منك، أنّ أحدكم لن يخطر له سرقة رجل، تعرفون أنه فقير لا يملك شيئاً.

-: بهتّني وزدتني إعجاباً بطريقة تفكيرك.!!. سؤال واحد وأخير.

-: سل قبل أن نصل ولا تُطِل.

-لماذا داود بالذات وأغلبهم فقراء.؟.

توقف وتلفّت حولــه، ثم ضرب عنق حذائه بسوطه، وتطلّع إليــه بنظــرة موّارة بالخبث، وغلّف وجهه بعلائم اضطراب، وبرقت في خاطره إحدى بنات دهائه، وجدها كالسم في الدسم، فتركها تتسرب إلى مسمع كمال همساً:

-: مرة أخرى تجدني أؤكد لك ثقتي بك. داود كان عيني عليهم.

-: (يا أيها الذي لو وجد أكذب منه لانتحر).

قال ذلك في نفسه، ثم تصنّع الاستغراب ونطق:

-: العمى!!.

-: ما بك.؟.

-: مبهوت ونادم على ما كان مني. تفضل.

وأشار بيده مفضلاً رئيسه على نفسه، وفي الوقت ذاته لمح رشاداً وإبراهيم وعبد الله وتوفيقاً، والصبي حمزة وأمهم، وتلك هي الجدة نــور، وهنــاك آيــه وهوريك، وذاك هو إدريس الحكيم يقترب مستقبلاً، دانياً من مطرح قمر.

-: (إذن هي هيئة المحكمة أيها الضابط، وها هم المدَّعون والشهود، وهــا أنت قادم لتدّعي.!. فهل آن أوان البت فيما بيّت.؟. وهل تعقد المحكمــة جلســة دون متّهم.؟!

أم أنها قضية تُحلُّ بالتراضي.؟.).

استقبلتهما وفي عينيها كثير من التهيؤ، فلطالما انتظرت هذي اللحظــات، تنفست الصعداء وقد لمحت الجدة نور ورشاداً يقتربان، واختصر كمال عليهــا وطأة اختلاق الكلام إذ قال:

-: قد يمنعك لطفك أن تسألينا عن سبب مجيئنا، وحقيقة الأمر إنها زيــارة عمل.

ثم ازداد عدد القادمين؛ بل بدأ يكتمل، عندئذٍ سألتهما قمر:

-: بأي شيءٍ أستطيع خدمتكما.؟.

لم يعد بد من أن يتكلم، وقد تركه كمال وتشاغل بما ليس له أهمية، فقال:

-: جئتك لأستردّ الوديعة.

-: حقك.

ذهل.!. وللوهلة الأولى لم يصدق ما سمع، إلا أنه ما عاد ممكناً غيــر أن يُكمل ما بدأ.

لكنه في حيرةٍ. كرر تلك الكلمة التي لفظتها مشدداً على حروفها، فلم يجد لها تأويلاً، كأنه ما انتظر هذا.!.

تدخّلت الجدة نور قائلة:

-: لئن أتينا في وقت غير مناسبٍ، فإننا ننسحب.

لم تترك قمر له مجالاً إذ أردفت:

-: ليس من سرٍّ نخفيه عنكم، فللضابط وديعة جاء يطلبها.

وسرعان ما التفتت إليه وقالت:

-: الحق حق أيها الضابط، لذا أستفسر منك لأتأكد، فالمرحوم خلّف ودائع كثيرة، أخشى أن يختلط أمر بعضها ببعضها الآخر، فيذهب ما لأحدهم إلى غيره.

أكد الحكيم إدريس من فوره:

-: أصبت فيما قلت، فقد عُرف المرحوم بأمانته، فاستودعه الناس ودائعهم.

تلقَّفت قمر ناصية الكلام قبل أن يتدارك الضابط لوثته، فسألته:

-: هلا أعطيتني علامة وديعتك.؟.

طينة يلطخها بذا الجدار، ما دام الأمر متاحاً، ولا يهم إن لصقت أو لم تلصق، ولتكن كبيرة، فليس فيما يكون خسارة تذكر.

-: أحد عشر كيساً، في كل منها مئة ذهبية.

صاح إدريس الحكيم بجدٍ لا يدانيه تأويل أو ريب:

-: صدقت.

ذُهل مما سمع، فأعادته قمر إليها إذ سألته:

-: أمتأكد من أنها أحد عشر كيساً فحسب.؟.

جمدت عيناه وهما بأقصى اتساعهما، ولم ينبس بكلمة، فأدركته كأنها تلقَّت إيماءة، فنبست متصنعة الحيرة:

-: المشكلة أنها اثنا عشر كيساً. أليس كذلك أيها الحكيم.؟.

لم يكن إدريس الحكيم قد هيّأ نفسه لمثل هذا السؤال المباغت. تلكَّأ لحظة، فناجده كمال متدخلاً دونما إبطاء:

-: كنت استودعته كيساً، لعله الكيس الزائد.

قالت قمر:

-: مجرد الإدعاء لا ينفع، فهو ليس لك إن لم تؤكد قولك. ما لونه.؟.

-: أسود.. وفيه سبع وثمانون فضية وعشر ذهبيات، هي كل ما ادخرت.

نظرت إليه وفي نظرتها لمعان فضة، وكادت تقول معجبة ببداهته:

-: يا ولد.!!.

والتفت رشاد نحو إدريس الحكيم شبه لائم:

-: أسمعت.؟. كدتم تفرّطون بالكيس. قلت لكم صاحب الحاجة سيدلنّا عليها، وها قد حصل. إنها الوديعة الوحيدة التي حيّرتنا.

أنهت قمر الجدل قائلة:

-: إذاً الكيس للضابط كمال. لا بأس.

استعظمت الجدة نور ما رأت وسمعت، فاللاعبون تفوقوا أكثر مما توقعت، وتابعت لعبهم الخطر، فإن لم يبق في الجعبة غير سهم، رافقته خطورة أن يتساءل حامله: [أينتحر به كي لا يرى العدو يغلبه؛ أم أنه يطلقه.؟. وما الذي لا يكون قد خسره إن انتحر.؟. وما تراه فاعل إن أطلقه ولم يصب من عدوه مقتلاً.؟.].

همس كمال في أذن الضابط عثمان:

-: ألا تطلب ما لك.؟.

-: هه.!!. بلى

-: وتعطيني الكيس الذي وعدتني به.؟.

-: هه.!!. بلى.

-: هيا إذاً.

وقف مادّاً يده مبسوطة الكف نحو قمر، آمراً:

-: هاتي الأكياس.

-: أعدْ مال الضابط عثمان أيها الحكيم، ولا تنس مال الضابط كمال.

-: تفضلا معي أيها المحترمان. جهّز الخيل يا رشاد.

سأله عثمان:

-: إلى أين.؟.

-: إلى قبر ضيف الله.

-: ما هذا الهراء.؟!.

-: بل هي الحقيقة، ما لك وضعه داود في قبر ضيف الله، وقد ساعدته في ذلك، وتمَّ هذا بحضور عبد الله وتوفيق.

قال رشاد:

-: وبعلمي.

وأكد إبراهيم:

-: رأيت ذلك بأم عيني، هلما أيها الضابطان المحترمان، نسلّمكما ما لكما ونرتاح نحن، فالأمانة ثقيلة كما تعلمان.

قال الضابط كمال:

-: هيا بنا؛ لا داعي للانتظار.

-: سأذهب أنا وإخوتي معكم.

-: وما داعي ذهابكم يا توفيق.؟.

-: نسوّي قبر والدنا. ألن تنبشوه.؟.

-: صحيح.

-: هلموا بنا.

صاح الضابط عثمان:

-: كمال.. إلى أين.؟.

-: نسترد المال. تفضل.

-: أمجنون أنت.!؟!. لن نذهب.

-: والمال.؟!.

-: بئس المال.

-: لك الاستغناء عما يخصك، أما أنا.. فلا.

-: كمال.. اسمع نصيحتي، الطمع ضرّ ما نفع.

-: أعجوبة أنت.. وأنا مخيول.!!.

دمدم شاتماً، وهمَّ أن يتركهم مغادراً المكان، فوقفوا في طريقه، ثــم التفّــوا حوله، طوّقوه، بادلهم نظرات موّارة بنفاد صبر، فرفعت الجدة نور صوتها سائلة:

-: إدريس أيها الحكيم. هل من أثرٍ يظهر على جثة المقتول بالسم.؟.

-: أجل.. بوضوح.

انقبض قلبه وأحسّ بمعطبة، وسأله إبراهيم:

-: ألن تذهب معنا.؟.

هزّ رأسه نفياً بأنفةٍ، ودسَّ لفافة بين شفتيه، وقد أتعبه السمع.

قالت قمر بشيطنةٍ منمّقة:

-: وديعتك ثروة.!. كيف تفرّط بها.؟.

تحسس "طبنجته" وهزّ سوطه، ولم يتكلم، لكنه تنهّد بتقطّعٍ متحسراً، وبصق نخامةً.

قالت آية:

-: ليس من خبيء إلا ويظهر.

تمتم:

-: تباً لكم "سيكان–قرباط".

وقف رشاد قبالته معلناً:

-: لا بأس.. سأجلب لك مالك، ويكشف الحكيم إدريس على الجثة فنتأكد.

-: تتأكدون.!!. مِمَّ تتأكدون.؟.

-: من أنَّ ضيف الله مات مسموماً.

-: هذا "علك". لن يذهب أحد منكم، فالمسافة باتت طويلة، وإني أمنعكم.

رفعت الجدة نور عصاها إلى أنفه سائلة:

-: لماذا قتلته يا عثمان.؟.

-: كفاكم مسخرة، لم أقتله، هرم فقضى نحبه.

-: والقندلفت.؟.

-: أي لعين هو الآخر.؟. ربما مات حتف أنفه. أنا لا أعرفه.

-: لا تعرف "مائير" يا عثمان.؟.

-: لا أعرفه، ولم أفعل شيئاً مما يهيأ لكم.

دنت قمر منه متمهلة فسألته:

-: وما الذي لم تفعله.؟.

صفعته، فأخذ بعضديها وهصرهما، كازاً فكيّه بقوةٍ، وتحرك البؤبؤان المعكّران بغضب ضبعان تجاسرت عليه ثعالة، فكتّفه توفيق واضعاً ركبته تحت أليته ورصرصه، بصقت هوريك في وجهه، واعتلى ديك الجدة نور كتفيه، وراح ينقر شحمتي أذنيه، وصاح خافقاً جناحيه، وقفز دائراً حولهم، وأعادت قمر السؤال:

-: ما الذي لم تفعله.. هه.؟.

-: لسعت ولدغت.

-: نهشت وقتلت.

-: أمتَّ وسممت.

-: تآمرت وتجبّرت.

-: فجرت فوق فجور السفلة.

عجز عن متابعه رشقه بنبال أفاعيله من كل حدبٍ وصوب، فصرخ متفجّراً:

-: كذب.. كذب.

طبطب الديك جناحيه وصاح، ثم قفز ونقره من أرنبة أنفه، وتابع دورانه حولهم، باحثاً التراب برأس جناحه مستنفراً. اقتربت (آيه) ترتجف مجهشة، وجاءه وسط دهشٍ مرعبٍ، صوتها الراعش:

-: لِمَ نهشتني أيها الوحش.؟.

-: من تكونين.؟. أنا لا أعرفك.!.

تقدمت (هوريك) تهتز غضباً، فتحت بنيقة ثوبها عن ثديها المعطوب، وزمجرت بين قهر وغيظ:

-: وتنكر يا صفيق.!. انظر أثر فعلتك أيها الحقير.

ردّت الجدة نور البنيقة بعجلٍ على الثدي المكشوف. رآه الصبي حمزه، مثل حمامة مقطوعة الرأس، فركض من خلفه وعضَّ أليته، ولمّا يزل حتى كاد يقطع نهشة، أبعدوه فهجم صائحاً بلوعةٍ:

-: كما..ل، لا تحمه، ابتعد عنه، الوغد.. ذبح الحمامة وقتل العملاق.!.

صرخ الضابط عثمان خارجاً عن طوره:

-: جاويش.. أطلق النار.

أطلق مرة في الهواء، وبقي جامداً كأنه ينتظر أوامر أخــرى.!!. دفعــوه جانباً فوقع، فلم يبد رغبة بتبديل وضعيته، صفقه الديك بجناحه، ولطمه بجناحه الآخر، ثم بحث التربة من حوله، ورشق بها وجهه حتى عفّره، أغمض عينيــه متحاشياً الغبار، كأنه يحوّل قدرتهما إلى أذنيه، فملأ سمعه عويلٌ كدويِّ الرعد، وعصف ريح تعوي مزمجرة، كقطعان سباعٍ ألّبها الجوع والثلج والبرد. لكــن الثدي المعطوب ظلّ شاخصاً في مخيلته.!.

حمأة الغضب فوّارة تمور بها القلوب، كلٌّ يتجسد في ذهنه، ما نالــه مــن تينك اليدين اللتين عكفتا على قهرهم وتلويعهم، قاصصوه، ووقــف كمــال دون قتله، لكنه لم يحل دون ركله ولكمه وعضّه وتعفيره بالتراب، وبرغم ما ينالــه من مذّلة وهوان، ما فتئ يفكر كعهده:

-: كمال.. أنت خائن ستنال جزاءك. انتظر ريث تصل إليك يدي.

ردّ بغضب، مسيطراً على تفاقمه، فبدا أقرب إلى هدوءٍ مهزوز:

-: جاحد أنت.. كأنني ما أنقذت حياتك.!. فلو تركتهم لامتلخوا لحمك عن عظمك.

-: لأنهم وحوش. اذهب معهم؛ خذ المال كله، أحد عشر كيساً كلها لــك. خلّصني.

-: أحد العجائب أنت.!. كذبت كذبة فكنت أول من صدّقها.!. وبرغم أنــك أخفقت في لعبتك، ما زلت مصراً عليها.!!.

-: وبشٌ أنت مثلهم. أين الكبراء.؟. أريد الوجهاء. إليّ بالشــيخ الإمــام. تعالوا إلي. امنعوا عني السفهاء، خلّصوني من أولاء "القرباط".

حيّد كمال العسكر بإبعادهم، ووضعهم بأمرة الأومباشي، فشغلهم وانشــغل بهم، وفشلت وساطة الشيخ الإمام، ولم يقترب الوجيه رجب، مــا دامــت أمــه وضعت العربة المقفّصة بأمرتها، وحاول الوجيه عبد الحميد مع الجدة نور ولمّا يزل دونما جدوى، وما فتئ الوجيه عبد المجيد يحاول إقنــاع أولاد ضــيف الله وزوجته. أما سليمان فقد رفض أي تدخل لصالح الضابط عثمان، ونأى بنفســه قريباً من قمر وهوريك، مفكراً بتلميح جدّته لافتة انتباهه إلى مزاياها.

استرق النظر إليها مرة إثر مرة، وتراءت له ظـــلال إيمـــاءة وابتســـامة، تشجّعه قمر بهما ليقترب من البُنيّة، عسى ولعل يستهويان بعضهما، وتملأ قلبـــه الذي ما برح يدق حالماً. انتبه إلى نفسه، كأنه وقع عليها متلبِّسة بما لا يجـــوز، في ظرف كظرفهم الصعب هذا، فوبّخ نفسه لائماً بخجل، فذهن قمر ليس صافياً لمثل ما تخيّل.

وتناهى إلى القافلة الأخرى بعض ما حدث مشوّشاً، ودخلت نتيفا وصحبها في بوتقة قلق، إلى أن أتاهم كبير الطهاة (عوبديا) ليلاً بتفاصيل الخبر، فتداولوه ملياً، ثم كلّفوه برسالة شفهية ينقلها لكاهانا، وجهّز بعضهم سلاحه.

وإثر إلحاحٍ وضغوطٍ متوالية، أعلنت قمر أنها تعفو عنه إن صدقها وبـــيّن دوافعه لإدعاءٍ كاذبٍ بوديعةٍ وهمية.!.، فجوبه عرضها مـــن أولاد ضـــيف الله وبقية ذوي القتلى بالرفض جملةً وتفصيلاً، وأُسقط نهائياً في أيـــدي الوســـطاء، لحظة أنقذوا حياته، وقد كاد أحدهم أن يصل إليه، وبدوا عاجزين عن الرد على قول عبد الله:

-: تساومونا لأننا لم نقتله.!.، وما الذي كنتم تقولونه لو أننا فعلنا.؟.

وصرخ توفيق:

-: لا مناص.. فإني قاتله.

لم يكتمل سرور عثمان برفضهم طلب قمر، حتى نغص بما أعلنه الفتـــى.. هذا الأرعن، طالباً رأسه، وفي لحظة حرجة غاص في أعماقه ونبش سائلاً:

-: (سرّك ورأسك في كفتين، فأيهما ترجّح.؟.، معضلة.!.).

أقنع نفسه بقبول وضعه الراهن، يصبّر نوازعه إلى حـــين، لعلـــه يـــنجح وصحب نتيفا، بنسج خطة تخرجه من مأزقه، أو فليوطد مشاعره ليدخل حلـــب حبيس هذا القفص الخشبي، مثل زنجيّ اصطاده البيض. لا.. لا.!.، مثل أبيض وقع في فخٍ نصبه المتوحشون الهنود.. نعم.!.، فالمحال عينه أن يبوح بمرامـــه من إدعاء الوديعة. وطفق يسلي وقته ناظراً إلى أثيره السِّكيت، مربوطـــاً إلـــى العربة مثل كلب يُخشى انفلاته، أو مثل برذون (احتياط) يساعد بغل العربة عند الحاجة. ولمّا يزل يعلله ببطرٍ ينسيه كربته، ويجعل لحياته طعماً آخر.

فليصبر قليلاً، فبين ليلة وضحاها يصلون تخـــوم حلـــب. وبـــرغم حالتـــه المزرية، وجد متسعاً ليعجب من سرعتهم بتصنيع القفص على العربة، وتمنـــى لو جعلوه بغطاءٍ يكيفه رؤية وجوههم المقيتة. ثم إنه كابر فلم يذق طعاماً، وهو

الأكول النهم. ومنع باصريه عن لقمة من طعامهم الرديء، مشترطاً أن يُطعم بيد كبير الطهاة، أو يتحمل كمال العاقبة.

اقشعر وهو يرى بغضه في عيني رشاد، هذا الذي أوكلوا إليه حمايته.

كلمة شرفٍ هي كل ما يلزمه أمام (...) نور وشرذمتها؛ أن يصون حياته.!!.

أي عهدٍ واهن هذا الذي يمنعه عن مواطأة أحدهم، فيدسّ له السم، أو يخنقه.؟!

أليس هذا ما سيفعله، لو كان مكان رشاد أو غيره.؟.

-: (ويا لك من فتّانة أيتها الرخمة القميئة قمر.!.، ألّبت علي من تبقى ممن يمتّون بصلةٍ إلى أولئك الذين (...) على تلك الرابية. ما الذي ذكّرك بهم والهم يحيطك فلا تجدين متنفساً.؟.، لقطتِ خيط حقيقة إقدامي أنا وألكسندر على تنفيذ نزوتنا، فكيف اهتديت إليه.؟!. يا لذكائك الوقّاد.. أيتها البغيضة.!!.، وبقدر ما تضرينني، أجدك بعض الأحايين نافعة، فها أنت أنطقته بعد لأيٍّ، فكشف فكره وما يشغله. أولم يؤكد لكم أن الإماتة بالسم إحدى سمات الحقبة.؟.

وما همني إن كره السلطان والكواكبي بعضهما بعضاً، ولست مكترثاً بما أشيع من أنه قضى على أيدي رجال "عارف باشا" أو غيره، ماداموا غفلوا عن أنّ لا أحد يجارينا بمثل هذه المهمات السرّية، فلم ينتبهوا إلى اليد المنفذة والعقل المدبّر، مكتفين بمعرفة ما طاف على السطح؛ عن الجهة التي يهمها إسكات الكواكبي وتصفيته، كأنها جهة واحدة فحسب.!.، قد سرني صاحبك بزلّة لسانه الرائعة تلك، فوصلني دون عناءٍ ما عجزت عن إثباته بمحاولاتي الدؤوبة. إذاً هو ممن ينتقدون السلطنة.!!. يكفيني من الأمر برمته، أنه وضع يدي على سلاحٍ بحدين، استخدمه معه أو ضدّه، حسبما يكون رأسه ليناً أو يابساً، ولك أن تنصحيه أيتها الدودة العنيدة البائسة، وإلا فبئس ما أنتم عليه وفيه من تعاسة وحمق. غوغائيون تهرفون ولا تجيدون سوى اللغو والفخفخة، حثالة تقيأكم الزمن، وشتان.. شتان بيننا، وإن كنا الآن أشتاتاً).

فتح عينيه بعد استغراقٍ قضاه متفكّراً يجترّ حقده، ونظر بغتة إلى أثيره السّكيت وتساءل معجباً:

-: (أيها المبهم.!!. أكنت أدركت عظمة الصمت فسكت.؟. صمتك جعلني أراهن عليك، فانظر -لو أنك تعرف- كم وكم تختلف عن قومك، كأنك لست

منهم.!.).

مدَّ لفافة تبغ إلى حاميه رشاد، فلم يأبه بها، فأشعلها لنفسه، وامتصّ دخانها على دفعات دونما انقطاع، وتلفّت مطمئناً إلى سير القافلة في الاتجاه الصحيح، مقدّراً المسافة المتبقية، وتأكد من أن القافلة الأخرى على مبعدة، تغذّ السير، فارتاح وهان عليه ما هو فيه، لكن رسالة كبير الطهاة حيّرته بين خياراتٍ عليه تفضيل إحداها. فهل يوافقهم على استخدام السلاح.؟.، أو تحاول بعضهن إغواء حاميه وغيره إن تطلّب الحال.؟.، أم تسميم الطعام والماء.. وكلها أسلحة.؟!.، وإن ما لا يخلّصه، يربكهم ويكون انتقاماً له.!!.

-: (نتيفا.. ما أنت إلاّ المنتظر ذاته.!.، يا لسطوة الأنوثة.!.، وأيّ ابن أنثى يتنكر لما يتغلغل منها في لبّ عظامه، كما الهواء في الدم، يسكنه بين شهيق وزفير، إلا إذا كان شيئاً كالرمل، وما رشاد إلا رجلٌ يكابد من كبح ذكورته. وذي هي التضحية المغتفرة يا إناث (يهوه). بوركت ثم بوركت تضحيتكن أيتها المخلصات الناصعات).

***

-: (أقبل الليل، وقويق ماؤه منساب، وها هم المناكيد حطّوا رحالهم، أسمع نمائمهم الصغيرة والكبيرة، وكيف أوقدوا غليل عبد الله وتوفيق، فحاولا قتلي.!.، ورأيت كيف ازدجرهم الوجهاء، والخرتيتة نور، ليس حباً بي، بقدر ما هو خوفهم من عاقبة؛ وإن لم يعرفوا تفاصيلها، فهم يتوجّسونها كقبض الجمر، وحين أقفوا، داناني عبد المجيد وفحَّ في أذني:

-: نتصرّف معك خلاف قناعتنا وما تستحق.

وأتركهم أسرى الغموض، فخوفهم من الآتي المجهول، يفتت ما يتبلور في أنفسهم، ويزيغ أبصارهم، كما يرتج على ألسنتهم).

هجع الناس، فأتى الصبي حمزة متسللاً، لكنه تعثّر بحرصه فانكشف أمره، وجرّحه السيف قصير النصل. (الجرو يُنشد بطولة.!!.). وإبراهيم ساوم، ثم توسّل بحرقةٍ، ورشاد رفض بشدةٍ ولم يتزحزح عن موقفه، فمضى إبراهيم، ثم عاد مطأطئ الرأس مختنقاً بهمّه، وهمس:

-: لو تعلم أي نارٍ مضرمة في جوفي.!. دعني أخنقه قبل أن يخنقني عذابي.

-: لو كان أمره بيدي، لما تركت رأسه لأحد. ابتعد يا إبراهيم.. ابتعد.

التفت إبراهيم راجفاً، بصق ملء وجه الضابط، ومضى مختلجاً، فإن هو كتم وجعه تورّم في صدره، وإن أفضى بما يقضّ مضجعه فهذه كارثة، وكيف لا يُجن وفي رحم زوجه جنين؛ صعب عليها أن تجزم إن كان من صلبه، أم هو سفاح ازدرعه الضابط تلك الليلة في رحمها.؟!.

سكن الليل، وفرض النوم سلطانه على الخلق، ملامساً جفون الأغلبية بأنامله السحرية، كأنما غُمست بخلاصة نبتة البنج، وما بقي إلا موجوعون ومفجوعون، هدّمهم التأسي والأنين، ويئسوا من الشكوى والاستغاثة فهمدوا مستسلمين، ومحتضرون يمهدون بالاستغفار لاستقبال الموت بسكينة وتسليم والمتناومون تهرّباً من عذابات مستعصية، وعشاق تلاقوا ملتحفين عباءة الليل الساترة، وخفافيش العتمة يتدبّرون ويتداولون ما يمكن وما عساه يكون، مؤدين ضريبة التكتم، فيتهامسون غاضّين الطرف عما حولهم، مقابل ألا تلتقط كلامهم أذن؛ أو تقع عليهم عين. كمال والجدة نور وقمر وسليمان والحكيم إدريس و...

وهناك نتيفا وجيئولا وغولدا وأخريات وآخرون. ورمضان اللص، ذئب الليل، يجوب الأنحاء متصيداً، وفي مقلتيه وجل وحذر. رأى جنيتين رشيقتين تتهاديان منسربتين مثل سحليتين، تتدهديان في الممارق، دبّ نحوهما، ثم لطى فتبعهما منسحلاً. لبثت إحداهما وتقدّمت الأخرى، عبرت إلى العربة المقفّصة كاشفة عن مفاتنها. تهافت قلبه كأنه هبط إلى وسطه. لهث فاركاً عينيه، وقد أطاشه ما يرى على سنا النار هناك. نادت بهمس وغنج:

-: رشا.. د. رشاد.

تعرّت تماماً. تمددت بجانبه. تلوّت بدلال. تقلّبت في الجهات. انشدت وارتخت بلا عظام.!. فلتت منه آه حرّاقة، فأخذته الأخرى. عانقته. ضمّته. هصرته في حضنها تستنزف ذهوله وجهده وما فيه، تزيد توحّده بهذا الجسد الناري، فتخلبه لبّه وقلبه.

في البكور، كان الضابط عثمان واقفاً وسط حلقات متواليات من عسكره، لا ينفذ منها إليه ذبابة ولا بقّة. حليق الذقن، يشع نظافة، رافلاً بأناقته، والجاويش والأومباشي يطلقان النار في الاتجاهات كافة، دونما هدف محدد، وطفق ينثر "المجيديات" على عسكره الأعزاء.!.

وكان قد قبّل غولدا وجيئولا قبلة الوداع، ووجّه كبير الطهاة (عوبديا) أن يكون دليلهم، فيمضون في الحال، يغذون السير، ليقطعوا أطول مسافة قبل الشروق، منحرفين غرباً من حلب، فيتابعون جنوباً، متاخمين الحضر والبادية،

يستبدلون بملابسهم ملابس غجرية، فيمارسون الغناء والرقص تكسّباً وتمويهـاً، يكشفون "البخوت"، ويبيعون "البطم" والحنّاء والأخياط والغرابيل مثل "القرباط"، يضربون الدفوف ويحرقون البخور، مـرددين الأوراد والـذكر كالـدراويش، يمدون أيديهم طالبين من مال الله، كما شحاذو "النور". يحتمون بـ "القبضايات" ورؤساء القبائل وشيوخ العشائر والبكوات. يقبرون موتاهم ليلاً، فلا يظهر لهـا أثر، حتى يصلوا تخوم الأرض الموعودة، فيدخلونها أجراء حـرّاثين زرّاعـين حرفيين.!.، مستفيدين من ثروات تكتنزها أجساد هذي الحسان، فلا تنضب مـا دام فيهن غواية وعرق ينبض.

وكان الشيخ الإمام قد أذّن لصلاة الصبح، عندما وجدوا جثة رمضان قرب النهر، وتحتها جثة رشاد، منزوعة عنهما السراويل، في وضعية شائنة.!.

دفنوهما واجمين كيفما اتفق، وأبى كثيرون المشاركة، يعمهم الصمت كأن على رؤوسهم الطير.

واستأنفت القافلة المسير، والعسكر يهتفون للضابط عثمان، منددين بعصبة الأوباش، محيطين به كما السوار يحيط بالمعصم، وما زال يرشقهم بالمجيديات.

*****

12

بكى الرجال الوقورون، قهرتهم تلك الميتة الضالة، تأثروا بها أيما تأثرٍ، وقضوا الوقت ساهمين؛ غارقين في صمت أصم، لم يرفع خلاله أحدهم نظره في وجه أحد، وبدت وجوههم خاملة، كأنما أدمغتهم ركنت في سبات بليد.

الموت هو الموت؛ ما تغير قط. لكن موتهما وحده ليس ما جعلهم شديدي الاكتئاب، إنما انكشاف عورتيهما، وانكبابهما على وجهيهما أحدهما فوق الآخر، وضعية مشينة، فما سبق وعُرفت بينهم تلك المعابة المخجلة، وكلٌّ منهم يشعر أن العار لحق بشخصه دون غيره.

النساء واجمات، يلفّهن حزن كثيف، وشعور بنقيصة غير مألوفة، فبدون زاهدات، غير لاويات على شيء.

لاحظ الأطفال أن أهليهم في حالة فوق العادة. حدسوا وتهامسوا، ثم ما لبث كلٌّ منهم أن أوى بين ذويه ممتثلاً لطقسٍ ثقيل.

وكان الفتى السِّكيت يردد في داخله:

-: (بريئان.. أقسم).

حثته نفسه أن يكشف الحقيقة، وحضته نخوته ملحّة، فانتحى جانباً خارج السرب المحيط بالضابط، بيد أنه ما لبث أن فتر وانصرف عن البوح، ولم تهمد نفسه، فضجّت سائلة:

-: (كيف لهم الخروج من هذه الغمّة، والضابط سادر في غيّه.؟. قد حكم عليهم بذاك العذاب، فكان أجور من قاضي سدوم.!.).

وحده هو والضابط يعرفان ما حدث، وتلك القافلة رحلت بعيداً، حاملة جيئولا وغولدا؛ الفاتنتين الضاريتين، وقد رأى منهما ما أذهله، وما لا يتخيله

قطّ.!.

يكاد يعيد النظر بتباريحه والعشق الذي دمّره، ما دام للجسد ذاك البهاء بلا نظير. وما الخليقة بأسرار مفاتنها قاطبة، إلا دندنات وإيقاعات من بعض موسيقا الجسد. ومهما وصف يظل عاجزاً عن الوصف. إنه الجنون الجميل عينه.!.

ويا لعجبه من طاقة خرافية كامنة في رقة الأنوثة.!.، ولم يعرف قدر جمال الجسد، إلا حين رأى عن كثب كيف اكتمل الجمال كله، باندغام أنوثة طاغية بذكورة فائقة.

سرٌّ قلَّ أن يتجلى لبشرٍ، فإن تكشّف نبضه في أعماقه، كان سدرة لا قبلها ولا بعدها..!..

-: (تراك يا قمر.. تعرفين هذي النأمة الواصلة الفاصلة.؟.).

ظلت قمر نهباً لتفكيرٍ مضطرب، بين أخذٍ وردٍ، وألفت ذهنها يتناول عنقود التساؤلات، وقد تشمرخ في زورها، فيأخذ منه حبة فحبة:

-: (هو أمر مختلف تماماً، لعل التشكيك به سبيل انحساره. ولكن.. كيف أخرق هذا الطقس المهيب.؟. وأنى لي تقديم برهان براءتهما.؟. ومن أين آتي بدليل.؟. وكيف أؤوّل ما رآه الناس.؟. كيف أنقضه لأثبت سواه.؟. ومن أين أبدأ.؟.

قمر.. الجدة نور لم تخطئ إذ قالت إنك شموس، ولم (تستطعمي) بعد.؟!.

تجرّعت مرارة الهزيمة والخيبة حتى حثالة الثمالة، خُذِلت بنفسك المتصعّدة، وفجعتك الأحلام بجسدك المدلّه، فعرفت طعم العلقم على ذاك وهذا الصعيد، وما زلت تدسّين أنفك في هذه وتلك.!. العمى.. أتكونين سبّاقة في موقفٍ أنف الرجال منه، فضلاً عن أنثى.؟. العمى يا قمر.!.).

-: وبعد أيها الحكيم إدريس.؟.

-: معضلة أيها الضابط.

-: كمال.. أراك مهزوزاً أيها الضابط.؟!.

-: اعتاص الأمر علينا يا إبراهيم.

ردد إدريس الحكيم بتؤدة وتأكيد:

-: لا يذهب بحادثةٍ إلا حادثة أخرى.

تمتم إبراهيم القول يتمثّله، بينما كمال يحسُّ القلق بقلب منقبض، فالعد التنازلي بدأ، والمسافة تقصر، والقافلة وإن كانت تزحف؛ إلا أنها تقترب من حلب، والضابط عثمان أهملهم، بل لم يلتفت إليهم، تركهم بلا قوت، حتى أكلوا سحالة الشعير، بعدما هرّب المؤونة إلى تلك القافلة الأعز على قلبه. عجيب هذا الآدمي.!. كأنه لا يراهم، وكأنهم غير موجودين.!. أليست هذه أساليب المهيمن؟ بلى.. وإنه ينطق غير ما يضمر، ويخفي عكس ما يُظهر. تلك خطورته، وهذا سبب قلق كمال، فهو على تواضع خبرته، درى غطرسة أولئك العسكريين المطنبين بالفخفخة، ضالعين في الغرور إلى حد التورم:

-: (أرفض أن أكون مثلكم؛ وإن كنت منكم.).

فلم يكن فشفاشاً كالضابط عثمان، هذا الذي لا يرعوي، إلا إذا أُقيل مسترذلاً فتفش نفخته، أو.. يموت.

اختلس إبراهيم من كمال طلقة، في وقت عزّت فيه الطلقة، وها هي في قبضته، يضغط عليها، يحسسها دوافعه، واستلّ البندقية، غنيمته من معركتهم مع عسكر عريف ألكسندر، ولطالما حرص على إخفائها. مسحها وأودع الطلقة في جوفها، ربت على جيد حصانه وانطلق كرصاصة، شقَّ طوق العسكر المتراص حول قائدهم، تنابهوا وأطلقوا وأطلق. استقرت رصاصته في كتف الضابط الأيسر، وسقط إبراهيم عن صهوة جواده مثقّباً، داسته الدواب فشوّهته. بصق الضابط متشفياً، تركه رسالة جوابية إليهم، وتابع الركب سيره، وجعل الجواد من جسمه مظلّة لفارسه الذي سقط. شمّه فحمحم، ثم رفع خطمه إلى أقصى علو وصهل، كبا وطأطأ رأسه حزناً أو احتراماً، واسترخت أذناه، وقطرت من عينيه دمعة فدمعة.

جثمت آية عند رأس زوجها تسأله بعتب مؤلم:

-: أأنت القتيل، أم أنا والذي في أحشائي.؟.

اتسعت مقلتاها، وتجمدت أجفانها وظلت شاخصة.!. دفنوه بمهابة، وتحسّر أصدقاؤه والنسوة على شبابه، وتساءل بعضهم:

-لِمَ فعل ذلك.؟!. لقد أضاع شبابه، ولا شيء يعوّض فقدانه.

استأنفوا المسير، ونعمان ينشدهم ويرثي صاحبه:

-: (نختار الحياة القصيرة... وليبق صيتنا ذائعاً... دون أن نجانب الحقيقة... فلتكن العدالة طريقنا... ولنعش بقلوب حرّة... دون أن نعبأ

بالصعاب.).

وانقهر رهط شبان وصبية، وانفجر أحدهم قائلاً:

-: لو أنه قتله، لما كان موته بلا ثمن.!.

وأجهش باكياً. احتضنت هوريك صاحبتها آيه، وضمتهما الجدة نور إلى حضنها، وتعاضدت قمر معهن مواسية:

-: إبراهيم فقيدنا جميعاً.

شخص بصر كمال بوجه إدريس الحكيم، فهزّ الأخير رأسه، كأنه يؤكد ما سبق وقال بأن ما للحادثة إلا حادثة أخرى، وأمسك كلٌّ منهما عضدي الآخر وتهازّا، دون أن يسمح أحدهما لابتسامته الحزينة أن تظهر، فليست كل الميتات سواسية.!.

ولحق جسم القافلة برأسها، فقد توقف الركب في استراحة طوال مدة دفن إبراهيم؛ ومداواة الضابط الجريح، وها هو يبدو متعافياً، أو أنه يُظهر بأسه، فلا يفتق في غطرسته موضعاً.!. ثم خاطبهم بين جدٍ وسخرية:

-: اجعلوا لكم رأساً بدل أن تظلوا جميعاً موضع الذنب. دعوا وجهاءكم في الواجهة، فلا أحد بطرف الوالي يلتفت إلى العجيزة.

لكز حصانه ومضى، وقبل أن يتقاطر خلفه العسكر، أدار حصانه موجهاً كلامه إلى كمال:

-: حريّ بك أن تأخذ مكانك. كفاك ترديا ومسخرة. ضابط أنت لا راعي غنم. إني آمرك.

أطرق كمال هنيهة، ولمح إدريس الحكيم تردده، فنظر نحو الجدة نور كأنما يسألها أن تُخرِج الضابط الشاب من حيرته، فهتفت:

-: كمال يا بني، مطمئنون إليك حيثما كنت. هيا.. تصرّف يا رجل، ولا حرج.

تطلّع نحو قمر فوجدها وهوريك منشغلتين بآيه. حانت منها التفاتة فابتسمت بدفء، شحنته ابتسامتها ثقة، فمسح رأس الصبي حمزه وترك العربة، عدّل هندامه و تناول رسن فرسه، امتطاها ومضى يحفّه مَنْ أحبّه، ومن لم يرتح له على حدٍ سواء. لحظتئذٍ انقبض قلب أرملة ضيف الله، وسالت دمعتان قهريتان على خديها، وذهب بصرها إلى الفضاء، فتراءى لها طيفه، شكت إليه

حمأة الضعف وتضاعيف الفراق، فذاك هو عثمان القتول، يتعنجه متبذخاً بـــدم قتلاه.!. (وما عاد وجهك يُطل عليّ بالرضا يا ضيف الله.!.).

انتبهت.. وقد علا لغط حولها، فالجدة نور أبت أن يكون ابنها رجب فـــي المقدمة بين الكبراء، ثم إنهم ألحوا حتى أضجروها، لأنها ارتأت إنابة حفيـــدها سليمان، وحاولوا إقناعها بأنه لم يزل في مقتبل العمر، ووالده أولى بمكانةٍ هـــي في الأصل له، فأكدت إصرارها، وتمنوا عليها أن تقبل ارتقـــاء المقدمـــة إلـــى جانب رجب، فجاء ردّها حاسماً:

-: أما سليمان فبدلاً عن أبيه، وأما أنا فإني أُنيب قمر.

لحظات وهم في دهشةٍ، فلطالما أتتهم بآراء حيوية لم يألفوها، ولا يجـــدوا حجةً تبرر نقضها. وكان الشيخ الإمام آخر من حاول ثنيها عن رأيها، وحـــين لمست أنه يجادل بإيحاءٍ من الضابط عثمان، جادلته حتى أنسته غايته، فانصرف منشغلاً بغير ما جاء لأجله، ثم انقطعت إلى قمر تشجّعها، خالعة عليهـــا أثوابـــاً لائقة، مما كان لها إبّان قمة نضوجها، حافظت بحـــرصٍ عليهـــا، ومـــا فتئـــت ترشدها وتعدّها نديدة الرجال، مكرّسة فطرتها المنذورة لمغالبة صيرورتها، من غير أن تنسى نفسها، فهي امرأة أولاً وآخراً، ليســـت مســـترجلة ولا مبتذلـــة، وأردفت:

-: فإن أحسنتِ فلك يا قمر، وإن قصّرتِ فعلينا معاً. الحذر.. الحذر.

رغّبتها وحذّرتها مباركة فطنتها في آنٍ، فغبطتها نسوة، وحسدتها بعضهن، وصفّق عباس الممسوس لها، وزفّها صبية وصبايا، وهي ماضية كأميرة علـــى صهوة فرسها، فسبّح الفتى السّكيت بمبدع ما خلق.!. وأخذته قشعريرة كـــومض البرق اقتسرته الشهقة خلالها مرتين، وهو يتملى هذي القادمة عروســـاً بهيّـــة، تمناها ولم يحلم بغيرها، فأوقف قلبه عليها، وها هـــو يخفـــق علـــى هامشـــها، وتناحرت في ذهنه خيالات بهرته أمسِ، وهذه التي لما تزل في نظـــره ســـيدة النسوة.!. أهو عشق يخص ذاتها، أم ولَهه بالجمال كافة.؟!.

وأطال عثمان النظر متملياً شخصيتها، وقد حرّكت في قرارته حناناً شفيفاً:

-: (أيتها البديعة.. ما أشبهك بأمي.!.).

دنت فحيّت الرجال، واتخذت موقعها قرب سليمان، حيث يليق بمـــن فـــي سنها ثم إنها ما زالت ترهب حماها السابق؛ بل تحترمه، أو لم يقل إنها بمثابـــة ابنته.؟.

واستأنفت القافلة مسيرها مكتملة، فعادت لتبدو كمخلوق فقاري أسطوري، برغم ما أصابه من هزال لكثرة ما نزف، فليس بقلة الذين انتزعهم الموت في الطريق الصعبة، والذين فرّوا منسلخين عنها، وها هي تزحف بناسها ودوابها وعرباتها على روابي المدينة، وكمال يكاد يطير فرحاً إلى حيث بيته، لكنه سرعان ما امتعض لمرأى أفواج الناس يغادرونها بهيئات بائسة، وتلك هي دوريات الجندرمة، تجوب الأمكنة، تطرد وتطارد فلولهم، تنقضّ فتأخذ أحدهم، وترمي بآخر إلى التهلكة، رآهم أشباحاً وهياكل، لكأنها خرجت لتوها من أجداثها، أحاطوا بالقافلة، تراكضوا حولها لاهثين في إثر مضغة.!.

-: (أي خطبٍ نابك يا حلب.!؟.).

أحزنه أن يرى ذلك. خجل وانكمش. تعرّق واضمحلت فرحته بالعودة، فهو أسير شعور تملكه منذ وعى، فالمدينة بيته، وسكانها أهله وخاصته، والقادمون إليها أضيافه، ولا يخامره شك أن بيته أجمل بيوت الدنا، وأهله أفاضل، فيفاخر ببيته وأهله، ويكرم ضيوفه كرامة حبه لأهله وبيته، فما تراه يفعل، وقد انكشف ستر من أستار داره، شعور سوداوي غمره فأترعه حرجاً، كأن الأضياف أطلوا على بيته فرأوا عورته.!. تذكّر الكواكبي، فزور عثمان وتحسس قبضة سيفه، امتقع لونه وارتجفت أرنبة أنفه. أحست قمر أنه مأزوم يفضحه اختلاج وجنيته، فبادرته:

-: وصلنا أخيراً.. أليس كذلك.؟. حمداً على سلامتك.

-: بلى.. هي ذي حلب.

-: تبدو كما وصفتها لي. ستجد من يفرح بعودتك، إني أغبطك. وما تلك.؟.

-: إنها القلعة.. علامة حلب.

-: أتستطيع تحديد موقع بيتكم.؟.

-: إنه إلى جوارها.. عند طرفها الآخر.

-: ليتني أراه.

لم يفهم ما رمت إليه، إلا أنها انتشلته مما طغى عليه، فشعرت بغصّة وفرحة معاً، ونظرت في عينيه قدر ما أتيح لها، لكأنها تريدهما أن تنبئانها كيف يراها الآن، وهو على تخوم بيته.؟. وللحظة تمنت لو لم ينته المسير.!.

ثم تمنت عميقاً ألا تكون نهاية المسير ختام حكايتهما. تنهدت، ثم رفعت

رأسها مبتسمة بإشراقٍ؛ لعلها تخفي هواجسها، وبعثت نظرها في أرجاء المكان، محاولة ألا تكلمه أطول مدة تصبر عليها، لا سيما أنها لاحظت استياء الوجهاء، وقد أثارت حفيظاتهم، فتشاغلت عنهم بالنظر إلى النهر، وكيف يزنّر المدينة، ويلفّ خصرها أُلفةً، ويروي مساكب الخضر على ضفتيه، وجمال أشجار الفستق في الكروم المترامية، وأشجار التوت العملاقة تحفّ بالسواقي، يستظلها هذا البستاني وتتفيأ بظلها تلك العائلة، وتزهو الزروع بين أيدي فلاحٍ وأفراد أسرته أجمعين.

وفي السماء، من فوقهم حوّمت أسراب حمامٍ إثر أسرابٍ، هفهافة منسابة برشاقة، وكم رأت في نومها أنها تطير دون أجنحة أو ريشٍ، تسبح في الفضاءات الرحبة، تنزلق في الهواء متى أرادت؛ وإلى حيث شاءت، فصار ديدنها أن تهجع طالبة النوم، لعلها ترى أنها تطير محلّقة فوق الأشجار السامقة، والبيوت ومداخنها، وحرارة العواطف المتخيلة تحت سقوفها، والسهوب ومداها، والجبال وأنفتها، ودروبها الضيقة بمنزلقاتها الصعبة، مستمدة من ذلك انتعاشاً ومتعة وتجدداً، فلم تحدِّث أحداً عن أضغاث أحلامها، خشية تخرصاتٍ تشوّه نشوتها، أو حسدٍ يحرمها متعتها الخفيّة، فربما ذهب الحسد بهذي النعمة، إن كان ما تراه سرّاً لا يجوز إطلاع الآخرين عليه.!.

استرقت النظر إليه، فلمحت لآلئ دمع عينيه، وطيف بسمة تهلل لها وجهه رانياً إلى المدينة، باحثاً عن مكانٍ محددٍ فيها، فبدا كطفلٍ أعادوه إلى حيّة بعد إبعادٍ طويل، فشعرت بدافعٍ جامحٍ لتضمّ أصابع يديه، وتلثم بين عينيه، تشاركه اللحظة بندرتها، فتضمه برؤم الأم.

انتابها خوف مفاجئ انقبض له صدرها، فماذا لو كانت ثمة أنثى تنتظر أوبته وقلبه يهفو إليها.؟.

ردّها صوت الضابط عثمان من شرودها، لحظة خاطبها في جملة الوجهاء:

-: أوصلتكم إلى حيث أرادت لكم السلطنة، وعليكم تقدير ما تحمّلته من مشقّة لأجلكم، وما عانيته من سفهائكم وأجلافكم.

-: هكذا إذاً أيها العرّاب. سفهاء وأجلاف.؟!.

قال عبد الله ذلك محتجاً، فانتصب توفيق وحمزه إلى جانبه. زورهم محمّر العينين، وبالآن نفسه رصد الموقف برمّته، واضعاً في حسبانه احتمالات شتى،

وروًّأ في ردّه على ذاك الفتى الأرعن، ثم قال:

-: ها أنت تأبى إلا أن تعلن عن سفاهتك. ارحم نفسك من لسانك يا هـذا، فإني مشفق على أمك.

وما كاد عبد الله ينتفض متقدماً نحوه خطوة. حتى أشهر غدّارته مهوّشـاً، وأطلق على مؤخرة بغلٍ فجفل واشتعل ذنبه، وراح يعدو كالملـدوغ، ضـارباً الهواء بخلفيتيه، مهيّجاً الدواب فاختلطت ودربكت وارتفعت أصـواتها صـهيلاً وشحيجاً ونهيقاً، واضطرب العسكر والناس، إلى أن كـبح جماحهـا السـوّاس وأصحابها والبياطير.

ساد ترقب وعمَّ سكون ملغوم، فالموقف منذر بما لا تُحمد عقبـاه. عندئـذٍ دفعت الجدة نور إدريس الحكيم، فأبعد الأخـوة الثلاثـة، منوّهـاً أن مخاطبـة الضابط وقفٌ على الوجهاء، فالمكان والزمان يفرضان سلوكاً مطواعاً.!.

خيّم صمتٌ ثقيل، ونظر بعضهم إلى بعضٍ حرجاً وشزراً، فتنحنح الوجيـه عبد الحميد قائلاً:

-: لا بأس أيها الضابط العتيد. أين تؤووننا، ومتى نقابل الوالي.؟.

-: هو ذا المفيد؛ وأنت فيه على حق. سألتمس لدى جنابه ليقابلكم، ولكـن ليس قبل أن أرى ما لدى قائد الحامية بشأنكم. أعدك فاطمئن. إليّ أيها الضـابط كمال.

انتحيا جانباً، وبادره بطلب الكتاب والشمعدان، رفض، فهدده متوعداً.. ولم يرضخ، ثم كرر طلبه بتحبب وتزلّف، بيد أنه لم يستجب، فسـاومه وفاوضـه دونما فائدة، ثم لانت لهجته آخذةٍ منحى الرجاء، وأيقن أنه إنما يسفح ماء وجهه هباءً، فقال:

-: لا بأس. برغم سلبيتك سألتمس لدى قائد الحامية لـ.. ترقيتـك. أمـا الكتاب والشمعدان فهما أعطية، احتفظ بهما، أو اعطهما إلى والدك، فقـد يُسـرُّ بهما، أو قدمهما هدية للوالي فربما كافأك. خذ الأنفار إلى "القشـلة" مـا عـدا الجاويش والأومباشي. هيا.

حين ابتعد بالعسكر والعتاد، بصق الضابط عثمان شاتماً:

-: "بيس ميلت-غوييم".

ومال إلى الوجهاء يجاملهم رياءً، وأضفى على الأوامر صيغة الاقتـراح، على أن يحطّوا الرحال -مؤقتاً- ههنا قرب مفـيض السـيل، فالمكـان فسـيح

والنسيم عليل، والحال أمان، وسيسهر "الأومباشي" على راحة الكبراء، ثم ادعى أنه سيتابع مسألتهم لدى أولي الأمر. وما لبث أن تركهم وانطلق على صهوة جواده، متجهاً نحو المدينة وحارسه في ركابه.

تبختر الوجيه عبد الحميد مثل طائر الحباري، مبتهجاً بقيام الأومباشي على خدمته، وأمّل صحبه خيراً، فالضابط لمّح إلى أنّ الوالي يقدّر الوجهاء، وملُؤ الرجل زهوّاً، كأنه ضابط ما تقاعد إلا للتو، له باعٌ طويل في الميدان، وله من عسكره تلاميذ أوفياء.!. وما الأومباشي إلا أحد أولاء النجباء، يأتمر ويلبي طلباته دونما تلكؤ، واستدرك لافتاً الانتباه إلى الأومباشيين، فغالباً ما يكونون محنّكين، يعرفون قيمة الرجال ومكانتهم. لكن الأهم الآن هو الوالي، أليس يقدّر الوجهاء.؟.

لذا فالصعب يهون، والأمور في طريقها إلى خير ما يرام.

حاولت قمر استدراج الأومباشي، لعله يدلي بما يفيد عن مجمل أحداث الطريق، وعلى وجه الخصوص، الذهب الذي ادعاه الضابط، ونهاية رشاد ورمضان، وأين اختفت تلك القافلة.؟. وتدخّل سليمان مجاملاً، ودسَّ في يده بضعة مجيديات، إلا أنه ظل متحفّظاً، إلى أن أوضح أنه خائف، ثم ألغى ما نمَّ عنه كلامه، فأنكر أن يكون مطلعاً عما يسألون، وتبرّم لانزوائه معهما، فهبّ متذرعاً بواجب خدمة الكبراء، ولما ألحّت أن تعرف أين كان ليلة موت رشاد ورمضان، تنفس بتقطّع ونفض رأسه مدمدماً أنه لا يذكر، لكنه أكّد اختفاء كبير الطهاة ليلتذاك، ثم استدرك راجياً تقدير وضعه الحرج، فلقمة العيش تلجم اللسان، وليس كل ما يُعرف يقال. ثم هذَّ حديثه وتركهما على عجلٍ، فانتحى جانباً وجلس مطرقاً، فجعلهما في ريبة منه، وشرع يغني:

-: أمان أمان. أما.. ن.

وطفق يرثي نفسه وضياع العمر، شاكياً حاله هاجياً الزمان...

أشجاهما صوته الطلق، وقد وظّف في نبراته عُرباً عبّرت عن تفتّق المواجع.

ولم ترتح قمر لحظةً لغياب كمال، غير قانعة بما يدور، تاركة لسليمان أن يحاول مع الأومباشي ثانية، فهي ذاهبة إلى الجدّة نور جدّ ضجرة. لم تصرّح أنها شبه محبطة، فلا مبرر لحشرها بين الوجهاء، ولا مبرر لعزلهم عن الناس، فاللعبة محض فخفخة جوفاء أحسن الضابط استثمارها، فحمى نفسه بهم، وكان على شفا خطرٍ؛ خطورة ما اقترف بحقهم:

-: ويا للهبل إذ وافقناه فنصرناه على أنفسنا.!. وههنا مـــزيج مـــن غبـــاء وسذاجة وحمق، وإنها كذلك في نظر الضابط الماكر. خدعنا ونفذ سالماً، وهـــا نحن في أفواهنا رماد ومرارة خيبات.

***

مضى من الليل بعضه، حين خرج الضابط وحارسه من الحمّام، والحارات والأزقة مقفرة إلا ما ندر، وبرغم ذلك كانا حذرين يتوخيان العتمة، في طريقهما إلى سكن (الخانم الكبيرة).

-: "عصمان". هذا ولد.!.

-: لائقٌ وهو عزّ الطلب.

-: أحقاً.. أم تراك تنتهز رقّة أهوائي.!؟.

-: استعضت عني بصانع الطرابيش، وها أنذا أهـــديك مـــا يغنيـــك عـــن الرجال أجمعين.

-: أما أنت فلا أستغني عنك أبداً، وأما صانع الطرابيش فلا تذكره البتـــة، هي غلطة أريد أن ننساها، وليس في وقتي متسع لمثلها.

-: (أيتها المتقلّبة.. يا ذات الأمزجة المحيرة.!. إنما تبدين تحفظاً بقدر مـــا يلزم الأبهة. لن أدعك تتعجرفين، ونفسك لا تعفّ عن كلبٍ، فضلاً عـــن هـــذا المتكامل.).

واندفق الكلام من فمه، غير لاوٍ على لائقٍ، فقد بلغ السيل الزبى، ولن يدع لمحض ترّهة أن تنسف تدبيره:

-: إنه فتي يا خانم وقوي. جلد.. صبور.. كتوم.. سكوت.. نشيط.. غِرٌّ.. عَزب.. مطواع.. لطيف.. وسيم.. مجهول.. عصفور.. ســـهَّاري.. مـــؤنسٌ.. سيدتي فتنت خانم.

ذابت وهي تستمع، وأجابت كأنها غائبة:

-يا للمتع..!. ما اسمه "عصمان بك".؟.

-: لا اسم له.. سمّه ما ترغبين.

-: هل علم ابننا الباشا بعودتك.؟.

-: اطمئني.. لا علم لأحدٍ بالفتى.

-: "كاهانا" أيها المخلص. شرطي أن تنساه.

-: "تامار" أيتها الفاتنة، نسيته منذ اللحظة.

-: ترقية لك "عصمان بك".

-: كريمة يا خانم.

-: إذاً تريحني من صانع الطرابيش فأطمئن.

-: هذا أمر آخر، وأنا طمّاع.

-: طمّاع.. نخاس.. سمسار.. ديوث.. ثعلب أنت، وماذا أيضاً.؟.

-: مخلص مطيع.

-: "عفارم".. قل بِمَ تطمع.؟.

ملأ عينيها بابتسامته الرقيقة الماكرة، وأسال إليها من عينيه فيض عسل، فغرقت به ولم تستعجل إجابة، لكأنها تقرأ ما يدور في خلده:

-: (نوّلتك ديدنك.. وسأستنزف سطوتك أيها المتصابية المتسلطة، فأستفيد أقصى استفادة من سلطانك الخفي، وهذا حقي لا فضل لك فيه، فإن زدت أستزيد، ثم إن زدت فلأنك تجعلين الفتى يراك "أناهيد"، ثم تشعرين أنك حقاً "أفروديت"، يُفتّح مساماتك فيرطّب جلدك، فتتجدد بشرتك والأدمة، ونفسك الأمّارة تجعله مستلباً فيتفانى، ويُسري إكسير الحياة في أنحائك، يؤلّقك فتبرقين وتصدّقين أنك "فينوس". إني مشفق عليه من صحوة جنيّة تلبَّستِها، فقد أدخلته لحماً، وستخرجينه محطماً، تسلّيه عافيته، فيجفّ نسغه وييبس كالشجر.!.

ولن أطلب كل ما أريد. سأترك الأهم إلى حين يحرث الفتى التضاريس، ويوغل المِحرث في النار، عند ذاك يهون عليك طلبي الصعب، أما الآن فتقضين لي أهونها وعاجلها، فمن أموري ما لا أحبذ تأجيله.).

يعرف أي منافق هو، وكان يستغرب أحياناً نفاقه، فيردد هاجساً:

-: (أنافق فأستفيد، دون أن يدري مبغضي، فأظلّ الرابح الغالب.).

خرج وقد ضمن وعوداً، سيلمس ذوي الشأن نتائجها عما قريب، وبدا مطمئناً إلى نتيجة فعلته، ونفسه فيّاضة بمشاعر الرضى، ومضى يضحك سروراً، يداعب حدسه متسائلاً:

-: قوّاد من يسهّل النساء للرجال، فماذا عمن يسهّل الرجال للنساء.؟.

أأكون سبّاقاً إلى هذا.؟. ما ألذّ الفوز بقصب السبق أنّى كان.!.

قلب شفته وقبَّب كتفيه، (وانزلق) في الحارة الضيقة، ويده قابضة على

"الطبنجه" يقظاً متنبهاً لصوت قطة تقرفص في زاوية، وجرذٍ (ينزبق) من كنيف إلى مجرور، ودخل (زابوقاً) بعد آخر، حتى دنا من ذاك الباب الناتئة مساميره، مثل مسامير الباب الكبير بمحلّة باب الحديد، واقترب من عتبته الواطئة. ثلاث طرقات... فاثنتين.. ثم طرقة واحدة. انفرجت طاقة مشبّكة في الباب، وتتالت عيون ترمقه عبر قضبان الكوّة، ثم انشقّ الباب فعبره بخطوتين، ووجد نفسه مطوّقاً ببضعة رجال بينهم امرأة. أُرتج الباب على عجل والصمت مخيّم والعيون ترصده، وأسلحة بأيديهم غائصة في قفاطينهم الفضفاضة. مدّ يده إلى علبة خلف الباب. تناول لفافة. أدناها من فمه وهو يفضّها، وعيناه معلقتان بوجوههم، فحنى رأسه وقرَّب الجلد من شفتيه ولثم "المزُوزة"، ثم أعادها إلى العلبة، فسمعهم يحيّونه:

-: "بارُوخ هَبّا-مبارك القادم".

وأفسحوا له، فخطا نحو الداخل قائلاً:

-: "شالوم".

دقّاته على الباب كانت واضحة، ثم إن أحدهم يعرفه، وتأكدوا حين مدَّ يده خلف الباب إلى العلبة، لكنهم تركوه يكمل الطقس، فثبت بلا شك أنه منهم.

لم يمتعض ولم يعترض، ولا احتجّ على إبطائهم، وهو الذي لا يطيق ذباب وجهه، فهو مثلهم محترز، والشك بمن ولدته أمّه يبقى مبرراً حتى يثبت إخلاصه، باركه الحاخام مرحباً، وقال لصحبه:

-: هو ذا "كاهانا".

أرادت المرأة أن تقوده إلى مخدعٍ، ليقضي بقية ليلته، لكنه قال مرجئاً:

-: ليس قبل أن أبلغكم بما عندي.

-: هذا ما نرغبه إن لم تكن متعباً.

حدّثهم كيف يسّر له الحبر مرافقة "الغوييم" ممن تعهّدت السلطنة أن تبعثرهم وبالتالي تسنى له تأمين "نتيفا" والصاعدين معها، بتدبير التاجر "ليفي"، وحدّثهم عما يدور في الأستانة، ودأبهم على معاقبة السلطان بتنحيته، وكيف أنهم اندسّوا في جماعتي الدستور والترقي، وبحثهم عن قناع يجعلونه واجهة فيتحركون خلفها، ولمّح لهم عن بعض مضامين "البروتوكولات"، وعن نشاط "جابوتنسكي=زائيف) في أوديسا، ثم حدّثهم عن مؤتمرهم وقراراته برفض أي بلد في إفريقية، وعدم القبول بغير أرض (الميعاد). ثم حدّثهم عن الملخص

"فوزي بك" والاحتفالية التي أقامها للصاعدين، وأخيراً عن "تامار=فتنت" والمأمول منها، وبحث معهم قضيته مع غريمه الضابط ابن صانع الطرابيش في محلّة بحسيتا، وكيف يمكنهم استرداد "أسفار التلمود والشمعدان" من أولئك "الغوييم" المهجّرين، فعرفوا الكثير عن قمر والجدة نور والوجهاء والحكيم إدريس وأولاد ضيف الله البغضاء.

بدأ الفجر ينبثق مبدداً الجهمة، حين نقّطوا حروف عملهم ليومهم هذا، عندئذٍ أخذته "هاجر" إلى المخدع، وتوزعوا كلٌّ في مرقده، وتواصوا أن يهبوا قبيل الضحى.

ولم تكن الشمس قد بزغت، عندما دار الوجيه عبد الحميد على الوجهاء، ثم سبقهم إلى الشيخ الإمام، فجالوا متفقدين الناس، واقفين على أحوالهم، عقب ليلتهم الأولى في بطاح حلب، وبدا هميماً عطوفاً، ذهب إلى المرضى، ولم ينس الممسوسين مؤكداً اهتمامه بالصغير والكبير، باذلاً ما استطاع لاستعادة مكانته، بعد كربٍ وظروفٍ ليس له يد فيها، حسبما يقوله الآن لمن حوله، ولم يتأفف من معترضٍ يخالفه هناك؛ وغامزٍ ساخرٍ هنالك. تغاضى عما لا طائل عنه، وتجنّب المهاترة، برغم امتعاضه من قسوة بعضهم عليه، أغاظوه غير مرةٍ وكتم غيظه، وظل حريصاً على الابتسام، ثم بشَّ وتهلل وجهه، لتلك التي رأت في عودته على رأس ناسه فأل خير، فازداد ثقة وحماسة، واقترح أن يذهب بعض الشبان بمعيّة الأومباشي إلى أسواق المدينة، فيجلبون الأطعمة، وحين استعدوا وجهّزوا العربات، أبى إلا أن يدفع كامل الكلفة.

لم تدر قمر ما تفعل. أتلتحق بموكب الوجهاء أم تنصرف إلى شأنها وهمّها.؟.

لا سيما أن الوجيه رجب بينهم، كأنه يؤكد مكانته وإن بدا وجلاً، بينما ابنه سليمان يتذرع بمساعدة البيطار على حذو بغله، وغير خافٍ عليها انشغاله بهوريك، فتلك هي تبادله نظرة وابتسامة، والجدة نور تدقّ الأرض بعصاها وهي علامة عدم رضاها عن أمرٍ ما، والديك يدور حولها غاضباً لغضب صاحبته، فغافلتها وأسرعت مع المنحدرين إلى النهر. نادتها الجدة نور مرةً عقب مرة، دون أن ترد، مقدّرة أن المسافة بينهما، تمكّنها من ادعاء عدم سماع ندائها.

جلست قرب الشطِّ تراقب أحياء الماء، متذكرة ليلة أولمت لهن هوريك شواءً ابتكرته من أفخاذ الضفادع. تنهّدت إثر بسمة خاطفة، أطرقت مستسلمة

لوحدتها فكمال لم يعد.!. نخزها شيءٌ في صدرها. نقــزت إذ انقــبض قلبهــا فحدّثها أنّ كمالاً لن يعود.!. جفلت فانزلقت، وبقيت قاعدة حيث اســتقرت فــي المجرى، يغمرها الماء حتى ثدييها، فبدت كنبتة نيلوفر بأوراقها العظيمة، إنمــا بلا زهر، وشرعت تحدّث النهر:

-: (ما دمت ستضيع في ملوحة البحر، أو يلاشيك عطش التــراب.!. مــا قيمة مصدرك ومن أين انبعثت.؟. لا شيء البتة يجعلك قادراً على العودة مــن حيث أتيت. أو استرجاع بعض قطراتك. شيء ما يجعلك لا تستمر، فينفقد ماؤك وينتهي مجراك، فلا يذكر أحدٌ اسمك. ويعزّ أن تتقّ فيه هذي الضفادع.!. إلــى هذا الحدِّ تحكمك قسوة العدم.

أيا نهر.. أنا مثلك. لي مائي وإن أضاع سريره، ونضارة النبت وعشــب المرج، فقلبي وردة كل الفصول.. إلا أني عطشانة ولشدَّ ما أخشــى التجفــاف. تنقبض عني حياتي فلا يبقى لي غير لــوك الــذكريات، والعمــر ينــوس دون استضاءة. فيا أيها المتدفق، تراك تجفّ ذات يوم فتعرف معنى الحريق المنطفئ في كياني.؟. أتراني أجرّب موتي.؟. وهل لأحدٍ أن جرّب كيف يموت.؟.).

أدركت أمينة أية أفكارٍ داكنة تغيّم فــي رأس صــاحبتها، فتجعلــه كهفــاً مرصوداً للعفاريت. فخاضت إليها وقعدت خلفها، تصبّ الماء علــى رأســها، وتمشط لها شعرها المجزوز، منغّمةً أغنية طروبة تستدني الأمل.

****

13

سرى نبؤهم في الحمّام، ثم انتشر في حارات المدينة وأماكن التجمّعات، وفي حوانيت الحلاقين وشراذم العاطلين عن العمل. وأثارت الأقاويل فضول الرجال والنساء على حدٍ سواء، فحرّكت الكوامن وأيقظت الهواجس، وكانت مثيرة داعبت أخيلة الناس وكشفت قناعات غير مصرحٍ بها، ونبشت رغبات مكبوتة، دفعتها إلى السطح، فأمست تسليةً ومحور أحاديث في البيوت وقارعات الطرق، وتحوّلت إلى حكايات مجنّحة، تحرّض على المتابعة، فتسللوا خلسة إلى مفيض السيل وعلى استحياء، ثم تقاطروا بلا مداورة، والتموا حول النزل متوجسين، فراقبوا وتهامسوا متقوّلين مهتابين، ثم تنادوا علانية لتلمّس الغريب العجيب فتنادروا وتداولوا الطرف وتخيّلوا، وتداعوا إلى الفرجة على أناس ليسوا كالناس.!!.

-: ماذا يريد هؤلاء.؟.

-: إنهم يتغامزون كأنهم ما رأوا بشراً من قبل!..

-: كثرتهم مبعث ريبة، لكأنهم يبحثون عن شيء بعينه.

-: ليس لدينا شيء لهم.

-: يتهامسون وعيونهم علينا.

-: أمرهم غريب.!.

-: يراقبوننا عن كثب.

-: فلنكن حذرين.

-: عيونهم تتابع النساء.!.

-: ضعوا في الحسبان أسوأ الاحتمالات.

تمطّط الوقت، فذهب بعضهم وأتى غيرهم، ولم ينقطع غدوهم ورواحهم، ثم إن بعضهم لبث في مكانه، كأنه نوى الإقامة.!.، والقادمون يزدادون يغشاهم اكتشاف المجهول المثير.

-: أضحينا فرجة.!.

ينظرون إليهم كأنهم مخلوقات نبطتهم سراديب خفيّة، أو ذرأهم الخالق فجأة مثل ذرّ النمل، فتناصحوا باليقظة كيما يستجلوا مراد أولاء المنفغرة أفواههم، وعيونهم تبرق زوغاناً، وتوالدت تساؤلات وكثر اللغط، فهذا زمن العجائب، وشاع في الأنحاء أنّ في مفيض السيل، أناساً لا يدري أحدٌ من أين أتوا. لعلهم يأجوج مأجوج، يشبهون النور وما هم بغجر.!. لهم أذيال كذيول الخنازير. يعبدون الفرج ويقدّسون دم الحيض.!. وبحبح بعضهم الأقاويل بأنهم يستقدمون الجن فيعيدون للشيوخ صباهم، وحريمهم فاجرات داعرات، لكل منهن أربعة أثداء، وفي ثرثرات أخرى هم سحرة مشعوذون. إباحيون متحللون من قيود الأخلاق تضطجع النسوة للراغبين حيثما كان، ورجالهن يتفرّجون مسرورين، ومن نسائهم من تأكل أولادها مثل القطط، ومن رجالهم من يأكلون زوجاتهم.!.

-: أئلى هذا الحد أوصلتنا الأقاويل؟

-: ما أقسى أن نضطر للبرهنة أننا أوادم.!.

-: يا حيف.!!.

نفر الدم من أنف يوسف فجأر:

-: هذا ما لا يُحتمل.!.

واستلَّ سيفه وانتحر. صاحت الجدة نور:

-: ما تبقى لنا شيء. لست أسامحك بحليبي يا رجب.

-: ويلاه...

-: وماذا بعد.. الألسن تلوكنا وتبتدع ما يشوّهنا.. يا للخجل.. ما العمل.؟.

-: فتشوا عمن وراء تلكم الشائعات الخبيثة.

-: حاقد مغرض لا شك.

-: فمن يكون.؟.

-: يا له من وغد.

-: لو عرفته لقتلته. دلّوني عليه.

-: كائن من كان فإنه يستحق القتل.

تدخّل الوجيه عبد المجيد قائلاً:

-: هذا علك. علينا مواجهة التقوّلات والردّ عليها.

-يبدو أن وراء الشائعات من يروّجها.

-: نلتقي الناس ونحدّثهم.

-: وهل نلتقي أهل المدينة كلهم.؟!.

-: شيءٌ أفضل من لا شيء.

سكنت بعض النفوس المضطربة، وعلى صعوبة المهمة التي جنّدوا لها حلماءهم ومتفوّهيهم، تعارف رجل برجل، ونفر هذا من ذاك، وتحفّظ أحدهم واجترأ هذا وتجاسر ذاك. تدانوا.. ثم اختلطت زمرة بثلة، وجالس نفرٌ لمةً، والتقى رهطٌ بشرذمةٍ، تساءلوا واستخبروا متنابئين، وجسّ أحدهم نوايا محدّثة، واستقصى بعضهم خواطر بعضهم الآخر، وبرغم التقارب الظاهر، بقي الشك قائماً، ومهما كان الحوار متبسطاً، فالأمر يبدو عسيراً.

صحيح أن بعض الطمأنينة سادت بينهم، إلا أنّ قلّة منهم نظفت خيالاتهم مما علق بها، ففي الخرافات إغراء، وفي الشائعات غواية، مثلما للفضائح جاذبيتها.

-: لقد أجدى الحوار.

-: لكنها جدوى بطيئة محدودة.

-: وما العمل.؟.

-: الأوهام المزدرعة، نمت وتشمرخت في أذهان خاملة لسنوات مديدة، مشكلتنا الآن مع الوقت.

دقّت الجدة نور الأرض بعصاها فاستنفر الديك، قالت:

-: أين أنت يا إدريس الحكيم.؟.

-: لبيك.

-أين حكمتك.؟.

-: أمتحنها.. والامتحان عسير.

-: ريث أن تتوقد، أطلقوا أشعاركم وأغانيكم، حدّثوا بتاريخكم وأساطيركم، دعوهم يرون فروسيتكم وفنونكم وجميل تراثكم. هيا.. واجهوا التشويه.

تيقن بعضهم من بهتان الأقاويل، ولكن هيهات أن يفعل النفي مثل الذي أثارته الشائعات، وهي شرار وهذا هشيمها، والذي عصف بالمدينة، عصف بالمستنبت فيها، ودغدغ إرث تجهيلٍ ترعرع على جسد الزمن المقتول.

لم ينتظر الصبي حمزه وأترابه انبثاق حكمة الشيوخ، فتراكضوا بين الناس زرافات مرددين:

-: أوادم نحن مثلكم بلا ذيول.

ثم إن بعضهم وجد فيما شاع باب ارتزاق، فالعربات تنقل الناس، والسقاؤون يتكسّبون، وبائعو الحاجات يربحون، وأضحى مفيض السيل ملتقىً وبازاراً، وصار مشوار المتسكعين المتطلعين إلى فرجة تسلّيهم وتكسر رتابة أيامهم المتشابهة، وفيه تعويض فراغٍ وبطالة، وغايات أخرى.

-: طال الوقت ونحن في العراء، عرضة لفضول من هبّ ودب.

-: كأننا حيوانات نادرة.!.

-: يبحثون عندنا عن الرذيلة.!.

-: أدركنا أيها الحكيم إدريس.

-: إلي بالشيخ الإمام. إذّن للصلاة، وليتوضأ أو يتيمم الجميع. أقم صلاة جامعة.

وقفوا صفوفاً بخشوع. صلّوا طوال الوقت. خيّم الصمت من حولهم، كأنّ الطير على رؤوس الناس وهم في ذهول.

-: أسأنا إليهم وظلمناهم.

-: اتركوهم وشأنهم وعودوا من حيث أتيتم. عيب.

-: بل نساعدهم.

لم تنته البلبلة دون ذيول، كأنهم أسرى معارك لم يخضها أيٌّ من الطرفين، فالخلق مأزومون، استوحشهم القهر وألّبتهم المظالم، وها هم يردون عليها خبط عشواء، فيصيبون أبرياء بمثل ما أصابهم، وقد فتنتهم الشائعات فغيهبت البصائر، ودلهمت الأفئدة أسىً ينداح مرارة، ويفتّق الوجع المتراكم فوق هشيم الروح، ينكأ الجديد ويجدد القديم.

وظلت أخبارهم موضع رصد واهتمام الضابط عثمان، تابعها وجاسها

وحرث نارها، وها هو يظهر امتعاضه إن همدت، وينتشي إن اضطرم أوارها:

-: هل أعجبك شغلنا.؟.

-: لا بأس، وإلى المزيد. جننوهم. اجعلوهم مضحكة ومسخره. ارشـــقوهم بكل ما يعيب، خرمشوا ما يعتزّون به، احبكوا حولهم شرانق الظنون. وليكونوا عبرة كي يرتدعوا.

حثّ فئته لتوجّه الضربة تلو الضربة؛ بدقة وقوة، والغاية فـــوق الوســـيلة، ولتتحقق الغاية، فهي لم تقتلهم لكنها صرعتهم وحقّرتهم، وزعزعت ثقتهم بمـــن حولهم وبالسلطنة والسلطان نفسه، سيعيشون مع هؤلاء شكاً وريبة، وإن ناداهم السلطان لا يناصرونه، فما تعهّدهم رأفة أو حباً بهم، فالأرض ذهبـــت للقيصـــر وهم أولياء العظمة السلطانية فيما يرى وينتهج، يفيد مـــن فروســـيتهم وبراعـــة استخدامهم السلاح، ومآربه الأخرى.

-: نفّذنا ما يمهد لضربة أخرى، فما هي.؟.

-: أما الضربة التالية يا هاجر، فتجرّدهم من شعرة وضعها فـــي أيـــديهم كمال الممقوت، واليوم موعد نبأ عظيم. يموت قضاءً وقدراً صانع الطـــرابيش، ولا علاقة لنا بخير القضاء والقدر أو شرّه.!.

احترق الحانوت وتفحّمت الجثة، وصنّفت الجندرمة الحادثة بأنهـــا نتيجـــة اختناق بغازات فحم المكواة والمنقل، ولسعت النار الحوانيت المجاورة، فـــذهبت فعلة الفاعل، مثلما ذهبت محتويات الدكان نهباً قبل ألسنة اللهب. وكمال قابع في سرداب سجن "القشلة".

زفَّ الضابط عثمان البشرى إلى الخانم "فتنت" فأكدت له الترقية، وخيرتـــه بين قيادة الحامية ومناصب أخرى في البلدية والسراي، ووعدته بتعيين صاحبه محصّلاً لأموال "الدفتر داريه"، ولها نصيب من ذلك، وحثته أن يكـــون جـــاهزاً لمقابلة الباشا كأنه فرغ للتو من مأموريته الصعبة، جدد لها ولاءه وتملّق منافقاً، فامتدح ألقها، فبدت جذلى تزقزق بضحكها، هميمة رشيقة الحركة؛ انبثَّ الفتـــاء في كيانها انبثاث الشرايين في الجسد، وحين لانت وتغنّجـــت، ابتـــدرها ســـائلاً بإثارة عن حسن أداء الفتى السِّكيت فماءت دون تحفّظٍ مثل هـــرّة فـــي شـــباط، ونبست:

-: يسلم لي، عصفور دوري، ومثل ذكر حمام الورشان، يضـــرم النـــار ويطفئها في آن.

انتهز نشوتها فسألها أن تعيره عربة التشريفات لسويعات، فردّت بمكر إثر ضحكة مدغومة:

-: شريطة أن تعيدها غير ملوّثة بأي نوعٍ من دم.!.

أذهب من ينبئ الوجهاء بقدوم رسل الوالي إليهم، ثم تهادت العربة الفارهة بأبراهام وداود، على أنهما من كبار بطانة الباشا، أوفدهما لتقصي أخبارهم والوقوف على حقيقة ما تناهى إليه عن حيف أحاقه بهم الضابط عثمان، فاستمعا لتظلمات وشكاوى مشينة، لكنهما محقونان بمضادات تصونهما من تحرّق الناس واندفاعهم في رواية تفاصيل ما أصابهم، وما فتئا يهزان رأسيهما ويبديان دهشة، ويدمدمان بأن ما يسمعانه لا يرضي جناب الوالي، وهذا يفوق ما صرّح به الضابط كمال...

كان لذكره فعل السحر في بعضهم، فأغدقوا بمديحه، وأكدوا إدانة الضابط عثمان، ولم يزيدوا عما كان منهما، وإن جمّلت عواطفهم هذا، وقبّحت سيرة ذاك، بينما رأى أبراهام وداود عكس ما يروون، فامتداحهم الضابط كمال يزري مكانته عندهما، وذمّهم الضابط "كاهانا" يذكيه ويرفع شأنه لديهم، ثم انتهزا ممدحة ابن صانع الطرابيش، فدسّا سمّهما في دسم أولاء، فقال أبراهام؛ وهو "بايزيد" حسب مهمته الآن:

ــ : حضرات الأفاضل. جناب الباشا الوالي، سمع من الضابط كمال مثل ما تقولون الآن، لكن جنابه يتوخى العدالة، فلا يأخذ بمجرد ادعاء، لذا رأى جنابه أن يقدم المدعي البيّنة، وكان الضابط كمال ذكر أنّه خبّأ عندكم ما يدين الضابط عثمان، فهل هذا صحيح، أم محض افتراء..؟!.. هذا ما يريد جنابه التأكد منه..

تهامسوا، وبيّن بعضهم أنه يقصد الكتاب والشمعدان، وتحمّس الوجيه عبد الحميد فأكّد قائلاً:

ــ : الضابط كمال صادق، وله أمانة عندنا، لعلها ما قصده، وإلا فليس لدينا له غيرها.

قال داود، وهو "أورخان" حسب مهمته الآن:

ــ : هاتوها.. فهي التي ستنفعكم وتدعم ادعاء الضابط كمال. ولا نظنكم تقصّرون بمساندته. أليس كذلك يا حضرات..؟..

تنادهت العيون من حولهما، ثم انحزمت نظراتهم كالضوء، فالتقت في وجه قمر المتنحيّة جانباً. فهمت قصدهم، ولم تكن مرتاحة تماماً، شيء ما يُقبض قلبها، فبدت مترددة، لكنها خشيت التخرصات، فسيرتها و كمال لا تحتاج لمزيدٍ من الغمز واللغمز، حاولت تلبية طلب نظراتهم الواضحة، فانقبض قلبها أكثر، اقتربت من الجدة نور مستجيرة، فبادرتها:

ــ وقلبي مقبوض أيضاً يا قمر، ومامن أحدٍ سَيَفْهَمُ الآنَ معنى إيحاء القلوب. الموقف مأزوم يا بنيتي، ولا بدّ مما ليس منه بد، عساه خيراً.

اقتربت من الوجيه عبد الحميد، وهمست:

ــ : أبتاه... روحي تختنق، وقلبي منقبض..

ــ : إلا قلبك الذهب. ماذا تريدين..؟!..

ــ : لو أننا سلّمنا الأمانة لصاحبها.

ــ : وها نحن نفعل. إنه ينتظر مساعدتنا، إذ يبدو أنه ورّط نفسه لأجلنا، ثم... يجب وضع حدٍ لما نحن فيه. أين الوديعة..؟!..

أومأت للصبي حمزة فهرع، ولم يلبث أن عاد بصحبة عزيز الممسوس، فوضع الكتاب والشمعدان بين يدي قمر، فوضعتهما أمام رسولي الوالي، وسألتهما بخفرٍ:

ــ : كيف حال الضابط كمال ..؟؟!..

ــ : بخير.. ستتعزّز مكانته لدى جناب الوالي، إن ثبت ادعاؤه ضد الضابط عثمان. ألست قمراً.؟؟..

ــ : بلى..

ــ : لقد حملّني لك السلام وتحية خاصة..

تلفّت عزيز مستعرضاً الوجوه، بمفاجأتها به، قال:

ــ : نعم.. أديت ما عليّ، ولم يعد ما يسوّغ ادعائي أنني ممسوس.

نظر إلى أمينة بدفءٍ، فتنهّدت بخفرٍ، ثم ذهب إلى أمّه، وانثال على يديها يقبلهما، فضمته إلى صدرها بشوقٍ رقيقٍ، كأنها ولدته من جديد.

قال الوجيه عبد الحميد:

ــ :أيها الفاضلان... أوصلا الأمانة، وأبلغا الضابط كمالاً تحياتنا، ولكن متى يقابلنا حضرة جناب الوالي الباشا....؟!..

ـــ : سيبلغكم جنابه في حينه، ولن يطول انتظاركم برغم مشاغله الجمّـــة، وسأُلمّح له برغبتكم هذه. أعدكم أيها المحترم.

مضت العربة المترفة، والناس يتطلّعون إليها، كأنها بعض أمل يرجونـــه، وتنهّد بعضهم بارتياح، والتفَّ رهط حول الأومباشي حين قال:

ـــ : العمى.. خازوق..!..

ـــ : وما ذاك..؟

ـــ : أكلها الضابط عثمان..

شكت قمر قلقها إلى هوريك، فهوّنت عليها مداعبة بأنّه الشـــوق للحبيـــب. فحاولت إقناع نفسها. لكنها لم تنم ليلتها.

***

أوجز الضابط عثمان أخبار المسير، وأطنب في تفاصيل كبده كيما يوصل المهجّرين، وما فتئ يغمز بقناة كمال ملمّحاً بمكر إلى شكه بولائه، بينما الخـــانم الكبيرة تضرب على فخذها زاعقة:

ـــ : أمان..! بيس ميلت.

مؤلّبة ابنها الباشا، مشيدة بالضابط عثمان، فلا يتركانه يلتقط أنفاسه. ومـــا زالا يوغران صدره، ويضرمان غضبه، فزاغ بصره لهول ما يؤكده الضـــابط، وما تفنّده الخانم من عواقب وخيمة، إن وصلت تلكم الأخبار إلى قصـــر يلـــدز، فأولئك قوم مناجيس؛ وإلا لما رماهم القيصر خارج مملكته، وما الضابط كمـــال إلا واحداً ممن يكرهون أسيادهم الترك، فجعلاه يرغي ويزبد مهـــدداً متوعـــداً، وأوصلاه إلى حد الهوج، ثم ختما مكيدتهما بـــأن وضـــعا بـــين يديـــه الكتـــاب والشمعدان، دليلي إدانة، وزادت الخانم الأمر هولاً، قائلة وهي تشهق ارتعاباً:

ـــ : أمان. أما.. ن.. إن لم يعلم السلطان..!..

جأر الوالي مهتاجاً:

ـــ : الويل للمندسّين. سأعدمه في الحال...

ـــ : لا... إياك. فالاستياء على أشده، والحال في غليان.

ـــ : نرسله مخفوراً إلى الأستانة، فيلقى عقابه، فالسلطان أولـــى برعايـــاه، كذلك يعلم بيقظتك ويلمس إخلاصك، عصفوران بحجر واحد أيها الباشا.

وهبّت لتخرج فجأة، مثلما أوهمته أنها حضرت دون سابق نيّة، وها هي قد

سمعت ما غمّها. وليتها ما أتت، والتفتت إليه موصية:

ــ :احذر المندّسين وقرّب المخلصين.

غامزة نحو الضابط. ولم تكن لتزور الباشا إلا لماماً، أما هو فيزورها في دارها، وقد خصّته بساعة من قبل ظهر أيام الجمع، يأتيها كالضيف فلا يتجاوز "الليوان" ليأمر بتلبية طلباتها، ثم يمضي في طريقه لتأدية صلاة الجمعة، طالباً رضاها..!..

ــ : لا أخالف الخانم الكبيرة؛ وقد أوصتني بك، فهات ما تبقى لديك.

صوّر له خبث المهجّرين، ونصحه ألا يأمن جانبهم، وذلك لا يعني عدم إيوائهم، فأوضح الوالي أن قصر يلدز أمر بتدبير إسكانهم، ريث يتم نفيهم إلى قرية تبنى لهم.

ــ : فليكن... ولا بأس... إن مننتهم أنك تبنيها من كيسك..

شخصت عينا الباشا لفطنة الضابط، وهزَّ رأسه إعجاباً، ورنا إلى محدّثه فحذّره منهم ثانية، وليدعهم يتمنون مقابلته، فلا يحظون بها، فيضمن خنوعهم دون أن يطمعوا بغير رضاه، ويكفيهم الأومباشي ليسوسهم، وتتولى قيادة الحامية شؤونهم، فتخفّف عن جنابه عبأهم وتكفيه لجاجتهم وإلحاحهم.

ــ : لكني سألتقيهم، فقد سمعت بخيولهم الفارهة.

ــ : إذن ليتك حين تلقاهم، تتأمل من نسائهم امرأة أقرب ما تكون إلى أمازونيات الأسطورة... اسمها قمر..!...

ــ : قمر.. اسم بديع لا ينسى..!..

ــ : بل إن حدث ورأيتها انسها في الحال.

ــ : كلامك مثير..!.. والوقت غير مناسب. لا تنسَ ما لديك لسمرنا في سهرة قريبة.

ــ : بقي أمر "الدفتر داريه".

ــ : أمره لك، ولي منه الثلث.

ــ : كرم وتواضع منك.!..

ضحك مبالغاً؛ مسروراً لطواعية الضابط وحسن استجابته. ثم تسلّم عثمان الحامية، واستهلَّ عمله بتسيير سلفه؛ خافراً الضابط كمالاً إلى الأستانة، وطفق كمال يفكر بمآل الضبّاط العرب في جيش العثامنة، ونهاياتهم المتشابهة على مدى القرون المنصرمة، مستذكراً خلاصات ما قرأه للكواكبي..

*****

14

هشّوا الذباب وهم يتثاءبون، تناوموا وأجفانهم تختلج تأبى الاسترخاء، فأهدلوا رؤوسهم على صدورهم، جالسين بلا حراك، ينتظرون دونما لهفة، قانطين بتسليم عميق، لم يبق لهم غير ما يستر هياكلهم من أسمال متهتكة، شديدة الشبه بأنفسهم الواجمة، وتمرّسوا منذ أمد افتراش الأرض والتحاف السماء، يلتقطون أنفاسهم بصمت، غير متحمسين لشيء، ولا فرق بين أن يقتل أحدهم ذئباً، أو ينهش الوحش بعضهم، منفصلين عمن حولهم، سجناء أنفسهم، منغلقين لا تندّ عن أحدهم شكوى أو مطلبٌ، فلا يدرك من يلحظهم إن كان ثمة ما يدور في رؤوسهم وأعماقهم، أم أنها صماء..!.. كأنهم في سبات، ولشدّ ما يشبهون أهل الكهف..!.. وماتوقفت الحياة من حولهم، فلا نملة استتكفت عن سعيها، ولا الوالي أرجأ احتساء قهوته التركية لأجلهم، وهاهم الفتية يزاولون ركوب الخيل، وصبية حول عمر بن إدريس الحكيم يستذكرون دروس الشيخ الإمام، والنسوة لمّة هنا وزمرة هناك، يثرثرن ويلكن همومهن، وذوو القتلى يتحرّقون لتلبية صراخ طيور الهامة، وقد تمثلت لهم خارجة من رؤوس فقدائهم، صارخة في وجوههم وملء أسماعهم، تكاد تزلزل الأقحاف:

ــ : (اسقوني... اسقوني...)..

والصدى يستثيرهم حارقاً أعصابهم، والعجز يكبّلهم، وياله من ترتيب خارق، فغريمهم الشخص ذاته..!...، والطيور تملأ جوانحهم إلحاحاً، فهل ينتهي الأمر إن قتله أيّ منهم..؟!.. أم يتحتم عليهم كلهم أن يفعلوا ذلك..؟!..، وكيف يتسنى لهم هذا..؟...

دار الخاطر في فكر توفيق، فانشغل به، لعله يهتدي إلى قناعة، قبل أن يشرك الآخرين بما يئز في رأسه.

وما فتئ إدريس الحكيم يهوّن على المفؤودين؛ المسدودة آفاقهم بتضخّم ويلاتهم، وقد تفتت تماسكهم، فطفق يشد أزرهم مردداً:

ــ : كل شيءٍ يبدأ صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر.

نشجت (آية) ملتاعة، وهي تمسّد بطنها المتكوّر، متمتمة:

ــ : إلا مصيبتي أيها الحكيم... إلا مصيبتي..

ولم تكن قد بتت بأبوّة جنينها، برغم زعمها أنه ثمرة زواجها، ولعلها رغبتها فحسب. فما استطاعت أن تؤكد ذلك لإبراهيم، مصرّة ألا تظلمه، فدفعته دون أن تدري إلى حتفه، كي لا تغشّه..!...

وظلّت نهباً لتمزق مؤلم. حاولت مواساة نفسها والاقتناع أنه جنينها وخاصتها، ولكنها ما فتئت تحسّ أن تصالحها مع نفسها هزيل، يغشاه شك كبير في إمكانية إحلاله..

ونضب صبر رشاد المتزن، فاقداً السيطرة على غضبه، فشتم لاعناً، واتهم الحكيم بالهرطقة، وسأل بتحدٍ:

ــ : دلني على واحدة من مصائبنا؛ صغرت مذ اقتلعونا من أعقار بيوتنا..؟..

رمقتهما الجدّة نور وهي تمضغ لعابها، مؤثرة الصمت فلا تؤيّد أحدهما، برغم أنها لا تخالف حكمة الحكيم، وتوافق رشاداً على حجته، بيد أنها كانت واضحة فيما أبدته حيال قول قمر:

ــ : ما نحن فيه ليس هو ما نريد، وما نريده ليس محالاً، والمحال أن نقبل امتهاننا، ونحن سجناء هذا العراء، فما نحن بأسرى، ولسنا لقطاء، أو أرقاء، ولسنا غباراً في هذه الحياة، فعلام يصرّون على نبذنا، وأن يكونوا نخاسين..؟!..

ــ : لأنهم الأقوى أيتها الطفلة..

ــ :بل لأننا نقابل سفالتهم بدماثة.

قالت الجدّة نور داقةً الأرض بعصاها:

ــ : خاسرون... خاسرون...

ولعل ظهور موكب الوجهاء عائداً من المدينة، أسكتهم وفاقم توتّرهم في

آن، فهبّ كثيرون في استقبالهم، وبرغم أن هيئاتهم أوحت بخيبتهم، فإن رغبة الاستفسار خضت القلوب، وخشيتهم من قسوة نبأ الإخفاق أرتجت الألسنة، فلم يسأل أحدهم عن النتيجة برغم اللهفة، حتى اخترقت الجدة نور هشاشة حُجبٍ يحاولون اتقاء الصدمة بها، فسألت ممتعضة ساخرة:

ــ : هه.. أَخَرَجَ الوالي إلى الصيد ثانية يا عبد الحميد..؟!...

ــ : لا.. إنما هو مشغول، عنده وفد مفتشين من الأستانة.

ــ : لو كان الكذب إصبعي لقطعته يا عبد الحميد..

ــ : لا بأس يا أمي، فالصدق مثل الحق، يشبهان الوردة التي لا تبدّل ثوبها الوحيد..

ثم امتطت صهوة فرسها وأردفت:

ــ : لعله يسمعنا على نحوٍ أفضل بوجود الوفد.

دارت الفرس حول نفسها دورة كاملة، ثم ثبتت قبالة الجدة نور، ونادت:

ــ : رشاد... نعمان، أيها الحكيم إدريس، وأنت يا سليمان، سنذهب إلى الوالي في الحال.

هرع الصبي حمزة هاتفاً:

ــ : خذيني معك يا قمر..

نظرت إلى من نادتهم وقد مطلوا بردّهم، فقالت:

ــ : يبدو أنكم تحبّذون انتظار عودتنا أنا وحمزة..!...

هتفت الجدة نور:

ــ : سأكون معك، ويكفينا عن الرجال هذا الصبي...

حثّت الصبي أن يصعد العربة إلى جانبها، قائلة:

ــ : قمر.. هيا بنا..

اقترب الأومباشي وهمس لها:

ــ :يقولون إن الوالي لا يردّ لأمه طلباً، فلو ذهبت إليها...

هزّت رأسها بحركةٍ لم يفهم معها أوافقته أم أنها لم تكترث باقتراحه، وما إن تحركت العربة حتى اكتملت كوكبة من اختارتهم قمر، واتجهت إلى المدينة، وعزيز خلفهم ينادي صائحاً:

ـــ :خذوني معكم. لدي ما أقوله للوالي يا قمر...

ثم تبعه آخرون، دفعتهم حميّة ورغبة لفعل شيء غير الانتظـــار الممـــل، ومنهم من مضى اقتداءً بالجميلة قمر أخت الرجال، أو تأثراً بشخصـــية الجـــدة نور، وبعضهم سعى إلى واجب من المعيب أن تسبقهم إليه نساء..!...

خرج الوجيه عبد الحميد عن الجماعة، ميمماً وجهه شطر النهر،عاقداً يديه خلف ظهره، راكلاً الحجارة بقدمه، وعلى مبعدة كان الوجيهان رجـــب وعبـــد المجيد يتبعانه، وهما في خلخلة الخيبة، خلع عبد الحميد نعليه، وغمس قدميـــه في الماء. حركهما ومسّدهما بتؤدة، ثم غطّهما، لعل ورمهما يخـــف، وعســـى الصداع يهدأ، فرأسه يكاد ينفلق. إنه يتجرّع الهوان ومرارة الخيبات المتعاقبة؛ قاسية الظروف وحرون، فلقد ضعضعت أبّهته غير مرة، كما هزّت زعامتـــه عنيفاً، تكاد تقذف به بين العوام، وأيَّ زعامة هذي التي لم تقف وقفـــة متكاملـــة منذ بدء المسير..؟!!...

ومن على بعد خطوات بادره الوجيه عبد المجيد:

ـــ : أتوصّل كبيرنا إلى ناتج ضرب أخماسٍ بأسداس..؟!...

أحسَّ بما يشبه الصفعة على قفاه، ولم ينبسِ ببنت شفة، وجلس الوجيهـــان على مقربة صامتين، ثم فاجأ عبد المجيد سائلاً:

ـــ : ماتراك فاعل إن أتى الفرج على أيدي المرأتين..؟!..

خبط رجله في الماء، دون أن يكلّف نفسه عناء الالتفات، لكأنه اكتفى بمـــا فعل جواباً لسؤال رديء اللباقة، فصاحبه لا يقيم وزناً، إن أتى حديثه فجاً يعكّر المزاج، فقد اعتاد تسمية الأشياء بمسمياتها، وهذا في عرف عبد الحميد عـــرف عبد الحميد نقص خبرة، إذ حريّ بالوجهاء أن يستخدموا لطيف الكلم، في أشـــد الظروف حلوكاً؛ بحيث يُخرجون الأفعوان من حجره بحسن الملافـــظ وطـــلاوة اللسان، وإلا فهم والرعاع سواء بسواء.

ـــ : وأين كان لسانك إبّان لوص الضابط عثمان..؟!

ـــ : دعونا من سيرة إبليس.

ـــ : أين هو يا ترى..؟!..

ـــ : جنيٌّ هو، قد ينبط أمامنا الآن من هذا الماء..

تنهدّ رجب وقال:

ـــ : أشعر أنني تعبت ومللت. ليت الفرج يأتينا ولـــو علـــى يـــد عبـــاس الممسوس.

ـــ : فيصبح وجيهاً ويأنف منا الناس...!!

ـــ : إنني أتنازل لـــه، أُقسم على ذلك. كفانا رياءً. الـــوالي تجاهلنـــا ولـــم يعرنا اهتماماً.

ـــ : كأنك مُسست يا رجب..!!.. يبقى والياً لا يلج بابه كلّ من هبّ ودب، ونحن في حاجة أن يرانا بكلتا عينيه، اذكر ذلك ولا تنساه...

ـــ : وأنت.. انظر حولك. ما زالوا يأتوننا للفرجة. واليأس أخذ من ناســـنا كل مأخذ..

ـــ : انتبه إلى شأنك أولاً، ودعك من شأن الناس.

ـــ : هذا كلام يغيظ الحمار. أتحسب أننا ملكناهم أقناناً..؟!!..

ـــ : أتقول ذلك لأنّ أمك تدفع بابنك إلى مكانتك. أم أنك حقاً جننت..؟!..

ـــ :أقسم .. أن فيك قيصراً مخبوءاً.

ـــ : هوناً أيها الملاك.. ولتسسنا أمك على هواها، وإنني إخالهـــا تحســـب نفسها مثل (كاترينا العظيمة)... !..

ـــ : ولم لا..؟!.. وإنني أدعوك أن تفرغ لها ما ضاقت به حوصلتك...

ـــ : عبد المجيد.. صاحبك يخرّف. خذه وامضـــيا كـــي لا أقـــول مـــا لا يرضيكما...

ضرب عبد المجيد كفاً بكفٍ قائلاً:

ـــ :وا أسفاه.. ضعنا ما دمنا ثلاثة فقط.. ولا نتفق...

ـــ : ياويلنا إن لم نتفق يا عبد الحميد...

ـــ : رجب... فلننس لحظات كان الشيطان خلالها بيننا. ولا تنكر البتة أنّ الوجاهة رأس مالنا..

ـــ : حسنٌ... مازال في صدري متسع.. سنتركك عساك تراجع نفسك.هيا بنا يا عبد المجيد...

تركاه وابتعدا. هبّ وشرع يصلي. واقترب عبد المجيد من رجب وقطـــع حبل الصمت الذي طال بينهما:

ـــ : كم أخشى ألا يكون حالنا أفضل مما رأيناه من أحوال أهل المدينـــة. شيء يخوّف..!..

ـــ : وصاحبنا مستعصم بالوجاهة ولو في مقبرة..!..

ـــ : وما العمل..؟! لا نستطيع شيئاً كما ترى..

ـــ : يخطر لي أن نتمرد ونعلن العصيان؛ نمسي قطّاع طـــرق ـــ جتـــا ـــ نشلّح الجندرمة... نكمن.. نغير... نسلب العسكر؛ والضبّاط منهم علـــى وجـــه الخصوص...

ـــ : فنحقق للضابط عثمان ما أراده لنا..!.. ونضع بين يديه مبرراً لتعليقنا من عراقيبنا. ما الذي دهاك يا رجل..؟!..

ـــ : اسودّت الدنيا في وجهي. ضاقت بي. لِمَ لمْ يقابلنا الوالي..؟!

ـــ :ربما لإيصالنا إلى ما قلته، وربما لغاية ألعن وأنكى.

ـــ : أوضح كي لا يتفجّر رأسي أو أُجن.

ـــ : لله درّك أيها الشاعر نعمان..

ـــ : نعمان..!!

رفع حاجبيه ولوى رأسه كناية ـــ بلى ـــ ودندن بصوتٍ أجش:

ـــ : "مع أننا خسرنا الكثير... فنحن لن نخسر إنسانيتنا أبداً...".

أطرق رجب لحظات، وجبينه يتفصّد عرقاً فـــاتراً، ثـــم اختلجـــت شـــفتاه وانضبطت حركتهما مع حركة شفتي عبد المجيد، فسمع لنفسه دمدمة، وما لبث أن انطلق صوته واشتد، فحثّ خطاه نحو الرجال والأطفال والنســـاء، فجـــاراه بعضهم على مهل، ثم ارتفعت أصوات غفيرة، والتمعت في العيون مواشير من دمعٍ عصيٍّ على التفسير، عكست في المآقي ألوان الطيف، وسرت فـــيهم مثـــل العدوى موجة انعتاق، رفعتهم.. فإذا بهم وقوفاً؛ وأعنـــاقهم مشـــرئبة صـــوب الشمس.

تحمّس الأومباشي فأنشد معهم منتفخ الأوداج، ثم انتبه أن الشيخ الإمـــام يرمقه، فهرع إليه وجلاً وسأله:

ـــ : مولانا.. صفحك إن أخطأت...

ولاح على وجهه طيف ابتسامة، وبرقت نظراته جوّالة، ووضع سبحته فـــي جيبه، وردد منسجماً مع الصوت الجماعي، فانخرط الأومباشي في الإنشاد، وألفى

هوريك تشارك بصوت عذب رقيق. تقدم بعضهم فتحرّك جمع في أثرهم، ومضوا متابعين إنشادهم، غاسلين قلوبهم من هباب الكبت، سالكين الطريق إلى المدينة.

ــ : يالغواية الغوغاء..!...

تنبّه عبد الحميد إليهم، فتوجّس نذير مالا تُحمد عُقباه فهتف:

ــ : نشاوى بما قاله نعمانهم، ولم يفطنوا لما قاله الآخر:

"مادمنا ربحنا المعركة... فلننسَ الخاسر..".

وثب مثل فهدٍ يتحدى كهولته، وجرى بكل ما يختزنه جسده من طاقة؛ عزّزتها غريزة البقاء وشعور الخوف، مشحوناً بخطورة وقوعهم في براثن الجندرمة، وقد أفرطوا في حماستهم وهم بهيئة متذمرين، دونما كرّة إلى عقل،غافلين عن ضراوة الضبعان الهرم وشراسته، وهم لا يدرون أن "يلدز. وجارٌ بقدر ما هو قصر منيف..!..

ناولته (آية) رسن حصانه، فقفز إلى صهوته كما لم يظن بنفسه، وراح وراءهم كالريح، وبذل جهداً لثنيهم عما هم فيه، فلم يأبه أغلبهم له، حتى رجب ما استجاب ولا أبه لندائه، بيد أنه لم يترك عبد المجيد إلا وأخرجه من بينهم على مضض:

ــ : لِمَ خرّبت انسجامي...؟!..

ــ : جعلتك تصحو من سكرتك؛ كي لا تخرّب كل شيء.. أوقف أولئك الثمالى، قل لهم أن يرجعوا...

نظر نحوهم فألفاهم يهدرون، وأعاد نظره إليه وهو يهزّ رأسه باستحالة تلبية طلبه.

ــ : أعدِ الأهوج رجب على الأقل.

ــ : رجب في أوج نشوته. صعب.

ــ : أومباشي ... أعدهم، أيها الأومباشي..

ــ : ليسوا عسكراً. صعب ــ جاتين ــ يا سيدي، يعفسونني بأرجلهم..

ــ : مولانا. مابك تقف كشاهدة قبر..؟ أثبهم إلى رشدهم. استخدم منزلتك عندهم، دع جبّتك وعمامتك تفعلان شيئاً فالأمر حرج.

مضى الشيخ هامزاً بغلته، منادياً بصوته الصداح، والأومباشي في أثره، وجلس عبد الحميد لاهثاً؛ يمسح عرق جبينه، وقد انسرب في شعيرات حاجبيه

متقاطراً إلى المحجرين، فاقترب عبد المجيد وقال:

ــ : ليتك ترفع العصابة السوداء عن ناظريك، فقد يربح رجب الجولة...

ــ : هيهات..! وسنرى إن كان سينجو من بطش الجندرمة، أم أنك مجنون مثله، تحسبهم يتلقونه معانقين..؟!..

ــ : لم أعهدك يئساً مرعوباً كما أنت اليوم..!..

ــ : لو كنت تدري يا صاح..!، يا لشناعة ما عرفت ورأيت في الأستانة..!..

ــ :أفضِ لي بما في صدرك فترتحْ. إنك ترهق روحك بتكتمك..

ــ : آخ... يا عبد المجيد وآه.. من علة العلل وداء الأدواء..

ــ : وما ذاك؟!... قل. تكلم...

ــ : هو الذي يصمّ آذانهم، ويعمي قلوبهم عن سواهم أجمعين..

ــ : بلا ء عويص..!...

ــ :فلنحذره مبتعدين عنه إلى يوم الدين. وصيّة احفظها عني يا عبد المجيد.

ــ : على رسلك، ولنفعل شيئاً قبل أن يفلت الزمام.

ــ : إلامَ نظل نرتق ونرقّع..؟!..

وقتئذٍ خرج الوفد من عند الوالي، مودّعاً بحفاوة لم يُستقبل بمثلها، فقد تركهم ينتظرون فينة، وهو (لاهٍ) بمداعبة قطط مختلفة الألوان والأحجام، يُخرجها من قفصها، فتموء وتتمسح بساقيه لاعقة نعليه، مغمضة عيونها مسالمة متمسكنة. فرقع سوطه فأتته زاحفة، تدفع رؤوسها في الهواء الملامس وجه الأرض بتؤدة، ثم فرقعة ثانية فزحفت عائدة إلى القفص، لكأن فأراً سلبها طعامها، مستغلاً حلمها وضبط نفسها عن سفاهته وطيشه...!...

التفت نحو وجهاء الحي قائلاً:

ــ : مطيعة مؤدّبة كما ترون، فكيف لهذه المخلوقات اللطيفة الأليفة، أن تكون عدوانية، تهاجم زغاليل الحمام و"تمليات" الطعام...؟!.. فلا هي ضالّة ولا عيونها شاردة، وقد ربيتها فتأنّست طباعها، ثم: "إذ جاءكم فاسق".. وهذا ردّي يا أوادم..

استدار مفرقعاً سوطه ومضى، فأُسقط في أيديهم، تمتموا منكفئة رؤوسهم

على صدورهم، يكاد العسكر يدفعونهم، وهرير كلاب الوالي يفزعهم، فأُخرجوا شبه مطرودين، مطعونين بصدق ما نقلوه من شكاوى الناس، وما كادوا يصلون بيوتهم حتى سبقتهم إليها القطط. وقد فلتها الكَلاَّبُ في عقبهم، فعاثت في مطابخهم وأبراج حمامهم وخممة دجاجهم بطشاً وفساداً..!

ثم إنه رافق الوفد إلىعتبة الباب، وصافحهم منحنياً للجدة نور، وشدّ على يد قمر، مبحراً في لجج عينيها، مأخوذاً بألقهما وبريقهما الفتّان، ففيهما نمٌّ ببهتان وبيان، ومزيج خدر النشوة مضمّخاً بسحر بوح الخلوة والأحلام، ويا لصيحة الديك فيهما، منبّهة للاغتسال بفيوض عمقهما الدافئ، في غير حالٍ موجبة؛ قبيل انبلاج الصبح؛ وانقضاء وقت الأذان..!..

ــ : (أكنت اهتديت إلى هذا الضلال الشّفيع أيها الضابط اللوذعي..؟!)..

وقف وسط القاعة يعيد ترتيب فسيفساء حديثها، وهو كافٍ شافٍ بوشيه ومعناه:

ــ : وأنت على رأس الولاية، فإنك الدولة أيها الباشا، أو ليس على الدولة تأمين الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم..؟! لا أذكّرك ــ حاشا ــ بما لا تنساه، ولا أطلب ما لستَ تمنعه عن الناس ــ ونحن فيهم ــ إنما أسوقه لأنه يليق أن نرفعه إلى مقامك الرفيع، فسمّو خلقك يأبى لنا أن نذهب إلى وضيع ابن وضيع، لا يستوجب وجودنا في كنفه.

داخ بهذا الصوغ، وبهت بدررٍ انحكم نظمها بلسان الجدّة، تلك المهيبة الودود، فجعلته في حضرتها يشعر بصغره، فحنَّ إلى طفولته، يتشهى غفوة في حجرها الطهور، فيسمع مثل الذي سمعه منها بعيد دخولها وصحبها عليه:

ــ : مادمت تحب أمك، فلا تهن أمهات الآخرين، لسنا طمعاء، وماء وجوهنا ثمين، ولشدّ ما يؤرّقنا المصير المبهم، ويريبنا الصمت المطبق عمّا حلَّ بنا..

هتفت نفسه وطيف الضابط عثمان يتجسد في خياله:

ــ : (لِمَ هذرت مبالغاً بما وشيت عنهم وهرفت..؟!...).

قضت قمر طريق العودة مفكرة كيف لم يتح لها معرفة شيء عن كمال، ولم يفتها اهتمام الوالي بها، بل أحسّت بخلجان عينيه، ورجفة دالّة في يده لكنها تأنف من رجل يكاد يندلق من نفسه متهافتاً؛ وبالآن ذاته يتدرأ بجاهه، متوقعاً زوغان عيني ناظره بلمعان "نياشينه"، فلا هو جريء صريح، ولا متماسك

معتد.

وأمضى الصبي حمزة وقته وعيناه تتقافزان، تحطّان على ما يتشهى من أطعمة وحلوى، سال لعابه لهما، وتمطّق كاسفاً، ثم طاش بصره، بحثاً عن وجهٍ ليس يتوه عنه، فإن رآه، جعل ضيف الله يرتاح في مرقده، إلى أن يوقظه النفخ في الصور. وبقي رشاد شارد الفكر ساخطاً، إذ لم يتح له أن يفشّ خلقه بكشف فظاعات ذاك الألعبان، والباشا في شغل شاغلٍ بقططه المدلهات..!...

وبقي نعمان منقبضاً من حذر الباشا وعدم ارتياحه له، إثر معرفته أنه شاعر..!.. وحدس أنَّ الكرسي يجعلهم كلهم سواء...!..

وبدا إدريس الحكيم هازئاً، وبسمته المائلة عند طرف فمه تقطر سخرية، لاهتمام جنابه بالهررة أكثر من سواها، لكأنهن أوْلينه أمرهن..!... وانتبه أثناء خروجهم أن وجهاء الحي والناس من حولهم في خيبة، فالباشا نصر قططه عليهم إذ كذّبهم، فتأكد لهم أنها ستظل عابثة بأرزاقهم، مادام يغض الطرف عن أفاعيلها، ويتقوّل بوداعتها، والويل لمن يتجاسر عليها من حرّاسها..!...

وكان سليمان مستغرقاً بمدى سلطة الوالي وعلوِّ مرتبته، مفتوناً بفخامة قدره، وانصياع الناس لأمره، أُبّهة استحوذت على مكمن طموحاته، وشغفت قلبه بالمطامح، بيد أنه استأنف تقبّض تلك الأبّهة أمام هيمنة قمر المبهمة..!...

أما عزيز... فمبتهج لأمرين... أولهما أن الوالي صافحه، شأنه شأن الحكيم إدريس، ثم إن لديه ما يسر الباشا ويُدخل البهجة إلى قلبه. ألم يمضِ معظم الوقت متحدثاً عن اسطبلات خيل أهله، واهتمام أسرته بها كابراً عن كابر..؟!.. إذاً سيعرف قيمة حصان من خيول "كباردين" قويّة التحمّل، ولا يريد أن يخمّن فيفسد متعة الترجي، ففي انتظار ما لا يتوقعه، نشوة لا تدانيها متعة الحصول على شيء سبق أن حدده، وقد يفكر بطلب دون ما نوى الباشا مهاداته، فيزفّ إليه ما يفوق تمنياته، برغم توقه إلى جعله "جاويشاً" أو لم يسارره الأومباشي أنَّ "البرطيل" بات يقرّب البعيد ويكبّر الصغير، ويفلّ حديد المستحيل، في هذا الزمان الأعوج..!..

كانت الجدّة نور ترمقهم مشفقة، ففي زمنهم الشاحب هذا، اختلط محّ البيضة بآحها، وأمسى أوغاده في علوِّ أشرافه، يتقلبون في أعمال السلطان وفي نعمائه، يبسملون باسمه ويعملون أيديهم في مقدرات الخلق..! ومهما يكن فقد سُفحت مياه وجوههم دون المأمول، وليس في الميزان قسط وماهو بقسطاس، أولم يرجّح مخالب قططه على ألسنة الناس..؟!...

ـــ : ("خاسرون... خاسرون...")..

وكان الفتى السِّكيت لمحهم من خرمٍ جعله في خشب الشباك العالي، يـــرى خلاله ما يروّح به عن نفسه، وقت يتخلّص من تلك العلقة الشبقة، ولمحهم ثانية عند خروجهم من دار الولاية، خلال انشغالها مـــع "الحفّافـــه"، فنكســـت قمـــر صيرورته نكساً، وهو يقارن بينها وهذه المدوّدة التي لا تكتفي، فلا تضمّ فخذيها بعضهما إلى بعضٍ، مادامت يقظةٍ؛ وقلّما تنام..!، وصار ديدنه معرفه ســـبب قدومهم إلى الوالي، برغم أنه خمّن فأصاب دون أن يدري، فوراء نفاذ المسمار في الجدار الصلد، مطرقة تقرع رأسه، ولم يكن صعباً عليه الوقوف على حقيقة ما آلوا إليه، فإن كان الوالي ماردا، فأمّه القمقم، وسرّ القمقم عنده وبيده، ولديـــه ما يضمن أنها ستقوله له:

ـــ : (شبيك يا عصفوري ... لبيك...

ـــ : يجاب طلبهم دون تأخير...

ـــ : أمر فتاي.)..

سيحرف الوتيرة بعدما استمرأت تقصي لذة مصّ قصب الســـكر، وسيشـــدّ وتر القوس إلى ما دون التقطّع، فيتركها على السفح قبيل القمة، ويظهر نفـــوراً دونما عجز، ويدفعها لتهذي، فيشترط فترضخ وتوعز للباشا فيلبي، كـــل ذلـــك بصمت أيها السِّكيت، فلا يعلم أحدٌ من قومك أنك خدمتهم وقد ظلموك...

****

ولم يستطع الوجيهان إيقاف جحافل الناس، إلا أن ظهـــور كوكبـــه الوفـــد سمرّهم وأسكتهم:

ـــ : أقابلتموه..؟!..

ـــ : بلى..

ـــ :وهل أجاب طلبكم..؟!..

ـــ : لا..

ـــ : إذاً رفض.

ـــ : لم يرفض.

ـــ : ألغزٌ هذا أم هو أحجية..؟

ـــ :أمّلنا ولم يَعِدْ. لكنه ماقطع رجاء..

ـــ : "طيط"..!..

بهذه اللفظة اختصر لقمان تقصّف رجيّة بخلاصٍ طال انتظـــاره، انتظـــار نبتٍ لمُزَيْنَةٍ تنقذه من يباس محتوم، فقد افترسهم القلق، وعدم الاطمئنان إلى غدٍ علاه الصدأ سلفاً.!..

كان على الجدّة نور أن تتكلم طويلاً، لعلها تســوّي انكســارات نفوســهم، وترأب تصدعاتهم المتوالية، وبالوقت ذاته تصدّت للوجيه عبد الحميد وتهكّمــه، تشفياً منهم، ولعله شامت مرتاح في أعماقه، فهذه أسوأ من إخفاقــة، ولا مزيــة لأحدٍ عليه، بيد أنه تألم وأحسّ بثقل الخيبة الشاملة، إثر فشة الخلق الأنانية، وقد دملت خدوش كبريائه، وهاهو وإياهم يدخلون ثانية برزخ الانتظار، حيــث لا سحر ولا شفق..!..

ودعا بعضهم إلى اقتباس فكرة الوجيه رجب، فيعلنون التمرد والعصــيان، ويمسون ـــ جتا ـــ يستهدفون الجندرمة والعسكر، وذهبوا يستقطبون من راقــت لهم الفكرة، والذين اقتنعوا أنهم رهائن الطريق المسدود، ومــاهي إلا ســويعات وينطلقون مع قدوم الليل...

وحده عزيز في برج لا يشاركه فيه أحد، فما زال منذ عاد يــدور حــول حصانه، يعلفه ويغسله مرة إثر مرة بماء النهر، وقد تخيّل الباشا ممتطياً صهوته إلا أنه أحسّ بالحرج، فالسرج عتيق لا يليق بمقام الوالي، ثم وجد الحل بســرج حصان إبراهيم، فالرجل تركه ومضى إلى حيث لا يحتاجه، مثلما ترك أشــياءه الأخرى و.....! ياللصحوة...! كيف غفل طوال الوقت عن هذا..؟!.. لا داعي للتفكير بسرقة السرج المطهم، مادام السبيل لامتلاكه وسواه ميسور بالحلال...

ـــ : (شهامة تسجل وتحسب لك، ثم لا تكون لطّخت سمعتك بسرقة.).

حدّث نفسه بهذا ثم سارر قمر:

ـــ : أتحبها ياعزيز..؟.

ـــ : (....)

فراستها أغنتها عن الجواب جهراً. لم تستنكر طلبه؛ لكنها لم تستسغه، فهي مخلصة لعقيدتها، بأن ينبثق الشعور من أغوار النفس، بغضاً كــان أم حبــاً، و الحب دون سواه ليس موضع مساومة.

ـــ : ساعديني يا قمر..

ـــ : أعرف رأيها فأخبرك..

ـــ :كوني في صفي..

ـــ : لست ضدك..

ـــ : أبلغيها أن وليدها سيحمل اسمي؛ إن رأت في ذلك ما يطمئنها.

ـــ : قد يشفع لك هذا العرض عندها، لكنه يمغمغ شعورها نحـــوك، فمـــا بغيتك يا عزيز..؟!

ـــ : الستر.

ـــ :إذن اذهب إلى الجدّة نور، فهي أجدر بهذا الأمر..

ـــ : قمر ..!!..

ـــ : لو كنت محباً لما قصّرت معك. ثق يا عزيز.

ـــ : (جحّشت ولم تجد اللعبة، فهذه قمر يا ولد..!..).

برى لسانه ونمّق كلامه، فوصل إلى إقناع الجدّة نور بأن تعرض طلبـــه على (آية).

ـــ : (أجدت المراوغة يا ولد. ستصعد، وسيلمع نجمك ويســـطع. امخـــر هذي الحياة وعبابها المصطخب، بحّاراً أو قرصاناً، فإن لم تقدر؛ داورها وافعل على منوال الثعلب، خذها من حيث أدبرت، خير من أن تموت كما ينفق جـــرذ، وخير من أن تبقى مثله، احرص وتكتّم، ولا تفلّ خيط خطتك حتى لأمك، فتسلم ولا تضعف لرجاءٍ لها، أو نصيحة حرصها عليك، وتنجـــو مـــن شـــر حاســـد ومتطفّل، فلا ينافسك أو يقلّدك كسول أو مقتبس. فزْ وحدك وانفذ بجلـــدك، كـــن جسوراً واخرج عن السرب الهالك، واحذر الكثيب المهيـــل، لا تقعـــد مادمـــت عزمت، واسبح مادمت قادراً، فأمر سفينة نوح لن يتكـــرر، وعبـــث أن تضـــع رأسك بين الرؤوس في المخنقة، وما حكمة أن تفنى معهم، أو ليست كل شـــاة من عرقوبها تعلّق.؟.).

اشتدت حرقته مستعجلاً، ولكن "ربّ عجلة وهبت ريثاً"، فأبطات آية ردّها وفي نيّتها ألا تردّ البتة، لكنها تحت الإلحاح قالت:

ـــ : دعوني ريث أن أضع مولودي بسلام..

وتعمّدت جلبهار أن تلتقيه، مبدية ارتياحها لعدم استجابتها، وغمـــزت فـــي قناتها، ولمّحت أنها لن تتذرع لو طلبها، فهي لا تنتظر مولوداً، فأطرق وحدس:

ـــ : (ولا تملكين نظير ذاك السرج، أيتها الجسورة الجميلة...!)...

ومضى مسوّغاً لنفسه سرقة السرج، دفعته (آية) إلى الفعلة دفعاً، وشعر أنَّ ذنبه بات نصف ذنب، وفي البكور أسرج حصانه، ونخره بمهمازيه في طريقه إلى المدينة، والرؤى ترفرف في خياله كأسراب طيور بأجنحةٍ ناعمة.

ثم إن أموره سارت دونما إبطاء؛ إثر تدخّل الخانم الكبيرة، ملبية طلب فتاها، على أنها سمعت أخبار أولئك الناس، في حفل استقبال نساء "آل فستق"، وهي تجد في ذلك فرصة ليدٍ بيضاء تسديها، سبّاقة لفعل الخير، فتمسي حديث المدينة، أكابرها وسكان حواريها، كما أنه فعل يشفع للوالي لدى علية القوم والدراويش على حدٍ سواء، وطلبت أن يوعز لخطباء المساجد في أن يأتوا على الإشادة بذلك، ثم إنها استعجلته ليصدر "فرماناً"، فيسكنون خاني (الصابون وقرطبة) وبعض المساجد القريبة،إضافة إلى دور المياسير الزائدة عن حاجتهم، ريث ينتهي بناء القرية، فذهب مشياع الوالي يشيع أنّ جنابه تكفّل إقامتها من كيسه الخاص، على أرض "الجفتلك" فضلة خيرات عظمة السلطان، ابتغاء مرضاة وجهه قربان اسمه، وهنيئاً لفاعل الخير..!

وحين شيّع أمّه الخانم بحفاوة ملتمساً رضاها، لمح عزيزاً يكافح الحرّاس ليصل إلى باب دار الولاية، فأمر أن يفسحوا له، وفي حقيقته أن يفسحوا للحصان وقد بهره، وأزاغ السرج النادر بصره، فقبل الهدية، وبات عزيز عزيزاً، فقرّبه وضمّه إلى مجلس سمره، يحدّثه عن الخيل وأحوالها، فلا يملّ سماع سيرتها، وصار عزيز كبير السّواس الخاصين.

*****

15

زِد الجرعة وأضرم النار، أشعل كدس الحطب هذا واجعله جمـــراً، فهـــو غير ذي نفعٍ إن لم يضطرم، وسقر دائماً موقدة، تطلب المزيد كـــي لا تـــتفحم، وإنها أدركتْ هذا فلبت طلبك، وهي طوع أمرك ما دمت تـــذرّ بخـــورك فـــي مجمرتها، وها هم ناسك حلّوا في المدينة، يتســـكعون فـــي ســـاحات خانتهـــا، ويتشمسون ورعين في صحون المساجد، ومنهم من أحـــاط بزنجـــي مســـربل بالبياض، فعانقوه ولثموا أهداب ثوبه على أنـــه ((بـــلال المـــؤذن))!، وكـــانوا يتقاسمون سراً غنيمتهم لليلة البارحـــة، ولعلهـــم اســـتمرؤوا تشـــليح العســـكر والجندرمة، يتشاورون في معاودة الكرّة، وتلك هي الجدة نور توزع الصـــابون على النسوة في زنابيل، فقضين سحابة نهارهن في الغسيل والاغتسال، تـــنظفن وقمر بينهن في حمام السوق، أيها الضالع بقتل نفسك، المفرط بتعـــذيب ذاتـــك، أنت أكثر من يدرك ضياء قمر–إن تنظفت– كسطوع النجم، وسائر النسوة مـــن حولها كواكب فحسب، يمور هذا في أعماقك، ولست بناكر، ولكنـــك مجـــاكر، تسوم ذاتك عذاب الشرك، مذ جعلت الآفة المتلاف شريكة للتي لم تبرحك منـــذ احتلت كيانك..! تهذي معللاً أن الجسد لهذه بينما الروح لتلك..!.. وتعـــرف أن هذا لغو تجترّه متيقناً أنه هراء لا طائل منه، ولا مندوحة لك عما سبق وأعلنت بصدق، بأنه في الروح يسكن الجسد.!. !كفاك تخريفاً إلى هذا الحد، يا طاعنـــاً نفسه في النحر، قم للتو كافئ المتصابية فقد جننتها في الليالي الخوالي، أنشـــبتَ فيها الحرائق ولم تهمدها، استسرتك ليس لتمنع عنها ما يهمها، فلا تتمادى، فهي على قاب قوسين من القتل بجنون، لا تخف من ناسك فقد أضاعوك، ولست من همومهم البتة، فهم في زنقة، وإن يكن الوجهاء وأتباعهم أقل ضنكاً وقد كنـــت منهم، وقلَّ أن شغلتك اللقمة، برغم هذيانك المتواصل، أن الأهمَّ ينقصك، فهـــل وجدته..؟!..

أيها الأفّاق لا تتكر..!... أما زلت تستنكر فعلات الأومباشي.؟!..

راقبته مراراً يركن إليها في مربطها، مرةً وأحياناً مرتين في الليلة الواحدة، ولعلك تسترجع كيف كان تبرمه مما يفعله ليلاً، وما يفعله في ليله تنفيث عما سئمه نهاراً، يتفانى منفّذاً الأوامر هرباً من عادته الليلية، حين ينحو إليها لائذاً من ذل النهار، ويتمسّح بأذيال الشيخ الإمام تطهّراً من رجسه، ومما تراه عيناه ولا تصل إليه يداه..! ماعدت مستنكراً حالته، وصرت ترأف به على أنه مسكين، كأنك لمست عنده بعضك، أو وجدت فيه القرين..!!... أم أنكما أقنوم واحد في جسدين..؟!..

لقد عاد الأومباشي العتيد إلى "القشلة"، وبحث عن الضابط كمال، وبرغم حرصه عن خبرةٍ، فقد وقع في براثن الضابط عثمان، فأرعبه بتهمة صلته بالخائن كمال..!... ثم جعله يعترف بما يعرفه عما حدث منذ تركتما مفيض السيل، لكنه للحق تكتّم على رسالة قمر، وتلك هي تنتظر منه خبراً، وأنت أدرى بقسوة الانتظار.

أمتشّفٍ بها؟... لست بحاقدٍ؛ وإنما طيب جداً، وجبان وعاجزٌ تماماً عن إسعافها.!.. سكّيت أنت، وهذا أوان الصمت، فأنت في كمين.. أتذكر بغل الساقية؟.. عبرة لا تنسىَ!.. قم أيها المغلول وانظر أمر علقتك الحجّامة؛ صادية هي، اروِها فتشغلك عما في رأسك الطاحون، وابذل لها من دمك تكنز ذهباً، اكنز ما يتاح لك قبل فوات الأوان، ولا تخف من سائل يستوضحك كيف صرت غنياً، فإن سألوك قل إنك هاجرت وتاجرت... وأغلب الظن أنهم سيحسدونك ويغبطونك وينبهرون بجاهك.. وسينسون، فلا يتقصّى أحدٌ مصدَر غناك، بعدئذٍ تجدهم يجلّونك ويتقرّبون إليك، وفي الملمات يلجؤون إليك، ويا لسمائك ما أعلاها...!... أما أمثالك فيغضّ كل منهم طرفه عن الآخرين، ليغضّوا طرفهم عنه، ثم تأتلقون وتتنادون بالألقاب، وتمسون مرهوبين، فلا تأبه مادمت بدأت. أتفكر كيف لك الخروج ــ ذات يوم ــ من هذا الحبس..؟!... وأنت من ندّت الريح ريش جناحيه، فإذا بك طائر لا يطير، وها أنت مثل ديك الدجاج، وكان أبوك من عماد الطير، وحُكيَ أن أمك وضعتك واقفة، وأنها قطعت سرّتك بحدِّ السيف، بينما والدك يطلق على العسكر، ثم تمترست بجانبه وهمست:

ــ : ولد.

وشرعت تطلق ريث أن يراك، فلفّك بمعطفٍ موروث، وعهد إلى كلبه يحرسك، فسحبك في النهر، وظلا يطلقان حتى نفدت ذخيرتهما، فداهمهما العسكر وأحرقوهما والبيت، ثم أخذك الوجيه، وذاك هو وصحبه مهيضة

أجنحتهم، يغلبهم إحساس أنهم فرائس لقُناص يتماكرون، وضاقوا ذرعاً برجال يقدّمون عرضاً مبهماً، برّقوا ورغّبوا واستغووهم، ولم يكشفوا سوى عن بعض غايتهم، فذكروا علية القوم والذهب، وأتوا على ذكر باطن وظاهر، وما انقطعوا عن خاني "الصابون وقرطبة"، بهيئة باعة ومشترين، ومحسنين ومؤنسين، وما أحجمهم الرد وقد صاغه إدريس الحكيم قولاً فصلاً:

ــ : لا وجه آخر لنا، ولو كنا أظهرنا غير ما أبطأنا، لما اجتثونا من منابتنا...

فداورهم أكثرهم مراوغة:

ــ : بضاعتكم ستبور في بازار الأيام، أفيقوا قبل فوات الأوان.

***

حين وضعت آية وليدها، اكتأبت واعتزلت الناس، وغرقت بصمت أخرس، تلقم الرضيع ثديها، مقضوم الحلمة فتستبكيه، لكأنها تعذّب روحها به، وتغطي وجهه كي لا تراه، إنه يذكّرها برعب ما برحت لا تدرك كيف تحملته..! احتضنته هائمة تقتفي أثر العسكر، تحدّق ملياً في وجوههم دون سواهم، تجوب الأمكنة دون كلل، وبقدر ما هزلت ازدادت عزيمة على ما نوت، ثم حطّت قرب "القشلة"، ترقب المدخل، ترصده بعيني بومة، ناوشها العسكر متحرّشين بها، وهي صماء كصخرة، لكنها قبلت من أحدهم خبزاً. ورأته خارجاً يهم أن يصعد عربته الفارهة، فجعلت وليدها على كفيها متقدمة به، ورفعته حتى صار دون وجه الضابط عثمان، أذهله أن يرى نفسه طفلاً؛ فالشبه بيّن بلا لبس..!.. حاول متجبّراً أن يطمس مشاعره ويتنكّر، فسمعها تقول:

ــ : ابنك..

ظلَّ ينظر وحدقتاه ناتئتان، تكادان تهطلان عاطفة، إلا أنه شكم انفعاله وجأر:

ــ : دجّاله.. أنا لا أعرفك...

وكاد يومئ لأتباعه كي يبعدوها، فدلقت ثديها مقضوم الحلمة ونبرت:

ــ : أتنكر..؟!...

ــ : اصعدي..

ــ : أشار لمرافقيه أن يلبثوا في أماكنهم، وساط جيـــاد العربـــة، فراحـــت تنهب الأرض نحو "المسلمية".

ــ : انزلي...

أخذ الصغير بيديه، أدار ظهره وضمّه إلى صدره، كاد يقبّله.. لكنه استدار سريعاً ودفعه إليها فلم تأخذه. وضعه تحت إبطه، وسريعاً أطلـــق النـــار بـــين عينيها، وموضع حلمة ثديها المقضومة. سقطت فاغرة الفم ولم تخرج منه كلمة أرادت قولها، ثم وضع الرضيع قربها، وسدّد متمتماً وقد تشنج حنكه:

ــ : لن يؤمن جانبك إن كبرت، مادامت هذه أمك.

وأطلق... طفق يطلق حتى جعل من رأسيهما شيئاً مقززاً يشبه الخبيصـــة، وقفل راجعاً دون أن يلتفت، ملهباً بسوطه ظهور الجياد فأدماها، ومـــن خلفـــه كانت الغربان تغطي الأفق، والجوارح تحوّم حاطّة فوق الجثتـــين، تضـــابحها الثعالب وبنات آوى..

***

اضمحلّ أمل قمر، وضاقت بها الأرض بما رحبت، حين أعاد الأومباشي رسالتها إلى كمال، وتأكدت مما أخبرتها به "رقوش"، عمّا حدث لعائلته، وهـــي في جملتهم، وقد ضمّتها أمه إلى العائلة، إثر وفاة أمّها مسلولة، معلنة بين نسوة الزقاق أنها ستكون كنّتها، فور عودة الغالي، فهذه الجوريّة قطيفة أحبّ النـــاس إلى قلبها، لكن تدابير شيطانية غامضة أفنت العائلة، وذهبت بنور سراجها.

ومثل حزمة ضوء في عدسة محدّبة، تجلّت في رأس قمر أسباب شـــروده المتعاقب، وعدم جزمه فيما يخصهما، فهذه العنّابية عُقدة لسانه، لجمته أمه بها.

ــ : (أخسرته كلتانا أيتها العنّابية..؟.).

دار السؤال في مخيّلتها وهي ترمق الفتاة، غير قادرة على تحديد إن كانت غريمتها، أم شريكة حظها بما خبأته الأيام لكلتيهما..؟!.. لم تقنط؛ ولم تجد فـــي الإيثار موجباً، ولا معنى لانسحابها، فالوردة الجوريّة تلوثت، وإن كانت شديدة الجاذبية، وأسقطها عسر الامتحان، فـــالجوع والضـــابط عثمـــان يضـــارعان بعضهما قسوة، والحب جبّار رائع وطاغية..!..

ــ : أتتزوجها أيها الأومباشي..؟.. تدلّهك في القادمة من أيامك..

ــ : ولكنها....

ـــ : تكسب ثوابها. أو كنت بلا خطيئة يا رجل..؟!..

ـــ : مريضة يا قمر..!..

ـــ : داوها أيها الحكيم إدريس...

ـــ :ليس فيما داويت مرضاً كهذا، وما وقفت على مثله قـــط. ألـــيس فـــي المدينة أطباء..؟

تلحلح الأومباشي ناشداً النجاة بجلده،وقال هامساً:

ـــ : نحن العسكر نجتاب البلاد طولاً وعرضاً،فنرى العجاب، إنـــه أتـــاوة الفاحشة، يؤدي إلى عواقب وخيمة...عدا الفضيحة.

تناهى إلى "رقوش" هذا الكلام اللاسع، فاستبانت مآلها ومصيرها، ومضت متحاملة على نفسها، غير عابئة بمناداتها، حتى وصلت القلعة، سارت نحوهـــا ناظرة إلى أعلى علوّها، ثم هوت في خندقها، فتراكضت نحوها كـــلاب ضـــالة ضارية.

***

ـــ : وبعد يا قمر..؟!..

ـــ : افعلي خيراً يا أمي نور..

ـــ : تقصدين أن نزوّج جلنار..؟!

ـــ : نعم..

ـــ : وأنت..؟!

ـــ : لن أقطع الرجاء..

ـــ :قد يطول غيابه.

ـــ : إنني جَلِدَة بما فيه الكفاية.

ـــ : ليتنا نبتّ بأمر سليمان وهوريك؛ ونجد آية..

ـــ :سنبّت... وآية ستعود، لا تقلقي، وسنجد هوريك..

ـــ : وماذا أفعل بقلقي عليك..؟!..

ـــ :ستعذرينني إن تصوّرت خيبة الغائب، وقد عاد ولم يجد أحداً بانتظاره.

ـــ :أفهمك ملاكي..

ـــ : ليتكِ كنتِ يا أمي...

ـــ : لِمَ تُقلّب الشموس المواجع..؟!... صه... لا تزيدي حرفـــاً، ولنتـــابع البحث عنهما. أ

تعبهم البحث دون جدوى، ولم يقعوا لهما على أثرٍ، فلا يذكر أحدهم وقـــت اختفاء آية، فقد كانت لفترةٍ حاضرةغائبة، وآخر عهدهم بهوريك، وقت كانـــت تحاور ذينك الشابين من قومها، قدما متخفيين بحثاً عن أبنـــاء جلـــدتهما، ممـــن ذرّتهم ريح الأهوال، وقذفت ببعضهم بين أولاء المهجّرين...

وذكر الفتى حمزة أنها ذهبت معهما، متنكّرة بملاءة حلبيّة، وأنها أوصـــته أن ينقل للجدّة نور قولها:

ـــ : (... وإنك بمنزلة الأم، وفضلك في ذمتي كبير، وحاشا أن أُنكر عظيم جميلك، لكن ماهو أقوى مني ناداني...، أما الغالي سليمان فســـيجد مـــن هـــي أفضل مني..)..

كزّت الجدّة نور على نواجذها مغمضة العينين، وهزّت رأسها أسىً، فـــلا أحد يعرف كم كبتت تألماً، ثم أعلنت تكفّلها بمعيشة من يتزوج في بحر أسبوعٍ، ريثما يجد مصدر رزقه.

شعرت أنها تؤدي كفّارة، فالعتب عليها وحدها، ثم إنها تخفّف عن روحهـــا ضغط غلطة لم تغفرها لنفسها، منذ خالفت قلبها في ذاك اليوم البعيد... البعيـــد، وهو يأبى أن ينطوي في النسيان، وهاهي تلمّ شمل عشّاق وعواشـــق، بـــرّحهم الجوى وسهّدتهم لقمة العيش، وبكت جلنار إذ عُقد قرانها، إثر لوعة أوصـــلتها إلى شفا هاوية...

أرّقهم اختفاء آية وهوريك على ذاك النحو، وضاع ما بذلوه لتخليصهما من ماخور النخاس في عينتاب، وزيد طينهم بلّة بسقوط قتيلـــين ممـــن اســـتمرؤوا تشليح العسكر والجندرمة، مما حدا بالسلطة تحميلهم تبعة ما لحق بـــ"زلمها" من أذى، ثم إنها وزّرتهم مصير أنفار، وُجدوا مقتولين في أنحاء شتى من حـــواري المدينة وما حولها، فأرغمتهم على دفع ديّة؛ سرعان ماحصّلتها خبط عشـــواء، مما تبقى لهم من دواب وأسيافٍ مفضضة وأوانٍ نـــادرة، وتعرضـــوا لابتـــزازٍ مهين، وفي أكثر من حالة ضغطت عليهم ليدفعوا "براطيل"، على أنهـــا تخفّـــفٍ عنهم، فوقعوا ضحايا نصبٍ واحتيال، فتنبّهوا للجور الذي يخنق المدينة عاصـــفاً بأهلها، فالغلاء يثقل الكواهلَ، والتجارة بائرة مشلولة، والضـــغط علـــى أشـــدّه، يُكرههم على التغرّب، مخلّفين عيالهم ومن لا قوة لهم من ذويهـــم، ومحصّـــل الأموال غير مرعوٍ، يزوّر ويقاسمهم رزقهم لكأنه شريكهم..!..، ينهـــبهم دون

وازعٍ، فتنادى حُسباء الحارات، وذهب الوجهاء معهم إلى سراي الوالي يلتمسون فرجة، فحال رجال الجندرمة دون وصولهم إليه، فتسكعوا حيثما قادتهم أقدامهم في المكان ومحيطه.

ــ : أما زالت قططه تسطو على أقواتكم..؟

ــ : أي منها تقصد. الهررة أم...؟

وأشار إلى الجندرمة والحرس المحيطين بالمبنى، ثم لمحوا الضابط قائد الحامية الجديد، يترجّل من عربته بقيافة باشا متأنق، وهمّ أحدهم أن يناديه، واندفع آخر نحوه، كأنهم وجدوا فيه حبل نجاة؛ وفي أفواههم عتب مثل الماء الأجاج:

ــ : (أين هي وعودك يا رجل..؟!)..

وإن هي إلا نفثة المعاشرة على قسوتها؛ اختنقت بين الحناجر واللهوات، لاختفائه داخل المبنى بأسرع مما توقع مراقبوه، وما انفكّوا يرصدون تحركاته ويتربّصون به، فنظر بعضهم إلى بعضهم الآخر، نظرة لومٍ وتقريعٍ، لعدم الدقة في تقدير الوقت، وارتبك خطو الحسباء والوجهاء، حين (انزبق) توفيق وحمزه، وعيونهما تقدح شرراً، فأمسكوا بهما ودفعوهما بينهم، يخفونهما عن العيون:

ــ : هس.. كفّا عن غيّكما يا ولدي ضيف الله؛ كي لا تثكلكما أمكما..

ــ : واحرصوا أنتم على بحبوحة ذلنا هذا..؟!..

وثار بينهم لغط متوتر، بأصوات يخنقها الخوف والحرص والحذر الشديد، كي لا ينكشف أمرهم. وعرف الحلبيان الراصدان، أن جماعتهم ليست الجماعة الوحيدة، فيما تطوّعت له، ثم حدث أن أفشل قائد الحامية خطتهم، حين خرج في رهطٍ من مخاتير الأحياء، وهرع إلى عربته نطاطاً مثل جندب، وراحت به العربة مسرعة، يحيط بها المسلحون الأشداء، فأسقط في يد الشاب الملثم، لكنه لم يعتبرها آخر الفرص، متطلعاً، إلى فعل يجعله مثل سليمان الحلبي..! واختلط الحسباء بالمخاتير، فاكتشفّوا أن ثمة وقيعة بين الوالي وقائد الحامية، وفي خلوة الحسباء والوجهاء، قال أحدهم:

ــ : إن صدق حدسي فالأستانة في اضطراب.

ــ : وما الذي تتوقعه..؟!..

ــ : مصائب تنزل على رؤوسنا، فما الذي تأمله ممن ينهش لحمك بحجة أنه يحمي عظمك..؟

ـــ : لعلنا نفهم من شكري كنيدر..

وذهب بعضهم إلى مقر جريدة "التقدم" في محلّة "الصليبة"، وتفرق الباقون يكتنفهم الضجر لغموض ما يدور، وتحرجهم نظرات الخيبة في عيون الآملين، ويؤلمهم تزايد المتسوّلين، ويخجلهم تفشي البغاء، فالفاقة جائحـــة!...، وهـــوّن الفتى عبد الجواد علي توفيق وحمزة بقوله:

ـــ : هناك من صبر على ثأره أربعين سنة. لن ننسى، وحسبنا أن نصبر..

ـــ : هل أصدق، وأنت ابن..؟

ـــ : صدق أي نعم، ولا أظنك قصدت سبّة.

ـــ : أفدت من الحكيم إدريس، فهذا ليس من بدع والدك..!...

ـــ : ألا يسرّك ذلك.؟.

ـــ : ألن تعود أنت وأخوتك إلى والديك..؟!..

ـــ : بلى... في وقتٍ قريب، وأنتما مدعوان إلى الحفل.

وقال شكري كنيدر لضيوفه:

ـــ : نعم... اضطر السلطان إلى إصدار فرمان، أعلن بموجبه الدســـتور، بعدما عطّله ثلاثين سنة..

وأعاد الحكيم إدريس، يوم الخميس ليلة الجمعة، أولاد الوجيه عبد الحميد، ممتطين أفراساً مطهمة، مرتدين حللاً فاخرة، يرافقهم صبية وفتيان؛ طافوا بهـــم أنحاء الخان وما حوله، ودعا الوجيه حسباء الأحياء، وأئمة المساجد المجـــاورة، ومن تجدر دعوتهم كما جرت العادة، وأقام وليمـــة متواضـــعة وكـــان نعمـــان وصحبه الذين يلتقيهم في بعض الغرف الملحقة بجامع زكريا، يشعرون بقســـوة المظلمة ووطأة المعيشة، يبصرون أحوال الخلق وأيـــديهم مغلولـــة، واعتـــرف بعضهم بضحالة ما يقدّمون، فالكلام لا يساوي الفعل، وغير مرة كتبوا عرائض إلى الوالي والصدر الأعظم، دون جدوى، أو اختلفوا على بعضـــها فمزقوهـــا، وكادوا يقرون تحالفاً مع الزعّارة، فيحوّلون احتجاجهم ونشاط أولئك، من لغـــو وسطوٍ وتشليحٍ، إلى لفت انتباه أولي الأمر، لتلمّس أوجاع البشر. بيد أنهم ظلـــواً مشلولين في جملة المتذمرين، يتماحكون في جدلٍ عقيم.

وكان يجد عند شكري كنيدر متنفساً، فيقرأ ويسمع فيعرف، وكان يشـــعره أن للكلمة المكتوبة أهمية بداية الفعل، وحين ذهب إليـــه هـــذه المـــرة، وجـــده

مغموماً منغمساً في عملٍ دؤوبٍ، بشّ له معتذراً، وأفضى له بما عكّر صفوهما معاً:

ــ : الفتاة والترقي بددتا الآمال يا شاعرنا.

ــ : كيف..؟.

ــ : ثمة نوع من البشر، عندما يمسي الشيطان عاجزاً فإنه يستعين بهم، اندسّوا فيهما يا صاح، وحرفوا دفتيهما إلى وجهتهم.

ــ : عانينا من أمثالهم، فلا أستغرب ما تقول.

وعاد مغموماً، وعند بوابة الخان خطرت له أبهى، وتساءل إن كان ظلمها بارتباطهما، وهو في مُضْطَرب بين الحال وشرار رأسه، وصادف نفراً من أصحاب طريقة صوفيّة، يستفسرون عمن يحاورون من نزلاء الخان، وسبق أن حضر جانباً من جلسات أرباب شعائر وطرق عدة، وأثار بعض الدراويش اهتمامه بطمأنينتهم الداخلية، وغبطهم على استقرارهم الراسخ، وصفاء نفوسهم؛ ورضاهم عما يزاولونه في الزوايا والتكايا، وتوقّف طويلاً مفكراً بحلقات الزار وضرب الشيش، ثم مالبث أن انصرف راسماً بيده علامة حيرى، وهمَّ أن يدعوا زمرة فتيات إلى جولة خلوية كرمى لأبهى، لكنه وجدهن في طقسِ تعاضدٍ، آسفاتٍ لغياب هوريك وضياع آية، وهنّ يرين الجدّة نور تكاد تنسحق صامتة، لتعاظم شعور الذنب في وجدانها، إذ غفلت عنهما وهاهي تعاني من تبكيت الضمير.

مضى مضطرب المشاعر مشتت الذهن، وتبعه فتية، بينهم عبد الجواد وعمر وحمزه، صعد القلعة واستدار مستطلعاً آفاق المدينة، فانتبه إلى الفتيان. أخذهم معه جائلين في أنحائها، حريصين على ما تندّ به شفتاه، ولم يتكلم كثيراً، لاحظوا تأمّله وشروده بين فينة وأخرى، حتى إذا اطمأنّوا إلى سكينته، سألوه عن أقسامها، ولما وجدهم تحت تأثير رؤياه، اقترب بهم من المكان الذي شغله فوق سواه، وحين سُئِلَ أجاب:

ــ : إنه حبس الدم.

ــ : وهل يُحبس الدّم.؟!.

ــ : يبدو ذلك.

ــ : لمه.؟

ــ : لعله سرّ القلاع.

ـــ : وأنت.. ما قولك..؟!..

ـــ : مرة.. رأيت فيما يراه النائم، أنني في قاعة محكمة، وثمة من نطــق بالحكم علي حبساً كذا سنة، فأخذت سلاح الحارس وقتلت نفسي، سألني لِمَ فعلت ذلك..؟! أجبته لأنني لا أستطيع تحمّل الحبس.

صمتٌ مطبقٌ هيمن على الفتية حيناً، حتى قطعه عبد الجواد سائلاً:

ـــ : أثمة ما يشبه حبس الدّم هذا في (المسكوب والأستانة).؟.

مسح على رأسه الفتى، وهزّ غرّته قائلاً:

ـــ : كبر مافي رأسك فوق عمرك..!.. ستنال مجداً يا فتى ولن تُعمّر.

جنح خيال الفتى وخفق قلبه، احمرت وجنتاه وتجرّأ، فقال:

ـــ : وإنك القائل: نختار الحياة القصيرة، وليبــق صــيتنا ذائعــاً، دون أن نجانب الحقيقة.

أسبل نعمان جفنيه مطرقاً ونبس:

ـــ : نعم.. نعم..

***

وكان الرجال دماثاً في محاورة أصحاب الطريقة، واضحين فــي ردّهــم اللبق على دعوة الانضمام إليهم، فكانت صيغة الرد مماثلة لــردّهم علــى مــن سبقهم:

ـــ : أحناف... لا نزيد ولا ننقص، ولن نجادل من يختار.

ولما أبدى عباس رغبةَ مصاحبتهم، لم يلق معارضة أو تشجيعاً، فهــم لــم يفتحوا الباب على مصراعيه، ولم يرتجوه بالأغاليق.

وكان سليمان قد ضاق ذرعاً بأجواء الخان، وبما يذكّره بالتي غابت مثلمــا دخلت قلبه، دونما استئذان، فهرب لاجئاً إلى مقهى في محلة باب النصر، فدخّن التبغ، وتعاطى النرجيلة، وراقبه والده وهو يتسلى بلعب النرد، فاطمأن إلى بعده عن الشبهات، وهو أيضاً ملَّ رتابة الأيام وتشابهها، سئم الفراغ وضاق ذرعــاً باضطهاده من أمه، وتاق مع الممتعضين من البطالة، إلى الزرع والضرع، في المروج والروابي والسفوح، والانعتاق من الاختناق بين الجدران.

وجاءهم الأومباشي في موكب، حاملاً عرض قائد الحامية، بأن يفتح لهــم باب ارتزاق يخلصهم من ذلّ البطالة:

ـــ : ولأيّ عمل يريدنا سيدك عثمان..؟!..

ـــ : شبه عسكر.

أخذه الحكيم إدريس ونعمان جانباً وسألاه:

ـــ : أومباشي .. كن صادقاً.

ـــ : عبد مأمورٌ أنا، لكنني لا أكذب عليكم.

ـــ : ما باطن الأمور..؟!..

ـــ : يريدكم أداة ردعٍ ووجه مقبحة، فقد اختلفا، ضاريان كشّرا عن أنيابهما.

ثم إنه استعوق جوابهم، فاستفسر:

ـــ : لم أسمع رداً أحمله إليه.؟!..

قال الوجيه عبد المجيد:

ـــ : ولن تسمع.

ـــ : وماذا أبلغه.؟. تعرفون طغواه.!..

ـــ : لا تقل شيئاً، فتكن قد أوصلت إليه جوابنا؛ سيفهم فهو لمّاح.

ثم سكتوا، فذهب الأومباشي صامتاً، وفي رأسه جعجعة رحى الطاحون.

وقبيل انقضاء أسبوع، كان عزيز وطغّام الوالي يقتحمون الخان، في موكب نعماء وتبرجٍ، محمّلين بأقواتٍ وعطايا وعرضٍ خاص، ينـدرجون بموجبه في خدمة الباشا مخالب خرمشه، فينالون مرضاته، ويصيبون من فضله.

وكان الأومباشي قد سرَّب إلى طرف الوالي محاولة قائد الحامية معهم، فمنذ عاد استدرك ما فاته، وبدأ اللعب على حبلين، مقلّداً حركة المنشار، لاسيما أنه أدرك تماماً نهاية الضابط كمال.

وقضى عزيز وقته مختالاً أمام أترابه، وتلطّف أمام الصبايا وأمام أمينة وقريباً من جلبهار، وقد غرّه امتداح حلّة يرفل بها، وهناءة واضحة على وجنتيه، حدّثهم عن الباشا وأبّهته، وفي لحظات كان ينسى نفسه خلالها، فيحدثهم كما لو كان الباشا ذاته أو نداً له، وتزيَّد في تبجحه التفاف الفتيات حوله، وهاهي ذي أمينة، ترنو إليه بولهٍ، ولطالما انتظر التفاتة منها، فناغاها بهمسٍ جعلها تشهق غبطة، أضفت على أنوثتها عذوبة الماء الزلال،

وعرض عليها زواج الدخيلة في الآن، وإنه يجبرها عند الوالي بالذات، ريث أن تسوى الأمور وعقد القران بالحلال، فشعّ وجهها فرحاً كأنها في حلم، واختفت خفراً بين الجدّة نور وقمر، برغم أن أمه نادتها، لكن الجدّة نور استعجلته سائلة:

ــ : أتريد أمينة حليلة يا ولد..؟.

ــ : إذا رأيت أنني أستطيع إسعادها، أيتها الجدّة المهيبة.

ــ : إذاً قل ما وراء عرض الوالي..؟!.

ــ : يبغي أشاوس يردعون المارق.

تسارع فتية ورجال يعلنون موافقتهم، لكأنها فرصة أنزلتها إليهم الســماء، ومنهم من ردد:

ــ : مكرهٌ أخاك...

وهي ذي سانحة لا تعوّض، ليقتص ذوو القتلى من غريمهم القتول، ثم إنها على حدٍّ قول أحدهم، تؤمّن لهم لقمة الزَّقُّوم.

وفي اجتماعهم وقت جنّ الليل، علا صوت الحكّاء لقمان قائلاً:

ــ : كلاهما غول.. فحذار..

وحكى لهم حكاية مناسبة، وردّ عزيز حانقاً:

ــ : لقمان أيها الثرثار.. هلاّ صمت..

زجره الوجيه عبد المجيد قائلاً:

ــ : بل تتأدب وتسكت أنت.

وتمتم الحكيم إدريس:

ــ : ويلٌ لمن لم يتعظ بعد.

وقال نعمان بصوته الجهوري:

ــ : "إذا قاتلوا الضبع فنحن عصاهم.

وإذا خافوا فنحن حماتهم.

وإذا انتهى عملهم فنحن كلابهم.".!.

خيّم الصمت والرؤوس مطرقة، ثم دقّت الجدّة نور بعصاها، قائلة:

ــ : ما قاله نعمان للأسف صحيح، ابقَ معنا يا عزيز، ولا تعد إلى حيث كنت، فأزوّجك أمينة للتو.

ـ :هذا شرط تعجيز..!..

ونظر إلى نعمان شزراً، ثم أخذ أمّه، مقسماً ألا يعود إلى الخان ثانية، ولن يعرفهم بعد الآن، ومضى ضارباً الأرض بنزق.

غافلت جلبهار أترابها، ولحقت بهما خلسة، وهي تنظر إلى أمّه على استحياء، ونظر إليها منجذباً، كأنها التعويض عما أخفق به، فأخذاها على عجل، ودلفوا المسجد القريب لعقد القران، وكان بعض ذوي القتلى قد تبعوه، لكنهم تسمّروا إثر صيحة الجدّة نور قبل أن يصلوا باب الخان، واستأنفوا جدلهم بوتيرة حامية، وما فتئت أمينة تنشج ساهدة.

****

16

ضرب النافذة، فانكسر الزجاج، وانسحجت قبضته.

ــ : كاهانا اهدأ..حريٌّ بنا أن نحافظ على مظهرنا المسالم.

ــ : وأنت.. احذر الخلط في وعظك، فذلك يتمُّ باسم عثمان، وليس باسم كاهانا. لن يفطن إليكم أحدٌ، ولابدّ من قتله.

ــ :سيحصل. إنما ليس بطريقتك في غضبك هذا.

ــ : وكيف إذاً..؟!.

ــ : القتل هو القتل.. اهدأ وتذكّر معي غرامه بـ"عثليا"ــ وداد خانم ــ..

ــ : مخلصة لا يُنكر إخلاصها..!..

ــ : عثليا .. تعالي، مغفورٌ ذنبك سلفاً، ستقضين ليلة مع الوالي أو ليلتين، تسقينه دم الحيض مع شراب يفضله، فيموت لاحقاً، أو لا يتعافى أبداً... هــه... وماذا بعد يا كاهانا العزيز..؟.

ــ : أرض البادية..

ــ : "طوّبناها" باسم اسحق وابنتيه، ونبني عليها نواة قريتنا، لكننا احترنا فيما نسميها.

ــ : "القرباطية". فليكن هذا اسمها.

وتخيّل أن يكون فيها ماخور وحانة وأنموذج مرصد، وخازوق ومفسدة، فالزمن يهدر قادماً لا محالة، ومن لا يذهب إليه، حكم على جدواه وأداً بكثبان الأيام ذات الظلال القاتمة، وكان يشتمهم بقوله: "سيكان ــ قرباط" ليكسر حدة إحباطه من هشاشة جذور انتمائه، ولطالما أرّقه أن يتكرر في أضغاث أحلامه، أنه يسبح في ماءٍ لا يجد فيه غير الأشنيات..!!..

ويسبّهم غيرة من نقاء دمائهم ودفئها، غنية بكرياتٍ محبّة وردية، ولرغبة غائرة في أعماقه، أن يقضوا حياة لا تعرف استقراراً، نكاية بشعوب الأرض، حاشا من هم فوق الخليقة ممن يمّتون لأمّه بصلةٍ، ولتتنكّر لسواهم الأصقاع، فلا يحرثون، ولا يأنسون داراً، يردمون موتاهم حيثما كان، يوهنهم الجوع، ويجفّفهم العطش وتقتلهم الأوبئة، يسكنهم الخوف دائماً، ويمحق الهول ماء ظهورهم، وتتقصف فروعهم كالحطب، ويذروهم الهواء الغاضب مع غبار البوادي، فيذهب بهم كما ذهب بالرومان، وبما كان لعمر بن عبد العزيز حين اتخذ تلك البقعة محطة له، ويتمنى ألا يعرفوا ما تركه الرومان منقوشاً على حجرٍ هائل من البازلت، وقد أبرزوه بأزاميل مبدعين:

ــ : (مررنا من ههنا فبنينا وعمّرنا، فابنوا وعمّروا.. يا من تحلّون في هذه الديرة من بعدنا.).

يريد لهم أن تعصف بهم النوائب، فإن مالأتهم الأيام، فليعيشوا كخنافس جبل الأحص، حشرات سوداء قميئة، لم ترتوِ من ماءٍ أبداً، فهي جافة متخشّبة يابسة لا طراوة فيها، وكان قاسياً عدم ردّهم عليه، وباللإهانة من صمت مقصود، وبالطيور البطريق الثلجية؛ وطاقتها على صبر صموت لا يجارى..!!..

من علّم أولئك البُؤَّس.؟. أهي الجبال الصقيعية وكمون الخليقة في فصلها الشتوي الطو... يل...؟!.. أم هي الخبرة المكثّفة في الملاحم والأساطير (الضاربة في الأزل)؟!..

أم أنهم تعلّموا من أمثال الجدّة نور... تلك الشجرة المتجذّرة المتشعبة..؟!.. أم من أغصانٍ متفرّعة بقوّةٍ، أمثال إدريس ونعمان وقمر ولقمان.؟..

ــ : (تراني خلعت عليهم أسماء كي أمسخهم، فإذا بهم يتمثّلونها ويعملون بإيحائها.؟!.. أكان الأجدى أن أتركهم بأسماء حددها لهم السلطان.؟!.. أم كان غباءً عدم إبادتهم مع أولئك المتنوّرين على تلك الهضبة..؟!..

تباً لك في مرقدك يا ألكسندر الأبرص، لو أنك أشرت أو همست.!!!... أما كنا قدرةً وقدراً والتهمة كانت جاهزة.؟. ومن بدأ اللعبة بتسعة قتلى، سهلٌ عليه أن يعدّ تسعة وتسعين أخر. الصمت يا ألكسندر.. أتعرفه.. قل لي كيف يُقهر.؟!.. وهو أحدّ من سيفٍ وأمضى من طلقة..!!..)).

صعقه عدم ردّهم على فرصة أتاحها لهم، حيّره كيف لا يخطف المتضوّر لقمة مُدّت إليه.!. أتاح لهم أن يكونوا حوله مثل كلابٍ مرهوبةٍ، يقضّ مضجع الوالي بهم، ويلهب ظهر المدينة ببأسهم، يطلقهم في أثرِ الوالي مثل كلاب الصيد السلوقية، ويمسون في أعين أهل المدينة (قبضايات) تصدّوا لجلاوزة طاغية الأستانة، لكنهم "قرباط ــ سيكان"، وهذا أس الكلام. العمى.!!. الهذا الحدِّ شدهوا بدعوة الراعي الأميّ الجلف.؟!.

ربما..أو ليس جلّهم رعاة جلفاء.؟!..

لم تهدأ نفسه وأجيج غيظه، لكنه نفَّس عن كبته الغضب، وإلا لتخلخل قحف رأسه، ثم إن رسول "تتيفا" خفّف عنه، وأسعدته إشارتها إلى أنهم يأكلون الزيتون.!. لكنه قلب شفته، وقبّبَ كتفيه لأخبارهم، وطمأنته أنّ خمساً من المخلصات عوّضن فقداء الطريق، فوضعن خمسة مواليد، هم أول المباركين، وأنّ بعض المتنفّذين في الطريق أظهروا تعففاً، وبعضهم كانوا شديدي الشبق، وأن المواليد الخمسة ينمون على صدورٍ مدرارة..!.... ويحظونْ بعطفٍ فائقٍ وعناية كبيرة من ذكورٍ كثر، يخالج كلٌّ منهم أن أحدهم قد يكون ابنه..!..

ــ : (ولعلَّ أحدهم يشبهك، عدا عن أنه شديد التعلّق بصدر أمّه..! فلا يسكت إلا به..!!)...

اختلى بنفسه ولم ينم ليلته تلك.. تحلل من كل قيدٍ ومهمة، وظلَّ يغني إلى أن صفا رأسه، فغفا كفتىً غرير دوّخه السهر، وداهمه الصبح على حين غِرَّة.

***

وظلَّ الوالي يتابع أخبار الأستانة.. جافاه النوم وأرّقه تهريب أمواله وشغله تحويل ما جناه إلى ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، وحرص على تفويت ما أمكن على شريك الأمس عثمان، فتقرّب من الناس، وبذل وعوداً سخيّة، وأمضى رمضان ورعاً، يصلي العشاء والتراويح في جامع زكريا، وأمر بمائدة إفطارٍ على مدار الشهر لمئات الأفواه، وحبس قططه في القفص، وأرجأ تحصيلَ الأموال، وجعل بعض المحابيس في خدمته، فكسب ولاءهم وتأييد ذويهم، ووجّه (الجندرمة) إلى التخفيف عن الناس، وصبَّ جام اهتمامه على مراقبة "القشلة"، وذهب إلى بعض ضواحي المدينة، فأنهى مشكلة عقّدتها ــ من قبل ــ تعليماته، بين فئتين من مهجّرين ومقيمين، وطفق يبدي وداً لشيوخ العشائر ورؤساء القبائل وزعماء الأحياء، كأنّه ما ظلم أحداً ولا تجبّر يوماً!.. ملقياً الملامة على كاهل قائد الحامية، وكانت الشائعات تتمّ عن نفسها، وما من دخان

بلا نارٍ، فالمدينة قبلة الوافدين من شتى الأصقاع، وعلى رأسها الأستانة، والناس بين مشدوهٍ ومكذّب، ومن ذا الذي يصدق أن جلالة الملك الأعظم، في الدولة العظمى، قد استدان وأنه مفلس..؟!.. وهو ركن السلطنة، وعماد المملكة، السيف القاطع، والنجم الساطع، سيد البرين والبحرين، درّة الشرقين وغرّة الغربين و...!؟.!...

وشكري كنيدر نشطٌ، لا يتوانى عن نشر ما يعلم به، إن لم تمنعه إحدى قوتين باتتا تتنازعان التصرف بالمدينة، يُضطهد وتُحجز نسخ الصحيفة إن ورد نبأ لا يعجب أحد الطرفين، برغم أنّهما لا يعرفان تماماً كفة من منهما سترجح، وبرغم أن كلاً منهما يدرك بيقين، أن نهايته مرهونة ببقاء الآخر، فالمكان قد ضاق بهما، ولم يعد فيه متسع لكليهما معاً، فالخطط نضجت وتتهيأ لتعطي أكلها، تأخذ بآمال الضابط عثمان إلى أقصى مداها، وتجعله يكاد يلمس مكانه بين أمثاله ، في كوكبة تتسنّم السدّة، فهم الحكام وهم الظلاّم، وكلٌّ منهم سلطان زمانه، وإنهم يمرّغون خطم البعير في الرمل، ليكون لهم الجمل بما حمل، حلم كبير يبدو شبيهاً بالسراب، وإنهم حين بدؤوا، حذفوا مفردات محددة، وعلى رأسها ــ الاستحالة ــ وإلا كيف يتحقق الحلم، ولمن يتركون تركة المعضول، وهم يرون أنهم أحقّ بها، ورأفة به فإنهم يعجّلون بوضع حدٍّ لتباريحه..!..

بينما يتمنى الوالي أن يدوم العهد؛ وإن فني الخلق. وكان يحدس:

ــ : (وإن كنت ــ شرّابة ــ في خرج دابتك، فأنا راضٍ، وإنني تابعك... أدامك الله... آمين.).

مرعوب ترتجف روحه، لا يظهر خوفه، أحسَّ بالعطب ولا يريد أن يُصدّق، متشبث بأظافره وأسنانه، حتى الرمق الأخير؛ يهرب إلى أمام، كأن شيئاً لا يحدث، فحرث حارات المدينة بجولات اعتباطية، ولسانه يكاد لا يستقر في فمه، ولا تستقر يده إلى جنبه، يصافح مَنْ هبَّ ودبَّ، دؤوب الحركة لا يركن في مكان. دخل بيوت أناسٍ؛ لم يأذن لهم أن يقابلوه من قبل. وهاهو فجأة يوجّه موكبه إلى خان الصابون، واستأذن بدماثة أن يكون نزيلهم ريث يستريح، فقد أرهقه التطواف، وله عندهم مطلب، ولم يذكر عزيزاً وكيف ردّوه خائباً، ولم يعاتبهم لردّهم هديته وأعطياته، وسأل عن الحكيم إدريس والجدة نور ونعمان، وعيناه تجولان في وقبيهما باحثين منقّبتين هنا وهناك، وما فتئ يجامل الوجهاء، ويلاطف الرجال، فشرب شاي السماور، وطلب خبزاً وملحاً، فغمس قطعة في الملح ومضغها، وأعلن أنه بذا تقرّب منهم بقدر ما يستطيع، لكنه

يطمع أن يكون أكثر قرباً، ناور ثم قذف إليهم بطعم لا يقاوم، فخمسة من أولادهم يدرسون في "الخسرفية" والمدرسة العثمانية الدينية، على نفقته الخاصة، ويقبل بمن يزكّيهم الشيخ الإمام، وأبدى توقاً لسماع تلاوة من آي الذكر الحكيم، من الفتى عمر بن الحكيم إدريس، أطرق منصتاً، وأفاض من مآقيه دمع تقوى وورع..!.. ثم همس سائلاً عمن عساه يخاطب، والوجوه من حوله سَمحة، يحار المرء بينها وكلها رزينة.!..

ــ : عدّنا من بيت واحد تعددت غرفه، كبيرنا يسمعك، وصغيرنا منصت إليك..

أزفت لحظة الاندفاع هرباً إلى أمام، ولا مناص من إزاحة الوشي والنمنمة، وهاهي ذي غايته بادية، مثل دودة تحرر نفسها من قزٍ أفرزته ناعماً حولها:

ــ : جئت أناسبكم.. طالباً القرب منكم..

ران صمت مباغت، فالكلام أزّ في الآذان، ودقّت قلوب عذارى خفّاقة.

ــ : فمن أكلّم بشأنها.؟

ــ : من تقصد يا باشا.؟.

ــ : ذات العفاف قمر.

التفت الوجيه عبد المجيد نحو الوجيه عبد الحميد، وأشار الشيخ الإمام ناحية الجدّة نور، فخاطبهما وانتظر جوابهما.

ــ : لا زواج عندنا دون قبول العروس يا باشا.

ــ : سلاها.

لم يمهلهم وبدا ملحاحاً؛ برماً بالمدة التي طلبها الوجيه لاستمزاج الرأي، وبرغم إصراره، وجد نفسه ينصاع لتمسكهم بتقاليد لها مكانة الشرائع، وغادر راضخاً، إلا أنه أوحى بتلهّفه؛ ولمّحَ إلى أنه سيكون صهراً نافعاً؛ مبدياً أسفه وامتعاضه لأوضاعهم، ولم تفته الإشادة بطاقات شبّانهم والإفادة منها، وجعل في كلامه إشارات إلى منفعة يبذلها لهم إن هم أحسنوا إجابة طلبه، وأمضى الطريق يحدس معللاً حسن رأيه وصوابه:

ــ : (بلى.. وإن كنت مزواجاً، فهذه مختلفة، وبها تصيب مرامين، تنعشك وتجلو غمّتك فتجدّد شبابك وتنسيك همك، سيد أنت معها وباشا ما حييتما، تبدد

حرمانها وعوزها، فلا تنسى فضلك وجميلك؛ لاسيما أنك ستنتشل ناسها من بطالتهم، يبلعون الطعم ويقولون صهرنا أفادنا، فتضرب حولك سوراً من رجال تمرّسوا القتال، لن ينفروا فابنتهم في فراشك، تدفع عنك سوء الظن إن وسوس في صدورهم شك، إنك تستخدمهم درعا، فتردع بهم ذاك الأرعن، فيرضخ لك، وتعيده إلى حظيرة الإذعان ذليلاً، فتتعزز مكانتك، وتقدّر الأستانة صنيعك، ويأتيك تجديد الولاية.)..

***

أحجمت الجدّة نور عن بيان ما يدور في خلدها، بل إنها اعتكفت جانباً لا تكلّم أحداً، برغم محاولات إدريس ونعمان الاستئناس برأيها، فقد تطوّر الأمر، ولم يعد يعني قمراً وحدها، فالجدل محتدم، ومامن أحدٍ إلا وجد جانباً يعنيه من شأن قمر .! كأنها ليست حرّة في أن تقول كلمتها..!...

إن رفضت حاججوها أنّها تحول دون عمل موعود ينقذهم من سوء حالهم، وإن قبلت تكون قد باعتهم وذهبت إلى من لم يلتفت إليهم، إلا لينال امرأة منهم، ألم يقل لقمان أنَّ كليهما غول..؟!...

وجاء عزيز غير مرةٍ، يطلب الردّ لسيده، وقمر حرون..!..

ـــ : هذا باشا يا قمر.!..

ـــ : لن يصبر طويلاً على دلالاك وتمنّعك.

ـــ : تعيشين مكرّمة. قمر خانم حرم الباشا، أمرٌ ليس بقليل..!

ـــ : يجد شبابنا عملاً فيتيسر زواج صاحباتك.

ـــ : أتنسين ذلنا وقتلانا يا قمر؛ وهو أحد رؤوس التنين.؟!..

ـــ : كيف ينظر أهل المدينة إلينا، وبنتنا في "حرملك" جلادهم.؟!..

ـــ : طال الأمد يا قمر .. سينصرف عنك فتندمين.

ـــ :إن قبلتِ؛ ثم رجحت كفة عثمان، سينتقم منا شرَّ انتقام.

ـــ : كمال ليس بعائدٍ يا قمر ..!.

ـــ : مقطوعة من شجرة يا مسكينة، وإنك تكبرين..!.

ـــ : أبتاه.. أيها الوجيه عبد الحميد. أنقذني من تصدّع رأسي.

ـــ : أخشى أن أظلمك.

ـــ : أبتاه قل شيئاً... الصمت مرير.

ـــ : زواجك فيه منافع لنا جميعاً، وقد يضرنا، ولا أدري..

جلست قربها ووضعت رأسها على الصدر الحنون، وهمست سائلة:

ـــ : أمي.. ابنتك في عذاب قاتل.

ـــ : لولا أبهى لكان نعمان أجدرهم بك..إنما..!..

ـــ : وكمال يا أمي..؟!..

سقطت على جبينها دمعتان بدفء حبة القلب، من تينك العينين الصادقتين، لمستهما غير مصدّقة، فهي لم ترَ للجدّة نور دمعة من قبل، بيد أنهما ها هما كلؤلؤ حقيقي، ومثل ماء السماء.!.. فهبّت بجلجلة مثل شجرة رمان كثيرة الجلنار، هزّتها ريح مفاجئة، فوحوحت وهرعت؛ وفي رأسها ضجيج مآسي المسير، وفي صدرها مناحة وعويل، واندفق الدم في كيانها، لكأنه هدير سيلٍ؛ يجرف وجع الروح والحب الحزين.

واعترض الفتى حمزة طريقها. لم يتكلم برغم أنه علىحافة الانفجار، سألته:

ـــ : وأنت.. ما قولك..؟

انفجر باكياً بكاءً غامضاً صعب التفسير. ربتت على ظهره، ونادت:

ـــ : نعمان... أيها الحكيم إدريس، رافقاني إلى الوالي.

تسمروا في أماكنهم كشجرٍ عرّاه الخريف، شيّعوها وقوفاً وعيونهم شبه أعين الصقور.

ـــ : باشا... إنني موافقة...

ـــ : حقاً..!!..

ـــ : بشرط.

ـــ : ذهب أم أرض أم ملك..؟!..

ـــ : رأس الضابط عثمان..

ـــ : ذلك ليس شرطك، إنما هديتي لك، فلنتحالف لتحقيق ذلك..

حدّثوه بماجرى، فأيقن أنه كان لعبة بيد حاوٍ، وازداد إصراراً على المجابهة، بادئاً بما يمكن تداركه، وحاول الوقوف على حقيقة الوضع في الأستانة، لكنه فوجئ بالسبل مسدودة في وجهه، ولم يوفّر جهداً لإقناع قمر، فالأمر يستلزم أسلحة الرجال، فوجدها متمسّكة بمطلبها، فاستشاط غضباً، وكاد

يهدد ويتوعد، بيد أنه كبت غيظه والنار تلسعه، وصمم أن ينالها، ورأس الثعبان عثمان بين براثن قططه، ومضى يؤلّب الحسباء وشيوخ العشائر على غريمه وينشد ودّهم، فلم يحصد غيرما زرع....

***

أتته الخانم أمه متوتّرة، لعلها تجد تفسيراً لما حلّ بها، فاستشفّت مالا تريد تصديقه، وأنّى لها أن تفصح وفي فمها ماء علقم، والمستحيل ذاته هو أن تتكلم، فقفلت راجعة وحنقها يخنقها، وقد فقدت أُلهيتها والذهب والمجوهرات وترياق الجسد..!...

ثم إنه وجد الناس في بلبلة، فاستبسل كي يمنع غراب البين أن يحطّ على السارية، ولم يألُ جهداً لإخطار قصر يلدز بما خمّن وإن لم يتأكد، فباءت محاولاته بالفشل، وهو لا يدري أنّ الأمر كان مقضياً. استنجد واستغاث ولا مغيث، وازدادت حمى الاندفاع هرباً إلى أمام، متغاضياً عن دخان النار ولو إلى حين، وطفق يلحّ أن توافق قمر ، ولها ماتشاء مما في يمناه ويسراه، فوجدها أشد إصراراً، قاطعة دابر المساومة، وحين تأكد له أن قائد الحامية غادر سرّاً إلى الأستانة، اغرورقت عيناه بدمع القهر فاقترب منها وهمس:

ــ : فات الأوان.

ومضى ينوء بالإخفاق، باذلاً قصارى طاقته كي يبدو متماسكاً، وفي قرارته، أحس أنه كتلة خيبة تتدحرج كيفما اتفق، ولم يهن عليه أن تراه مغلوباً، فأمر بنزوحهم عن المدينة إلى خناصرة عمر بن عبد العزيز، هناك في جوف البادية، حيث ثمة قرية تنتظرهم، وقد بنيت على دوارس وأنقاض، وُجدت في بعض بؤرها ست خرزات على أعماق مختلفة لفوّهاتها.

وأرّقه ضعفه وقلة حيلته، فهدّه التعب، لكن صلفه لم يهجعه مستسلماً، فاندفع هارباً ــ مرة أخرى ــ إلى أمام، فوجد راحة عند الخانم وداد، وفي الوقت الذي كانت فيه هوريك وعصبتها في أثر الضابط عثمان، كانت وداد تسقي الباشا شرابه المفضّل!..

***

حين قطعت القافلة تخوم قرية السفيرة؛ موغلة في دربها ما بين أقدام الجبل وأطراف مملحة الجبول، كانت الجدّة نور ترتعش مرددة:

ـــ : عثمان... أيها الباغي.. نحن لن نُقهر، ولسوف نتزنّر بجذورنا كالشجر..

وكان شكري كنيدر في مطبعة صحيفته، ينضّد حروف خبر خلع السلطان عبد الحميد، وبدء عهد يكتنفه الغموض!...

ونهر الذهب يدفق المزيد من مائه العذب، فيزداد امتداد جسد بحيرة المملحة، وتلك جنباتها فاضت على السبخة، تغمرها بماء أُجاج، مثل ملوحة ذاك البحر المغلق في أرض الزيتون، فيمتد ماء البحيرة في سبختها، ليغمر حضيض جبل الأحص عند موقع ((مطكْعة الجحاش))، وذاك هو رابض على صدر الفلاة، كجثة مخلوق أسطوري، قتلته غضبة بركان نفث ما في جوفه ثم استكان.

وحين استقبلتهم حجارة سود عند أطراف الجبل، وبدأت دوابهم تطحر وتزحر من وعورةٍ ووحلٍ وحفرٍ وماءٍ وحجرٍ، كان الضابط عثمان قد أحسّ بمن يتعقّبه، وكان شكري كنيدر يودّع الشاعر نعمان؛ في طريقه للقاء الشيخ سيد درويش، القادم بجوقته من المحروسة مصر إلى برّ الشام، وقد أودع أبهى في كنف الجدّة نور ريث أن يعود؛ أو يأتي ليأخذها معه إلى أرض الكنانة.

ولما خاضت القافلة في السبخة إلى منتصف المسافة، كان إسحق وابنتاه يتعقبونها في طريقهم إلى "القرباطية"، تراود (زليخة وهاجر) هواجس وأحلام، مخافة إخفاق وأملاً بتحقيق المهمة، فتبدو لهما سهلة بقدر ماهي من صعوبة، يحدوهما طمع جعلهما تتطلعان إلى مكانة مرموقة بين جنود "يهوه"، فيما إسحق يشنّف أذنيه مستغرباً صياح ديكٍ في هذا المكان، وقت انتصاف النهار..!!

وقف الديك على ظهر بغل العربة، واستمر بصياحٍ كالنحيب، ثم قفز وجرى يتخبّط في الوحل موغلاً في السبخة، داخلاً في الماء الغريق، تطيّرت قمر فرفعت هدب ثوبها راكضة خلفه، باذلة طاقتها لإنقاذه، لكنه استسبسل في الابتعاد إلى عرض الماء، ومازال يكافح نحو اللج، وما برح يطلق صياحاً كما لم يفعل من قبل، وقمر تركض وتقع وتتخبط، وهو يبتعد، ثم أخذ الماء يغمره، ولم يعد يظهر منه غير رأسه، فصاح صيحة كالنعيب، وغطس إلاّ عرفه، وحين أدركته كانت حوصلته قد امتلأت بالماء المالح، وعادت به جثة وقد لوى رقبته، ونفق، وخاض إليها حمزة يساعدها، فتقتلع قدميها من الوحل واحدة إثر واحدة، وحين خرجا كان الناس في وجوم، وقد ترجّلوا خائضين في الماء

والطين، وخبرٌ أبحٌّ خلخل هواء الفضاء، وذهب فيه يرتطم بالسفح والشعاب وحجارة الجبل البازلتية الكالحة، كحفيف آلاف الطير.

ــ : الجدّة نور..!..

وإسحق يلتفت إليهم فيتشفى متمتماً:

ــ : دونكم المملحة، عيشوا فيها كسمك لم يحيا فيها قطّ، ودونكم السبخة، انغرسوا فيها مثل شجرٍ لم ينبت فيها أبداً.

._____

._____

«ولم تتم»

الرقة

(2000 ــ 1997).

****

(إشـــارة)

« إرهاصات الرواية ظهــرت فـــي عـــدة قصـــص، ضـــمتها المجموعات القصصـــية، لاســيما قصص: جولة في الضمير ــ ذلك الحلم ــ حكاية الحكايــات ــ مــن يعيب بكاء الرجال ــ قمر ــ دائرة بألف استدارة ».

****

ـ صدر للمؤلف ـ

1 ــ استنشاق رائحة اللون ــ قصص.
2 ــ المطر في خامس الفصول ــ مسرحيات.
3 ــ اضطرام الهويس ــ قصص.
4 ــ الدم... حبراً!... ــ قصص.

***

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

البشر وحتى الشجر: رواية/ سامي حمزة – دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 – 253 ص؛ 24سم.

1- 813.03 ح م ز ب　　2- 813.009561 ح م ز ب

3- العنوان　　4- حمزة

ع- 2001/6/1054　　**مكتبة الأسد**

❑❑

سامي حمزه

مواليد قرية خناصر، محافظة حلب- 1948
مقيم في مدينة الرقة.
يعمل في حقل التربية.
عضو اتحاد الكتّاب العرب- جمعية القصة والرواية.

كتبه المطبوعة:

1- استنشاق رائحة اللون- قصص.
2- المطر في خامس الفصول- 3 مسرحيات.
3- الساخرون- قصص ساخرة- مشترك.
4- اضطرام الهويس- قصص.
5- الدم حبراً- قصص.
كتب النصوص التلفزيونية. اثنان منهما مصوران.

❑❑